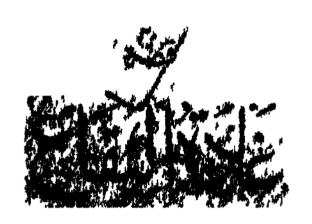


ليوسف نقولا نقاش

(احد محرري جريدة المصباح)



بمطبعة المصباح في بيروت سنة ١٨٨٩

الفصل الثاني

(في محن الزمن و بلايا

﴿ ١ ﴾

قلنا « والحديث ذو شجون » ولما ان تمت حفلة العقد وانقضت حفلة الاكاليل ارتفعت الاغاني والزراغيت وصاح الحشد صوتاً واحداً : ليهنأ العروسان ليعش لنا هلان . وتبع ذلك اطلاق البنادق والعزف بالموسيقى واخذ في الرقص والقصف على ابدع فن واعجب اسلوب وتقدم الحاضرون افواجاً الى العروسين يقولون لهما : بالرفاء والبنين . اما غادة البقاع فلم تقع ابصارها على احد من معارفها وكان كل من في القصر غير عالمين بكنه امرها وحقيقة حالها مع فريد ولا عارفين المؤتمرين عليها ولم تكن تدري ان طرفاً شاخصاً اليها من خصاص شجر حديقة القصر ودمعه ذارف كالجدول او كالنهر وانما ذلك الباكي الحزين هو عزيز التعيس الذي ما عتم ان مضى وانصرف اثر تمام عقد الزواج وكأنه يقول

هو الحب فاسلم بالحشى ما الهوى سهلُ   فما اختاره مضنى به وله عقلُ
فعش خالياً فالحب راحته عناً   واوله سقمٌ وآخره قتلُ

وبات فريد يبكته ضميره اشد التبكيت لا يشعر بسرور خالص من شوائب الغم والانقباض والهم والامتعاض خصوصاً اذ جاءه الروسة واخذه بيده منفرداً به وقال له : أرأيت كيف جعلتك محظوظاً ذا جدة وجد ولقد انجزنا قسماً من اعمالنا ولكن لم يحن لنا اوان الراحة والفراغ من الشواغل لانه ينبغي ان نبحث عن الورثة الآخرين قبل ان نستولي على التركة ونستمتع بالثروة ثم همس اليه : لا بد من قتل هولاء ايضاً ليتهيأ لنا وحدنا ان نستأثر بالمال ! ... فارتعدت فريصة فريد خوفاً من ذلك . وكانت الافراح قائمة بين جمهور المدعوين ولم يشعر احدهم بشيء مما ذكر وكان الرجال والنساء الاغنياء قد اكثروا من التأنق في الحلي والحلل لاشتهار حفلة هذا العرس انها تكون بالغة في البهجة والانق والحسن والرونق وكثيراً ما تسمع قول المرأة لجارتها ما اجمل هذه العروس بيد أنها قلما تكون ذات استئناس بالناس لان دلائل العزلة وآثار الوحدة والوحشة بادية عليها . و بات القوم في قصف ورقص

يفرحون ويطربون الى منتصف الليل فنصبت موائد الوليمة مستوفية اسباب الهناء والبهاء وقدمت الوان الطعام الطيبة الفاخرة فدار بها المدعون جلوسًا على الكراسي المصفوفة وكانوا اذا قام فوج منهم خلفه آخر وما زالوا كذلك حتى انصدع الفجر او كاد فرفعت الكؤوس على ذكر العروسين وانشد من شهد من المغنين في ذلك الحين

قم يـانديم ودع مقالة من نصح　　فالديك قد صدع الدجى لما صدح
لاحت تباشير الصباح فأسقني　　ما ضاء في الظلماء من قدح القدح

ثم اخذ الحشد في الانصراف معيدين التهنئة والشكر للعروسين وقد اخذا بمجامع القلوب بما ابديا من اسباب الايناس والاكرام في تلك الليلة الزاهرة فغدا كل امرىء يحدث صاحبه بشأن فريد امير الغاب وما بلغه من العز وادركه من المعارف وتوفر عليه من اسداء الصنائع والعوارف في هذه الدعوة

* * *

ومضى سنة على زواج فريد المحسن ذكره وطاب سمعه وعظم قدره بين اهل بيروت لكونه ظهر سريًا غنيًا دفعةً واحدة فعرفه الخاص والعام واثنى عليه كل لسان وتناسى الناس «ودأبهم النسيان» ما صار اليه في الامس اعتبارًا بما آل اليه اليوم

هو الجد حتى تنضل العين اختها　　وحتى يكون اليوم للامس سيّدا

فبعد ان كان فريد ذليلاً مقلاًّ لا صديق له ولا رفيق قد ظهر هذا المظهر الجديد محظوظًا بعين العناية ملحوظًا فاقبل عليه القوم يغبطونه ويكرمونه قريبهم و بعيدهم معظمين ثروته مقدرينه بقدرها سنّة الدهر خلت من قبل ولم تزل غالبة على ابناء هذا العصر يعظمون المرء بحسب ماله لا بحسب خلاله و ينظرون الى كثره وقله لا الى وفرة علمه وفضله ويحفلون بنشبه لا بنسبه ولذا يقال « له نسب وما له نشب إنْ هو الاّ خشب» وقد فتح فريد باب قصره وفسح مجلسه لاستقبال الوافدين عليه من ذوي الوجاهة والظرف والكيس واللطف وبدت غادة البقاع في صدر القاعة نحيلة الجسم هضيمة الكشح منقوفة الوجه غائرة المقلتين ومع كل ذلك ما برحت ملكة الحسن والجمال وسيدة ربّات الجمال تشخص نحوها الابصار واليها يشار وفي النفوس من معاني خلقها اسرار . وكان فريد يوالي الولائم ويكثر من مجالي العز والجاه في خلال تلك الايام التالية عرسه . ثم عاد الى قصره بالمدينة ببيروت وزينه بالفخر الاثاث وآنق المفروشات واقتنى من جياد الخيل كل مطهم سابق ومن جدد العربات ما كان احسن وآنق واتخذ كثيرًا من الخدم والحشم وجعل ينفق اسرافًا بغير حساب مما

كان يمده ويصله به الروسة على جهة التركة العائدة الى غادة البقاع علمًا بانه سيستمتع ذات يوم بنصف المال جزاء مساعيه في مساعدة فريد على درك أمانيه : وعني أبي فريد في اتيان المبرّات والاعمال الخيرية تكفيرًا عن مساوئه وتخفيفًا لما لحقه من شدة تأنيب الضمير او إدلالاً بالعز والجاه وطلبًا لجميل الثناء فانشأ مستشفىً للفقراء والمعدمين وتبرع بمالٍ كثير في سبيل المنشآت العمومية الموقوفة للبر والاحسان واتسع في توزيع الصدقات على المعوزين والبائسين وبسط يد السخاء للجمعيات والمعاهد الخيرية وكان يُري من نفسه آية التباهي بان جدواه ونداه كجدّته وغناه واريحيته تشاكل ثروته في الافراط والتناهي ولم يقف في مسلك التفاخر عند هذا الحد بل جاوزه الى التعرف بولاة الامور والتزلف لديهم «ومن لم يصبر على الكلف لم يصل الى الزلف» وما زال يغشى منازلهم ومقاماتهم ويختلط بهم حتى صار عندهم ذا مكانة وحظوة وشاركهم في كثير من امور الجمهور وتدبيرها متوسلاً الى ذلك بصنع الولائم المونقة الشهية في المواسم والاعياد الوطنية فاضحت كلمته نافذة وطلبته لا ترد في ابواب ارباب الدولة فنال في وقت قصير نياشين ورتبًا علية وتقلد الوظائف المهمة وعادت الاعمال الجليلة رهنًا بارادته وقفًا على امره ان شاء اصدرها واوردها ولم تكن كل هذه الشواغل لتمنعه التجارة ففتح معهدًا تجاريًا وارصد له مقدارًا جسيمًا من المال فخدمه الجد والسعد ففاز بربح كثير واقبلت عليه الدينا فوسع نطاق التجارة في عملية البلاد وطارت سمعته وصار ذا منزلة ومهابة ولم يكن عين اعيان بيروت وحدها بل سورية باجمعها وبلغ شأو العز والجاه في مدة قصيرة ولا بدع فهو ابن بلاد يكرم فيها المرء لماله لا لحسن سمته وخلاله كما مرّ فضلاً ان فريدًا كان متوقد الذهن فصيح اللسان صبيح المحيّا في قلبه بقية من الشرف التالد على ان الروسة لم يبقِ عليها وهكذا اضحت كلمته نافذة في بيروت وسورية وحسنت حظوته لدى ولاة الامور وعظم شانه في الندوات التجارية والمحافل العمومية والمجتمعات الخيرية واكبر ذكره في مجالس الاعيان والملأ واحترم في بيوت المعدمين والفقراء وللجرائد يومًا بعد آخر كلام مشبع في وصف مآثره ومكارمه وقبض على زمام الجاه بيد قد طالما قبضت على الغدارة السداسية انذارًا لغادة البقاع واكراهًا لها على الزواج ! وكان الروسة لا يفتر عن مساعدته بالراي وامداده بالمال . وفي ختام العام الاول من حفلة عرسه وتاهله بلغ منتهى السعادة والفلاح فقال ذات يوم لغادة البقاع . اني جاعل هذه الديار كلها عيونًا شاخصة الى اعمالي الخطيرة..

اما هذا الفتى الذي يشار اليه بالبنان ويشاد بجلائله اجلالاً لقدره ويثنى عليه جميلاً

يحبه البر والخير بل هذا الذي يعرفه الجميع و يحبونه ما كان ليهنأ هناء خالصًا لان في فؤاده آكلة سوء أبتلاه بها العشق والغرام! . . . وها قد مضى عام على زواجه بين تلك الحزازات المكرة والامور المتاحلة والاهوال الهائلة والحسرات الآكلة فاولم وليمة عظيمة ذكرًا ليوم قرانه مخافة ان يرتاب احد في حقيقة امره مع غادة البقاع . واما هي فما كانت تزداد الأ كرهًا له ومقتًا لم تبش به ولم تهش له سالمة بيد أنها لازمت الاحتراس من ان تخرج في معاملته عن الحد الواجب اللائق به امام الناس حتى اذا انصرفوا عنهما ولج كل منهما غرفته وخلا بنفسه لان غادة البقاع ابت ان تنبسط الى فريد متبعلةً له شان الزوج مع زوجه جريًا على حكم ما اشترطت يوم عقد الزواج وقد اتخذت لها جارية او خادمة امينة تانس بها وتسكن اليها وكانت بين هاتيك الولائم ومجالي الفرح والسرور كأنها في عزلة مستوحشة مستنفرة تتاهب غضبًا وموجدة على مغتصب ارادتها وسالب حريتها . واما الروسه فما كان يجيء قصر فريد الاَّ في الندرة لتشاغله منذ سنة في طلب الوارث الآخر باذلاً اقصى الجهد للقياه اذ تعذر وجدانه وانما كان شقيقة المورّث بطرس البقاعي التي ذكرها مع شقيقه بولس في وصيته التي خلفها في جملة تركته . وكثيرًا ما سأل عنها الروسة بولس البقاعي اخاها قائلاً : لا يحق لك وحدك ان تستولي على تركة اخيك وتستمتع بثروته الوافرة واني كاشفتك بذلك ولم اكتمه منك من اول وهلة . . .

— أجل ان لي شقيقة تدعى حنَّه والعدل يقتضي اعطاءها قسمها وقسطها من الارث ولكني آسف من اجل اني لست اعلم مكانها وهل هي حية ام لا ؟ اني اجهل امرها على الاطلاق

— انى فقدتها . . . فلو قصصت عليَّ خبرها ووصفت لي احوالها كلها لسعيت في طلبها ووجدانها . . .

— وقد نغض اليه براسه ! « ان الحديث ذو شجون » فلا اصبر على وصف الاحوال السالفة — لا اعلم أشقيقتي باقية حية فترجى ام ميتة فتسلى ؟ فانها ولدت في البقاع قبلي بخمس سنين ولها خلق جميل جدًّا وقد جلب جمالها عليها وعلينا شر العقبى بما غلب على طبعها من حب المزاح فتحدث الناس بها وكان ابوانا شديدي التاديب لا يغضيان ولا يتسمحان معنا بشيء ولا يغتفران لنا زلة وان قلَّت فسئمت اختي عيشة البداوة في ذلك السهل الطويل العريض وفرَّت هاربةً الى احدى المدن واقامت بها هذا ما انتهى اليَّ من حديثها وعي من خبرها وكان انه في غضون ذلك توفي ابواي وبقيت انا يتيما

صغير السن ثم انقطعت اخبارها واذ قدمت بيروت سألت عنها وبحثت كثيرًا ولم اقف لها على اثر فتحتمل وفاتها او انها برحت هذه الديار فاني لست ادري شيئًا من امرها واحسبها قد قضت نحبها

وكان الروسة قد سعى كثيرًا تجسّسًا عن اثرها في كل جهة وصوب من البلد فاخفق ولم يحلَ بطائل وكان رجاله يصادفون اتباع مراد بك ساعين سعيهم طلبًا لحنّة البقاعية ومما سكن روع الروسة ان رسل مراد لم يجدوها ايضًا مع بذلهم غاية الجهد في طلبها والتنقير عنها وكان يقول في نفسه بعد اذ حبطت مساعيه وأيس من وجدانها ارى من فلاحي وفلاح فريد ان تكون قد توفيت لان بذلك لنا امن الاخطار والمحذورات وكفاية مؤونة قتلها وقتل آخرين معها عند الضرورة ولكن يسوؤني ان موتها ما زال مشكوكًا فيه غير ثابت فلا يحق لنا ان نطلب التركة برمتها مستمتعين بها . ولذلك رأى الروسة ان يدع الامور تجري مجراها رجاء انه يدرك اتفاقًا ما لم يعنه عليه الجد والعناء مما لا يصيبه الاَّ من كان ذا جدٍ وحظ مساعد وكان هو اذ ذاك في أبان سعده . وحدث ان فريدًا وزع حينئذٍ في المدينة رقاع الدعوة لاحياء ليلة انس وطرب عنده تعييدًا لمرور السنة الاولى من زواجه

❋ ٣ ❋

وطفقت الخواتين والسيدات يعددنَ الملابس الفاخرة لتلك الليلة فمنهنَّ من اخترت هذا الزيّ الجديد (المودة) وغيرها غيره فراجت الاسواق بعد كسادها بيعًا لشقق الحرير والمخمل ونحوه وكثرت العناية في قصر فريد بالمدينة قصد التأنق والاتقان فرشًا وتنجيدًا واعدادًا لاسباب اللهو والانس والطرب وامسى كل من الوصفاء والخدم معنيًا بشان . اما غادة البقاع سيدة القصر فلزمت غرفتها لا تهتم لامر ولا تحفل بشيءٍ وانما استمرت كعادتها حزينة كئيبة تحب العزلة وتهوى الانفراد وهي تتنهد واحسبها تنشد

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحيّ ناقف حنظل

وهكذا لازمت الغم والترح لم تشترك في شيءٍ من مظاهر السرور والفرح الاَّ ما كان منها رثاء للناس ولكنها كانت اذا خلت اظهرت الزهد في الدنيا كأنها راهبة في دير تقاسي ضروب الغم والاسى مفكرة في امرها لا يغني عنها اكرام كرام الرجال ومؤانسة النساء . . فلم تزل باكية متأوهة متزاهدة انواع التكريم والتعظيم في ذلك القصر الزاهر الزاهي الذي غدت هي ربّته محفوفة بمجالي العز والترف وكانت موقنة انها لا تصبر على ما يساورها

من الهموم ذارفة الدمع وجسمها ينحل ويذوب كالشمع ...

الشمع يبكي ولا يدري مصيبته من جيرة النار ام من فرقة العسلِ
من لم تجانسه فاحذر ان تجالسه ما ذوّب الشمع الا صحبة الفتلِ

واستمرت على هذه الحال من البلبال كأنها كل يوم تدنو من الرمس كأن لم تغنِ بالامس وأكثرت من الحنين والتشوّق الى منزلها الاول متراءة جميع ما رأت في قصر فريد من الغنى والقنى والخيل والخوَل . وودّت لو تعود الى بيت ابيها معدمة فقيرة واحسبها تنشد قول من كانت مثلها بعينٍ غير قريرة

لبيتٌ تخفق الارواح فيه احبُّ اليّ من قصرٍ منيفِ
واكل كسيرة في كسر بيتي احبُّ اليّ من اكل الصنوفِ
ولبس عباءة وتقرّ عيني احبُّ اليّ من لبس الشفوفِ

وقد مرّ سنة من اقترانها بفريد ولم تخاطبه بكلمة على خلوة ولم تكن تظهر الرضى والسرور الا مخافة ان يدري الناس بامرها وسبب كدرها وكان كل من هذين المتاهلين ينفرد في غرفة عن الآخر على ان غادة البقاع كانت ذات جسد عليل وفي كبدها غليل تود الانتقام من فريد وهو يروح ويغدو قلقًا لا يهدأ له روع لشدة لوم نفسه وتأنيب ضميره وهيامه بمن لم يجد الى استرضائها سبيلاً فتقضت عليه السنة ولم يلتمس منها حاجة ولم يكلمها بكلمة واحدة بيدَ أنه كان يسألها عفوًا بلسان دموعه المنسجمة فتردّه بقسوة وجفاء . وغداة يوم الوليمة المقامة تذكارًا لوقت زواجها استدعى فريد بخادمة مقصورتها وامرها أن تستأذن له مولاتها في المواجهة وكانت قد استيقظت مذ قليل ولم تزل لابسة ثوب النوم الابيض فامتقع لونها واكمد وجهها لان هذه اول مرة بعث فيها فريد يسألها الاجتماع بها في مرقدها فاومأت الى الجارية : ان قولي له لا باس ولبثت على المقعد نتوقعه وقد شدّت وسطها بمنطقة ثم جاء ودخل وردّ باب الغرفة وراءه وكانت آثار القلق والبلبال بادية عليه فتماسكت ولم تبدِ اقل تحفز او حركة عند دخوله فدنا منها حتى صار امامها وقال لها بصوت اجش يتهدج رغمًا عنه : اراكِ تنكرين عملي هذه المرة ولكنكِ تعترفين اني قد قمت بحق ما اشترطتِ عليّ منذ اقتراننا ولم انقدم اليك من قبلُ في طلب التقرب

فاجابته من فورها : انت تتقرب اليّ ؟ ... ان هذا منك ضرب من الحمق والجنون لو فكّرت وتأملت . وان كانت زيارتك اياي مبنية على هذا القصد فاولى بك ان تنصرف عني بلا تردد ولا ابطاء ...

— مهلاً واصغاء حتى اتمّ حديثي ..

— ارأيتَ مني مذ اقمت معك ما يطمعك فيَّ بعض الشيء ؟

— لا لعمري ... فاني لم اجد منكِ غير الاصرار على النفار والجفاء والمشاحة والاباء ...

— اذن

فاظهر لها التذلل والانكسار ضارعاً اليها ان تتعطف باجابة سؤله

فتأففت وتضجرت مظهرة التيه عليه والازدراء به كأنها تقول : ماذا ينفع كل ما اسمع ؟ فانه لا يحيك فيَّ الكلام ولا يغير شيئاً مما انا عليه من المرام واني لا انفك ثابتة العزم لا اتحوّل ...

— فاتمّ مقاله : ألا تجدين ياغادة البقاع ان ترقي لي وتتعطفي بدل اعراضك عني منذ سنة ؟

— كلاّ كلاّ ... لست اتغير ابدا

— مع ذلك لا تجهلين اني احبك

— قد قلتَ لي ذلك ولكني لم اصدقك

— ماذا ينبغي ان اصنع لاحقق لك صحة قولي ؟

— وما يجدي عنك انك تحبني فان ذلك لا يخفف كرهي اياك ولا موجدتي عليك

— اعلمي ياغادة البقاع ان كل ما اصنع اعتزازاً لشاني بين اقراني هو لاجل محبتك

— وماذا يخصني

— ألا تفتخرين بذلك ...

— اني استحي ان ادعى امرأتك واخجل حين انسب اليك

— ياغادة البقاع .. ياغادة البقاع لا تستنفدي صبري ... فاية امرأة تفخر وتعجب بنفسها مثلك ... وانما كان سعيي واجتهادي في ادراك الثروة والجاه لتحريك عواطف الحب والحنان في قلبك نحوي •

الا انظري الى ما حولكِ وحولي تجدي الناس يهابوني ويعظموني واكبرهم قدراً يذعن لي منقاداً والكل يخافوني ويرجوني لان في وسعي ان ازعزع عدة معاهد تجارية واخرب هذه المدينة ان شئت وكذلك فاني ان اردت التيت القلق والاضطراب في بيروت وصرت آمراً فيها ناهياً لما لي في الجمهور من نافذ القول وواسع الطوق والطول ألم تعلمي بما بلغت من شأو العز وعظم الشان ؟ ... أولم ياتكِ الصعاليك

والمعدمون الذين انعشتهم من كبوة الذل والفاقة ؟ . . . فها ان اهل هذه الحاضرة باجمعهم يتحدثون بمكارم اخلاقي وطيب اعراقي وبيض ايادي وآثاري الحميدة المشكورة ومساعيّ المبروره . . . . ومع كل ذلك ترين من العار عليك ان تدعي زوجة مثلي امرءًا يهابه ويجله الناس ويتمدحون بفعاله وخلاله الشريفة وهو بمكان من الفضل والنبل والكرامة . . .

— انا اعرفك بجلاك حق المعرفة فمالي وما يقول الناس فيك ! . .

— ألستِ بمنتهية عن اربك ومنصرفة عن غضك فمتى اخلص وانجو من شدة هذه الحال وعنف هذه المعاملة الجافية ؟ . . .

— لن تراني كما تهواني ابد الدهر او منقضى العمر ! . . .

— لاخير في الحيوة على هذه الحال التي لا تطاق

— اني اشد كرهًا منك لهذه العيشة الشاقة

— لا لا الف مرة لا ياغادة البقاع فانا الذي يقاسي مضض الحيوة بما لا يقوى عليه الجلد أفما ترين ذلك حقًّا ؟

— اني ليسرني ان اراك في بلواك وكلما ازددت انت شقاء ازددتُ انا هناء ولا جرم ان مقتي لك وعذابك في حبي لا يزالان فرسي رهان

— غادة البقاع دعي هذا القول فانه يحملني على القنوط واليأس ومن ورائه الجنون فابقي لي على الاقل مطمع امل . فلو كنتِ تدرين شدة ما اعاني في هواك وان اراكِ معي كما اشتهي ياذات المحيا الوسيم البهي ! . . . انا مغرم بك متيم ولا اقدر ان اصل اليك مع قربك مني كأن بيننا هاوية هائلة تمنعنا التواصل

وامرءٌ ما لاقيت في طرق الهوى قرب الحبيب وما اليه وصولُ
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

ولكن لا بد ان سيتغلب هيامي وشوقي النامي على هذا الحاجز القائم امامي الذي اراه — آه ! . . . يتعاظم كل يوم . . . وكان عليك ان تخافي سطوتي وبوادر حدتي اذ انكِ عالمة بكوني رجلاً لا يتحرج من الاقدام على ارتكاب الجرائم والآثام طلبًا للمرام

فرفعت راسها وهي ترعد من شدة الانفعال والاستشاطة وقالت له : ماذا تعني بهذا الكلام ألعلك ما برحت تتهددني وتتوعدني لاريع اليك ؟

— نعم نعم اني لمنذركِ ومحذركِ فان غضبكِ عليَّ لاخفُّ من بغضك لي فاعلمي

اني انا زوجكِ وسيدكِ ... ولي عليك سلطة وقدرة وكونك زوجتي يلزمك ان تقومي بحق ما يجب لي عليك ...

ويمكن لي بل يحلُّ ايضاً ان اغتصبكِ اذا حاولتِ الاصرار على الاباء والامتناع ولا اقل من آن اسومكِ العنف والقسوة فلا تلجئيني الى ما لا احب ان اتجشمه من الغلظة في المعاملة ياغادة البقاع ولطالما كنت اراكِ وارنو اليكِ لابسة الثياب الفاخرة آونة المسرّات والولائم وعلى محيّاكِ الوضاح حسن ابهى من غرّة الفجر والصباح حالة كونك غادة في ميعة الصبوة والفتاء وكنت بين ذلك اهيم بك فاهمّ ان اغتصبك فاحجم عنك تكرماً ... فلا تستنفدي بقية صبري فقد ضاق صدري من استمرار اهاناتك لي وامتناعك عليّ فحملتني ما لم يحمله بشر من الاعنات والافتئات والضرر «ويا ليت بعد الشقا بقا»

لاجلك سعيي واجتهادي وشقوتي ويا ليت هذا كله فيكِ ينفعُ

ولو لم اكن والهاً بك هائماً ما صبرت على ما صبرت وحملت منكِ ما حملت ولكن لا غرو فانتِ ربّة الجمال مالكة ألباب الرجال ! . . . فانيّ وانا المغرم بجمالك وانت معي والى غيري تائقة ... واجد الجميع يعجبون بمحاسنك ويقدمونك في كل محفل على سائر الحسان ... فكم من رجل يغبطني بك وآخر يحسدني عليك «ولست منك ولا قلامة ظفر !» اما انا المغبوط او المحسود عليكِ بين الناس اوقات الدعوات وساعات الجلوات فاني اذا نقضت تلك الاويقات والليلات عدت بك على العربة الى القصر منقبض الصدر وكثيراً ما شعرت بتصعد زفراتك وضربات قلبك الدالة على حسراتك واستنشقت ريّاكِ العطرة فتسعرت اشواقي وكنا اذا بلغنا المنزل نترق بتحية باردة ... ويمسي احدنا عن الآخر بمعزل ... هذا واني زوجك واميرك ! ...

ولما ان قضى مقالته تنفس الصعداء ودنا منها واخذ يدها وكانت كأنها قطعة ثلج وقال لها متذللاً متصاغراً : ياغادة البقاع ألا تسامحيني ؟ ...

— كلاّ ثم كلاّ

— احذري ان تلجيئني الى الغضب واخذك بالقوة والرغم ! ... ودنا اليها

— ان حياتي حكم مشيئتك فافعل ما بدا لك ...

— اريد حبك لا اريد حياتك ! ...

— انت تعلم ان حبي لسواك فلست اهواك

— لله انتِ ما اتعس جدكِ ... واخذ يديها وضمها اليه بشدة حتى صارت

كعصفورة بين يدي بازي وثار الدم في راسه وفار غضبه عليها وكاد ان يبطش بها بيد أنه تماسك بعض الشيء فقال لها : ها انا قادر ان اجعلك امرأتي حقيقة رضيتِ ام لم ترضي ! ... انك لا تستطيعين الممانعة والتفلت من يدي القوية ... فلا تزيدي لقد طفح الكيل ! ... اخشي باسي ! ...

— لا اخافك ولا اخشاك بل لا ازال اعافك واهزأ بك ! ...

ولم تكن تحاول الدفاع بقوتها لمعرفتها انها غير قادرة على دفعه عنها ولكنها نظرت اليه نظرة الكاره الحاقد اذ لو دافعته لم تأمن سطوته عليها في فورة غضبه فيكون دفاعها سبباً لبلوغ اربه . فلما راى في وجهها الكره له سكن عن حدته ولانَ بعد شدته فتركها وانثنى عنها فوقعت على المقعد فجثا امامها وجعل راسه بين يديه وبكى بعد ان تنهد وكأنه انشد

ابكي اشتياقاً اليها وهي قاتلتي يامن رأى قاتلاً يبكيه مقتولُ

ثم تمالك ان قال : عفواً عفواً ياغادة البقاع ! اراني مجنوناً بقربك فلا ادري ما اصنع — رُحماك ياربي ماذا كان فرط مني ؟ فلو لم اتثبت في الامر لكنتِ اقفلت باب قلبكِ عليَّ بقية العمر اما وقد احجمت واقصرت عن اغتصابك واغضابك فلي فيك مطمع رجاء سامحيني ! ... سامحيني ! ... اني لم انلكِ باذى ! ...

اما هي فلبثت ساكتة ناظرة اليه فاستتم كلامه : اما كفى ما قد قاسيت لاجلك ياغادة البقاع ؟ أوما تجعلين لموجدتك عليَّ حدًّا ؟ ها انا مترامٍ على قدميك اسألك العفو ... ارثي لحالي وارفقي بي واجبري كسري واغمي اجري وخففي عذابي وشقوتي بنظرة لطف منك تنعشني من كبوتي ... واذكري انك تذلين رجلاً يجله جميع الناس ... ويطأطأ له كل راس ... تحتقرين امرءًا ما طلب العز والجاه الاَّ في سبيل حبك . فماذا تريدين ان احمل من الذل فوق ما حملت — ماذا تقصدين — ماذا تضمرين ؟ ...

فانتِ التي لو شئت اشقيتِ عيشتي وانتِ التي ان شئتِ انعمتِ باليا

— يمكن لك ان تدع كل هذا التذلل ... لانه لا يؤثر فيَّ شيئاً على الاطلاق !

— اني لا ازال احاول امالة فؤادك اليَّ ترفيقاً او تمزيقاً ! ...

— وقد أنغضت راسها اليه : يحتمل انك تمزق قلبي ولكن مع تمزيق حياتي !

— اليس من سبيل الى استرضائك ؟

— لا — لا ! ...

فاطرق قليلاً ثم قال : من يعلم ما سيكون

تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت   ويحدث من بعد الامور امورُ
وتجري الليالي باجتماعٍ وفرقةٍ   وتطلع فيها انجمٌ وتغورُ

فاشارت الى عدم امكان التراضي واحسبها قالت

بين صدق النهى وكذب الاماني   سهرتْ اعينٌ ونامت عيونُ
فالى مَ العنا وحتى مَ تشقى   في امور تكون اولا تكونُ

فقفى كلامه بان قال : ماذا يلزمني من الفداء والولاء بل من الاكرام لافوز برضاك ؟

— لا ارى شيئاً ممكنا ! . . .

فسكت قليلاً ثم قال خاشعاً من يعلم ؟ . . . ربما ياتي يوم تجديني فيه عظيماً شديد الحب والندم حتى تلج الشفقة فؤادك

اما هي فلم تجبه وقد بذأته عيناها فهمَّ ان يخرج من الغرفة وصلفها قائلاً : فلتدم حياتنا كما تشائين واني وان كنت زوجك حكماً لا حقيقة فينبغي ان تعلمي اني لا احتمل ابداً ان تبقي متصلة بذلك الرجل الذي ما برح عندك عزيزاً وعليك كريماً . . . فلقد عفوت عنه ذات مرة واغضيت على الحاقه الغضاضة بي . . . ولست اقدر ان احوّل قلبكِ عنه لانك تحبينه . . . ولكن اعلمي انه اذا جسر هذا الشاب على النظر اليك قتلته قتلة الكلب ! . . .

٣

وخرج من الغرفة وقد كملت معدّات الوليمة في القصر تلك الليلة وكانت الزينة رائقة شائقة وكثرت رقاع الدعوة في المدينة وخارجها وقبيل الغروب لبس فريد ثياب الصينة الفاخرة وجعل يتفقد ما اعدّه الخدم من اسباب الاكرام للمدعوين فوجد كل شيء على تمام الانتظام وغاية التأنق والاتقان

وعند العشية تواردت العربات الى فناء القصر حاملة السادة والسيدات وارباب الحكومة وقناصل الدول واعيان الناس وادباءهم حتى اغتصت القاعة بحشدهم وكانت مزدانة احسن ازديان وكثرت الانوار حتى صيرت الليل كالنهار وكان فريد رب القصر ذا منظر بهج يظهر من ضروب الرقة واللطف والكياسة والظرف ما يغبط عليه ويحسد وكانت غادة القاع ربة المنزل في مظهر العز والجاه لابسة افخر ثيابها واخذا يتلقيان المدعوين بنهاية الايناس وطلاقة الوجه والترحيب وكان محيا الغادة

يترقرق منه ماء الحياء والبهاء والبكارة تشوبه كمدة الكربة التي زادتها نحولاً في جسمها وذبولاً في وجنتيها بيد أن ذلك لم يخلُ عن زيادة في حسنها الخلقي ففاقت سائر الحسان صباحة وملاحة وكان فريد يرنو اليها والوجد ملء فؤاده كأنه اسهم تخرقه او نار تحرقه . ثم وقع بصره على رجل بين الحاضرين طويل القامة قويّ البنية ضخم الجسم ينفر منه القلب وتنبو عنه العين تلوح عليه امارة الشر وكان هذا الرجل الروسة فانبرى من بين الحاضرين وتقدم الى فريد منتهزًا فرصة خفة الازدحام حوله وقال خافت الصوت : اريد ان اكلمك

فتجهمه وقال : انك لم تحسن اختيار الوقت الموافق . . . هلاّ ارجأت ذلك الى الغد . . . او بعد الغد مثلا ؟

— يعسر عليّ الاجتماع بك لان كثرة الشواغل السياسية تستغرق معظم اوقاتك خلا انه يمكننا الآن ان ننفرد في احدى الغرف . . . او نذهب الى الحديقة وهناك نتكلم على خلوة وعزلة من الناس

وكان فريد حائرًا لا يدري ما يجري

فقال له الروسة بجفاء لا بد من ذلك ! فيلزمك ان تطيع

فاكمدّ لون فريد وامتقع وتقبضت انامله لما بدا من لهجة الروسة مما شفّ عن عدم تلينهِ فسبقه فريد الى مكان منفرد

قال الروسه متظاهرًا بالادب ياخواجه انت تعلم انك شريكي وينبغي ان نجري حساب الشركة ليعلم كل منا حاله وان كنت انكرت عليّ اختياري هذا الوقت لمخاطبتك لانك متشاغل بوليمة عظيمة فلذلك سبب لا اخفيه عنك

— اني لا ارى لذلك سببًا . . . فقد خطر على بالي ان في الامر دخيلة

ـ اجل اجد لذلك سببًا خاصًا اذ اني لمحت منك منذ حين نسيانًا او تناسيا للخدم التي اديتها لك مع كونها بدء ثروتك وعلتها وانما المهم الواجب علينا ان ننظر فيه هو كونك ساكن الجاش في بحبوحة العيش لاهٍ وإله بحسن زوجتك تتقلب في ظلال النعمى بعد زوالها عنك وقد آن لي ان اوقظك وانبهك من غفلتك لتقدم على الاعمال ولم اقصد بتقدمي اليك ان تكالمني في ابّان فرحك وهنائك الا اذكارك انك ما زلت مقيدًا غير حرّ مع كل ما بلغت من العز والجاه

فاطرق فريد وقال : الى اي حدّ تتمادى معي في كلامك ايها الرجل ؟

— اني عازم ان اصف الحال شاني في كل امر فارعني سمعك برمته . ان الثروة

التي وقفنا عليها سعينا واجتهادنا لا نحوزها كلها الا يوم لا يبقى من الورثة غير امرأتك وقد كنا نبقي على بولس البقاعي ليعيننا على اتمام تزوجك بابنته اما وقد تمّ المرام فلا ارى بقاء هذا الرجل الا محبطًا لمساعينا . . . هلاَّ تعلم ؟

— انت تختار موته على حياته ؟

— قد قلت لك ذلك بجلاء وبيان ان التركة ما زالت في يد مراد بك ولا تزال كذلك الى حين وانت انفقت في مدة غير قصيرة مالاً جزيلاً اسلفتك اياه فمتى اثبتنا ان ليس من وارث الا زوجتك واباها او بالحري « وهنا ابدى ابتسامة خنر ودهاء » متى امكننا اهلاك سائر الورثة ان ظهروا اضحى بولس البقاعي الوارث الفرد المطلق . ولكن لنفرض ان الشيخ البقاعي لم تمنعه شدة احترازنا ومراقبتنا الاحوال من ان يدري وجه الحيلة ويطلع على جلية الامر الذي دبرناه أفما يجد عشرين سببًا ليحرمنا من التركة ويجعلنا من الخاسرين . فلذا اقول لك بجلاء معيدًا عليك قولي من قبل وهو « لا بد من اماتة هذا الانسان »

اما فريد فكان عابسًا متسكعًا بين امواج الحيرة لا يرفع راسًا ولا يحير جوابًا هائمًا في مهامه الهيام بغادة البقاع . . .

ثم استأنف الروسة كلامه بان قال : اني بذلك مراعٍ مصلحتك وراغب في خيرك

فاجابه فريد وصوته يتهدج : انك وهمت واخطأت الصواب فان قتل الرجل اثم فظيع . . . فلا اوافقك على التمادي في الشر الى هذا الحد . . .

— هل تبصرت حق التبصر قبل ان تحير هذا الجواب ؟

— نعم اني اجبتك عن رويّة واستبصار

وحصل بينهما فترة وسكون لتخالفٍ في الراي وتغير في القلب وايحاء نفس احدهما الى نفس الآخر برموز من الوعيد والانذار على ان الروسة كان يبدي سيماء الوقار وثبات الجاش وعاود الحديث فقال : ربما يحدث امور يصير فيها بولس البقاعي الى حال تمكنه من تعريضنا للخطر المستمر فينبغي لنا ان نتغدى به قبل ان يتعشى بنا وما عدا ذلك فاني اسالك ضمانًا بحسن سلكوك معي وبرهانًا على صحة ولائك لي

— انت لم تكلفني قبل الان الاّ التقيد بوعد شريف

— اني ارى في مهلك الشيخ البقاعي عهدًا اشد وثاقة من سائر العهود وليس كمثله رابطًا بيننا . اما وعدك اياي باحضرة الامير فاني ما زلت اذكره واذكرك به فانجز ما وعدت شان الحر الكريم

ــ لست افقه عنك كلامك

ــ اني لاعجب من تجاهلك مع حسن ايضاحي لك العبارة ــ اذكر يوم حذرتك وانذرتك ان يغلب على قلبك هوى غادة البقاع الساحرة العينين ذات الجمال الرائع والقوام المياس ــ فما كنت الا ان قلت لي ساخرًا مني : ولقد كنت احسبك اجلّ واعلى من ذلك . اما اليوم وقد علقت امراتك فلا تنكر ذلك عليّ وترميني بالخرق فها انت ذا قد شغفت بها حبًا وكأني ارى آية غرامك مرسومة على جبينك ...

وانت تعلم حق العلم ما نحن اليه ساعون وعليه عازمون فلا سبيل فيه الى الحب والعشق وانما كان ذلك منك ضعف عزيمة بل تغريرًا شديدًا بالنفس بل محض خسة وخيانة مستفظعة ! ... ومن ثم فاني صممت على اهلاك البقاعي وجزمت ان تتولى انت قتله بيدك وبعدئذٍ اكون على ثقة منك ! ...

ــ لا تتكل عليّ في اتمام هذا الفعل الفظيع

ــ تذكر ايها الاميرانك لا تملك قياد نفسك وانت غير مختار فيما تفعل وكفاك أني عاملتك حتى اليوم بمنتهى اللطف والرفق حالة كوني وليّ امرك المسلط على ارادتك ولو رعيت العهد وانجزت الوعد بتحاميك الكلف بحب غادة البقاع لكُفيت مؤونة هذا الكلام المزوج بشيء من حرافة المؤاخذة والملام . وعلى الجملة فها نذا آمرك فائتمر وأطع ! ...

فنغض فريد اليه راسه وابتسم ابتسامة الآسف اللاهف وقال له : دع تكليفك فلست اوافقك

ــ لقد كنت اتوقع منك ذلك ولكن اعلم اني قادر ان اقتلك وان موتك على كونه انتقامًا لي وانتصافًا منك لا اراه يشفي غليلي . ومع ذلك فاسمع احدثك بما يكون : اذا جاء الغد وحان مثل هذه الساعة ولم اتحقق موت بولس البقاعي ففي اليوم التالي عند سنوح اول فرصة ينطلق اثنان من رجالي ــ ولا حاجة الى بيان أنهم يطيعون اوامري ولو أُلجئوا الى الموت ــ الى ادارة الشرطة ويخبران المدعي العمومي بكنه امرك وجليته

ــ اذا انت غدرت بي كنت غادرًا بنفسك ايضًا لان انكشاف الامر يضر بنا جميعًا

ــ كلاّ فاني ادفع ذبيًا وميروبا ونحوهما من الاتباع فدًى عني وانا اكون قد برحت هذا البلد ــ فحذارِ حذارِ لان القرائن والبراهين التي تقام عليك في المحاكمة لا تردّ ولا تدحض فان لم يحكم بموتك قصاصًا فلا اقل من ان توضع في الكورك المؤبد مجازاةً لك على

ما جنت يداك ... لاشك ان الافادات والايضاحات تكون وافية كافية لدى المستنطق سواء كانت بخصوص خطف غادة البقاع وتغيبها او بشان زواجك المنكر او بمقتل ذلك السيء البخت نسيب .. كل ذلك فعلات فظيمة ... وانت تدري ما يقول الناس وينقلون عنك مما يثلم شرفك ويكلم حرمتك ...

وكان فريد يسمع هذه الكلمات القوارص كابي الوجه مرتعش الانامل فما تماسك ان قال له: لا تفعل ما قلت ...

— لابد من ذلك ... او تظنني مخبولاً ؟ ...

— وماذا يترتب على اخبارك ادارة الشرطة فالمؤاخذة والعقوبة لا تبنى على مجرد السعاية والوشاية بل على الادلة والقرائن والبرهانات

— لا ينبغي لك ان تطمئن من هذا الوجه فان الدلائل والبراهين بالغة حد اليقين لان ميروبا وذيبا يخبران عما كان عدا ان مرادًا بك وتابعه حبيبًا وغادة البقاع نفسها وغيرهم سيكشفون ستر الدخيلة وايضاً فاني ادفع الى ادارة الشرطة بعض مكتوبات حاوية معلومات جمة مهمة في شانك وتلك الادارة وان كانت الان لاتدري من ذلك شيئًا الأ انها متى طالعت المحررات التى اسلمها اليها تقف على جلية الامر وينكشف لها الغطاء ويبرح الخفاء

— آلمحررات ؟

— جبر المحررات التى تشير الى محالفتنا ومواثقتنا ... رسائلك التى طلبت مني بموجبها الدراهم وعلى هوامشها مسودات الاجوبة وعبارتها كافية في البيان مغنية عن كل برهان ... والمحررات التي تدل على هبتي لك هذا القصر وردُّ املاكك عليك ... وبالجملة يلزمك اذ ذاك ان تبين وتوضح اسباب ثروتك وصيرورتك موسرًا غنيًا بعد ان اصبحت فقيرًا معدمًا لاتملك شروى نقير ... ومثل هذه الامور لا يبقى معها مجال للريب فترتبك في الجواب عنها لدى ارباب الحكومة وتنقلب في تيهور الحيرة والدهشة ...

ولبث فريد سادرًا وقد عظم عليه الامر وتوزعته الافكار ولم يتجه له باب للتخلص من الربكة التي اوقعه فيها الروسه فراع منه واشفق فقال : ليكن ما تريد انا في حوزتك وطوع امرك لاني بعد ان بلغت اسنى درجات العز والجاه لا اهوى ان اهوي الى اقصى دركات الذل والهوان

— نعمَ ما ارتأيت — ويظهر لي ان قد ثاب اليك روعك

ــ ولكن لي اعتراض واحد يتجاذب طرفي مصلحتي ومصلحتك معًا

ــ تكلم فاني منتهيٍ، ان ابحث في الامر

ــ في معلومك ان بولس البقاعي دون سواه كان اكبر واسطة للتغلب على ارادة ابنته غادة البقاع واعظم باعث لها على التسليم بعقد الزواج فاذا فقد بولس ــ قتلاً فلا يبقى من سبيل الى منع غادة البقاع من طلب فسخ العقد الذي سلمت بموجبه ان تكون لي زوجةً وهي غير مختارة فتحبط مساعينا والقانون ينص على ذلك نصًا صريحًا

ــ نظرت من قبل في اعتراضك فلا ينبغي ان تخشى شيئًا من هذا القبيل لان رجالي يهون عليهم بذل ارواحهم دون كتم هذه الامور وهم وحدهم قادرون ان يقيموا الادلة والبراهين ضدك . اما غادة البقاع فلا تستطيع وحدها او مع اعوانها ان تنالك بسوء ما زلت انا نصيرك وظهيرك ولذلك فلا تحاول امرًا ما فضلاً انك لوقابلت نصيحتي وعقدت مع امرأتك صكًا ناطقًا بجعل ما تملكان رُقبى او هبة بعد وفاة احد العاقدين

ــ قد عقدنا صكًا من مثل هذا بعد الاقتران ببضعة اشهر على يد والدها اذ اراد ان يهب لي هذا الحق تحريًا لمرضاتي ومسرتي

ــ اذًا ان الامور موّاتية لنا فيلزمك ان تكون لزوجتك بالمرصاد لتعلم ما ربما يبدو من دلائل خيانتها فاستبن عزمها غير متباطىء وعندها . . . ايها الامير . . . يمكنك ان تنتفع بالصك الذي بيدك وتستولي على مال امراتك ! . . .

فثار غضب فريد وكاد يصيح لولا انه تجلد للامر وقال: يالك من شقي شرير اياك اياك ان تمسّ بيدك ذيل قبائها (قفطانها) فاني افتك بك لامحالة ! . . .

ــ خفض عليك ياصاحِ وسكِّن روعك حتى لا يحس بامرنا من هو قريب منا ... فاما اشير مشورة اخرى قبل افتراقنا وهي وسيلة دانية القطوف سهلة المأخذ تمنعني ان آتي فعلاً كالذي المعت اليه . اعلم اني لست اجهل ان غادة البقاع لم تصر زوجة لك الاّ ظاهرًا وقد باتت بليلة حرّة ولم تزل بكرًا واني متحقق ذلك لا يداخلني فيه ريب وانت ما برحت تتلين لها وتتلطف كاحسن زوج مع زوجه فلذا لابد لك ان تجعلها لك ياحضرة الامير عرسًا حقيقية لا مجازية . . . واني اقول قول مكاشف بالامر انها اذا ذاقت حلواء البنوّة انصرفت عن ان تريد بك شرًّا واخفت الكمد واظهرت الجلاد تفاديًا من ان تلحق العار بولدها منك ! ...

وكان هذان المتحاوران على انفراد كل ذلك الوقت حتى اتفق ان بعض

المدعوين اخذ يدنو منها فانطلقا الى ماشي القصر وكان فريد آسفاً حزيناً والروسه يتبسم خبثاً فهمس اليه : هاأنذا اودعك ياصاح بموجز الكلام « اعلم انه لا بد من اهلاك بولس البقاعي غداً » وقبل ان يجاوب فريد فصل عنه الروسه وانسل من الزحام وخرج ولبث فريد مغتماً وجعل ينظر الى قاعات القصر الفسيحة الجوانب المزدانة احسن زينة واول ما وقع بصره على غادة البقاع ... ابنة من قضى عليه الروسه بالموت ثم اجال طرفه في المحفل فرأى المدعوين من سادات وسيدات رافلين في الفخر الحلل متبرجين بالفخر الحلى وكانت مقلتاه كأنها تنطق باليأس والقنوط لشدة غمه وكربه . نعم انه صاحب ذلك القصر المشيد الشاهق وسيد المنزل ورب الدعوة ومجلي سر المحفل وبهجة الحشد بيدَ أن ترامي امره مع الروسه الى الوبال وامتناع الحرية قد نغص عليه فرحه وكدر صفو هنائه لانه كان يعلم علم خبير باحوال معاهده واطواره وانبعاثه في الغدر والمكر والظلم والشر لايخاف معرّة ولا يفرج من اثم ولا يصرفه شيء عن طلب مرامه وادراك بغيته وبلوغ اربه . فقضى باهلاك بولس البقاعي فلا سبيل الى انقاذه واستحيائه ! ... وان بقي حيًّا ضربت الذلة والقهر على فريد وربما لاقى شر الهلكة والردى ... او السجن المؤبد ... ولعظم ما اثرت هذه الهواجس والهموم في نفس فريد حتى ضعفت قواه وقعد على احد المتكآت وغاص في لجة الوساوس برهة ... ولم يكن يبدىء ولا يعيد شان من وعكته الحمى فاضرعته ثم رفع راسه كمن هب من نومه متعاراً وقال في نفسه : لو كنت على يقين من ان غادة البقاع تصافيني بضعة ايام لاقدمت غير هيّاب على اي عمل ... اللهمّ !! اللهمّ ! ثم ارتكس ثانية في افكاره وهواجسه يدفعه شك ويتلقاه ريب . وكان يهزّ راسه المرة بعد المرة . ثم اطرق قليلاً وبدت عليه امارات انفراج الكربة ... وقال في نفسه هكذا يكون ! ... وبما ان الحال قد اقتضى موت بولس البقاعي غداً فسانظر في الامر كما هدتني الروّية ... وانقلب الى محفل المدعوين حيث كانوا يتقاسمون اسباب المسرات ما بينهم وناجى نفسه : اليوم خمر ! ... وغداً امر ! ...

❋ ٦ ❋

وكان أنّ بولس البقاعي رغب عن السكنى مع ابنته غادة البقاع في قصر الامير فريد داخل المدينة الى الاقامة بضاحيتها حبًّا بالعزلة والانفراد شان من خولط في

عقله لشدة ما توالى عليه من الانفعالات وتعاوره من المحن فاتخذ له صهره مكانًا فوق اكمة في جهة انطلياس وابتنى لسكناه قصرًا صغيرًا من حوله حديقة حوت كل ما شاق وراق من الزهر فاقام الشيخ ثمة فرحًا مسرورًا وجعل عنده خادمة امينة لها سابقة عهد بمعرفته تدعى مرثا فلازمته وواظبت على خدمته بحسن رعاية ولطف معاملة وشفقة مشتقة من فؤاد والدة وكان هو كأنه ولد يهبُّ من رقاده بكرة ويسرح طرفه في تلك الرياض مستنشقًا عليل النسيم التي تشفي السقيم ثم ياخذ شبكة الصيد ويذهب الى البحر فيركب زورقًا له ويسير عليه في اليمّ مصطادًا السمك وقبيل الظهر يرجع الى المنزل لتناول الطعام واخذ قسطه من الراحة ثم يخرج معاودًا عمله الصيد ولا يعود من مصطاده الاّ بعيد غروب الشمس وكان يجد في العزلة اهنأ عيشة لتمكنه من ادراك بغيته وهو الصيد اذ كان ولعه به آخذًا في الازدياد يومًا بعد آخر وكانت ابنته غادة البقاع تزوره غبًا «اي بين وقت وآخر» وكان بجوار حديقة ذلك المنزل المعتزل اثنان من رجال الروسه قائمان على خفارته لا يبرحان ولم يكن احد عالمًا بامرها وكان الشيخ يحسب نفسه مع ابنته من اسعد الناس جدًا وارغد خلق الله عيشًا ! ...

وحدث أنه غداة اليوم ثاني يوم اقامة الولائم بقصر الامير فريد بالمدينة استيقظ الشيخ من نومه وفتح نافذة مرقده ونظر الى الجو فوجده موافقًا للصيد فحكَّ احدى يديه بالاخرى وهو يتساءل الى ذلك ثم لبس ثيابه ودعا بخادمته المار ذكرها وامرها ان تاتيه بما تهيأ من الماكول فجاءته على المائدة بقدرة من لحم «وهي القطعة المطبوخة الباردة» فتناولها ملوهجًا وشرب كاسًا من الخمرة المعتقة وقد كانت احب شيء اليه — وعنده منها عدة دنان في اقبية القصر سبأها له صهره وخبأها اذ لم يدع شيئًا من لوازم معيشته وراحته وهنائه الا ادخره له في ذلك المنزل — وخرج من فوره الى جهة البحر حاملاً شبكته ووجهه يتهلل فرحًا ولبث هناك الى نحو منتصف النهار وعاد ومعه مقدار عظيم من اجود السمك فدعا الخادمة مرثا وامرها ان تاخذ ذلك هدية لابنته بعد الظهر قائلة لها انه من صيد ابيها واسرع في تناول الطعام وشرب القهوة وعاد الى مصطاده جذلاً مسرورًا لان الجو لما يزل موافقًا على انه عصر النهار هب اعصار «زوبعة» في البحر لم تطل مدته

اما الخادمة مرثا فانطلقت الى المدينة وعادت منها بعد العصر على العربة مع غادة البقاع اذ ان هذه ارادت الخروج ترويحًا للنفس من عناء الولائم التي كانت امس ذلك اليوم قصد النزهة بقصر والدها لتسرح بصرها في ما حوله من الرياض

والارياض وتجلو صدأ قلبها برؤية ابيها من قد طالما قاست لاجله ضروب العذاب وانواع الاكتئاب ولتريح خاطرها وناظرها من مشاهدة وجه فريد الذي كان يسوءها ان تراه كل لحظة . ولكن لم يسعدها الحظ بلقيا والدها في منزله فطفقت تدور في الحديقة وتجمع من ازهارها ما احبت حتى اجتمع في يدها باقة انيقة وانتظرت عودة ابيها حتى غابت الشمس وكاد الظلام ان يسدل ستوره فقلقت غادة البقاع وقالت مرثا : ان سيدي قد ابطأ في الحضور خلافًا لعادته فازداد قلق الغادة وسالتها : هل من عادته ان يبطيء في العودة الى مثل هذه الساعة ؟ فقالت : لا بل من عادته ان يؤوب بعيد الغروب احترازًا من رطوبة الليل وكأني به آتٍ فلا ينبغي ان تقلقي ياسيدتي فهو ولله الحمد بالغ الصحة وكان بداءة بدء ياتي من الصيد مبتل الثياب بالماء كالطفل فأبتدره بتبديلها وكان لذلك لا يخلو عن الزكام الشديد الذي يعوقه عن الخروج للصيد اما الآن فصار يتقي البلل ويراعي صحته اشد مراعاة لم تكن من قبل وانا ما زلت اناصحه في تجنب الاسباب المضرة به ومن ثم فكوني آمنة مطمئنة من جهته وهو لا يلبث ان يحضر كما قلت لك . فسكن روع غادة البقاع هنيهة وجاءت الساعة الثانية من الليل ولم يأتِ ابوها وكانت الليلة مغمية لم يبدُ فيها القمر فقالت غادة البقاع : لم يكن ابطاء ابي بلا داعٍ موجب وقد عاودني القلق لان الزوبعة عند عصر النهار كانت شديدة فربما اصابه مكروه فلا بد من المسارعة في طلبه والنظر في امره وانتِ يامرثا تعرفين مصطاده الذي ينتابه اكثر الاحيان فهلمّ ننطلق اليه

— نعم اني اعرف موضع صيده واحسبه لم يتحول عنه وقد قصدته هناك مرارًا بطعام الظهر فوجدته حيث اعهد وكنت اكره منه هذه العادة فعدل عنها وصار يعود الى البيت عند منتصف النهار لتناول الطعام

— فلنبادر الى لقياه يامرثا

وهكذا صارتا معًا الى شاطيء البحر حيث كان البقاعي من عادته ان يباشر صيد السمك ولما بلغتا الموضع وقفت مرثا وقالت لمولاتها هنا — او هناك كان سيدي يصطاد واشارت لها الى المواضع التي كان يلبث بها ثم جعلت تناديه باعلى صوتها وهي دائرة حائرة ومن ورائها غادة البقاع تنادي ايضًا : يا ابتِ ياوالدي ! . . . اين انت ؟ . . . اين تكون ؟ . . . ولم يطرق مسمعيها سوى ردّة الصدى وصوت تلاطم الموج لان الريح اشتد هبوبها منذ غروب الشمس وهاجت البحر فتعاظم التيّار وسمع له دويّ هائل فمشت المرأتان على الشاطي وقد خفق قلب غادة البقاع خوفًا وارتياعًا واخذتها رعدة شديدة

تصورها ان اباها ذهب غريقًا وهو يصطاد فتقاذفته الامواج الى حيث لا يمكن الوصول اليه وطفقت تتحسر وتتنفس الصعداء منادية رافعة صوتها : آه ياابت يا والدي العزيز ! ... وكانت مرثا ماشية لها باحثة معها عن ابيها في ذلك الساحل وبينما هما كذلك اذ بدا ضوء القمر من خصاصة الغيم فابصرت غادة البقاع على بعد بعض خطوات شبه زورق فاسرعت اليه ... داعية مرثا ان تجري خلفها واذا ثمة بقارب قد قذفه التيار على الشط وبعضه ناشب في الرمل فصاحت مرثا من فوها واعونت قائلة : هذا زورق مولاي ... فاراها قد المت بنا مصيبة ... اما غادة البقاع فكادت تخنقها العبرات وتحرقها الحسرات ثم مدت صوتها بالعويل ... ولكن لامعين ولا مغيث ... وما لبثت ان استلقت على مرثا مغمى عليها كأنها ميتة ... فطفقت تنضح عليها الماء وتنبهها وتستثيب روعها حتى افاقت من غشيتها ثم حانت منها التفاتة فرأت على مسافة من الزورق رداء فطلبته فاذا هو لوالدها ... والى جانبه بعض ادوات الصيد فايقنت بغرق ابيها ... فصاحت وناحت حتى ملأت تلك النواحي نواحًا وعادت على هذه الحال تصحبها مرثا الى حانوت قريب تستصرخان الرجال ولكن على غير طائل اذ لم يدرك لوالدها اثر ولم يوقف له على خبر ... واكثر النواتية الذين كانوا في تلك الجهة من الجولان باحثين عنه في عرض البحر فلم يلحقوا اثره فايقنت ابنته بهلاكه غريقًا وان بعض الحيتان قد مزّق جثته فذهبت شذر مذر ! ... لو ان الامواج دفعتها الى جون في بعض السواحل فلم يعرف مطرحها .. ففاضت عبرات غادة البقاع ووقعت على الارض وهنًا واعياء فالتمست الخادمة مرثا عربة وحملتها عليها الى قصر زوجها في المدينة وذلك نحو نصف الليل

ولما افاقت وثاب اليها روعها رأت فريدًا امامها وكانت مرثا قد اخبرته بما جرى فجعل يتباكى حزنًا واسفًا على ذلك الشيخ المفقود ... وشارك امرأته في الاسى ولبس الحداد وطلب الملاحين وامرهم ان يبالغوا في البحث عن جثته في كل جهة من البحر وذاع الخبر في بيروت فتوارد الناس الى قصر الامير فريد يعزونه وزوجته على هذا المصاب وقام للفقيد مأتم مؤلم في القصر . اما الجثة فلم يعثر لها على اثر ولا خبر طلقًا ولم تشك غادة البقاع بعد مزيد التفتيش ان حوتًا قد التقم اباها وانما كان مرأى فريد زوجها يزيد كربها وغمها لتذكرها شدة ما احتملت من المحن وقاية لحياة والدها وان كل ذلك لم يغنِ عنه شيئًا فذهب غريقًا في اللج ! ...

وانشأ فريد يؤاسيها ويعزيها عن فقد ابيها وما كان ذلك ليخفف احزانها ويلطفها

بل ليزيدها ويضعفها حتى اذا مرَّ بضعة ايام والشمس على وشك الغروب قعدت غادة البقاع في نافذة غرفتها وجعلت تتامل حالها ومصيرها ورأت ان لم يبق من مانع يدعوها ان تتظلم وتشكو الى من يصفها ... ولكن لم تدرِ كيف ينهيأ لها اثبات صلامتها عند نعلها ؟ ... اذ لا حجة لها ولا برهان فضلاً انها رأت نفسها غير مضطرة الى تعجيل التظلم وهي لم تزل فتاة بكرًا لم تُمَسّ فاحرى بها ان تتأنى في الامر « والتأني في الامور حكمة » وبينما تناجيها الهموم وتتوزعها الافكار دخل فريد وطفق يلطف لها في الكلام فتنفر منه فقال لها : الا تربني شريكك في الحزن والاسى ؟ ... اما يرق قلبكِ فتعطفي اليَّ بان ترمقيني بنظرة الحب ؟ ... ودنا منها قليلاً فتباعدت عنه جفاء وقالت : لقد قطعت لسان شكواي في حياة والدي ! ... وسلبت حريتي وملكت ارادتي مدة بقائه ! ... اما وقد زال المانع فلا شيء يحبسني ويخرسني ! ... ولا ارى ما يحول دون كشف الغطاء عما نلتني به من المكاره ! ... فاني ما زلت امقتك ... واكره ان اراك بعيني ... وان ذكرتك ثارت شجوني ... فلا شيء يحوّل قلبي الى هواك وهو متعلق بسواك فلا بد من ادراك المرام فدع التلهوق « والغر مغرور وان تلهوقا » ! ...

— جيرِ ان قرائن الحال تدل ان اباك ذهب غرقًا ... ولكن النوتية ما برحوا مجدين في تطلب آثاره ولما يظهر له اثر لا في البحر ولا في سواحله ولهذا فمن يعلم ما عسى ان يكون او يظهر آخر الامر فقد يحتمل ان يوجد ابوك حيًا .. واذا تحققت حياته ... وكنتِ انتِ قد جاهرتِ بعدواني خروجًا عن الحد الذي لزمته حتى الآن ... لا يؤمن عليه شر الملكة بسببك ... فضلاً ان قولك فيَّ لا يعار جانب السمع ! ... ولا يصدق ! ... وكل الادلة الظاهرة تخالف دعواكِ فاولى لك ثم اولى ان تلزمي السكوت والسكون ! ...

— نعم ان قرائن الحال مخالفة لما سادعي وليس لديَّ براهين وحجج تؤيد دعواي . اما الامل في ان يوجد ابي — فهو اقصى ما اتمنى — ولكني لسوء البخت قانطة من وجوده فها قد مرَّ اسبوع ولم يرد عنه خبر ولم يظهر له اثر في جميع السواحل والشواطي ولا غيرها فما بقي لي غير البكاء والنحيب ولبس الحداد وان سكتُ فسكوتي يتوقف على تجديد شرطٍ شرطته عليك مقدمًا وهو ان ادوم لك زوجة اسمية واسالك ضامنًا بذلك ان ترضى ببقاء مرتا الامين خادمة ابي المسكين في هذا المنزل بل في غرفتي لتقيني وتسليني في مصيبتي وتعينني على احزاني ! ...

وكان فريد مصغياً يسمع هذا القضاء او الاحتكام في الامر كأنه صاعقة نازلة على فؤاده الملتهب بنار الغرام ذات الضرام . . . وبدا له فجعل يرفق بها متناهياً في ضروب الملاينة والملاطفة مترامياً الى الموادعة والمسالمة رجاء أنها تريع له وتلين فتلقى اقتراحها الشرط المذكور بقبول حسن وخرج من الغرفة صاغراً فاتر العزم بعد ان كان شديده حين الدخول بقصد ان يتمم ما امره به الروسة سواء رضيت ام لم ترضَ على ان حبه اياها كفاها شرّ صولته المنكرة . ومنذ ذاك اليوم لزمت مرثا غرفة الغادة لاتفارقها طرفة عين وبات فريد يذوق الوان الجوى والوجد مكابداً جهد المشقة تتعاوره الاشجان وتتجدد عليه شدة الهيمان بمن اخذت بمجامع لبه بادية في جمال رائع فتان حتى كأنها من تحت ذلك السواد كوكب في غيهب ويا للفؤاد

من ذات جيد يُريك الظبي ملتفتاً وذات قدٍّ يُريك الخوط ميّاسا
ترمي القلوب بسهمٍ ثم تنزعه يامن رأى آسياً للنبض جسّاسا
بياضها في سوادٍ من غلائلها كالبدر في ليل دجنٍ يبهر الناسا

وبينما غادة البقاع قاعدة قائمة تنوح على ابيها اعتقاد انه صار في عداد الموتى كان هو في احد اديرة لبنان متوارياً عن سائر الناس والسبب في ذلك ان فريداً لما لم يجد بدًّا من تنفيذ امر الروسة الصادر له ليلة الوليمة بقتل الشيخ بولس البقاعي فكر في وجه الحيلة للتخلص من شر زميله لان ضميره ابى مطاوعته على اهراق دم انسان بريء لم يسئ اليه قط بل بالحري كان يحبه محبة عظيمة فهب من مرقده في غد ذلك اليوم قلقاً مضطرباً وقصد الروسه في منزله الخاص وقال له : اني امتثالاً لامرك قد عزمت على ان اقتل بولس البقاعي ولكني احتاج في اتمام ذلك الى رجلين من رجالك وانا اتولى قتله بنفسي على هذه الصورة : بما ان الرجل من عادته يخرج كل يوم لصيد السمك فارى ان اقصده عصر نهار غدٍ واصحبه في زورق اكون قد هيأته ومتى ابعدت عن الشط افتك به واربط برجله حجراً كبيراً والقيه في اليمّ فيذهب الرجلان اللذان معي بزورق البقاعي ويقذفانه على الشاطيء ويطرحان الى جانبه رداء الرجل حتى اذا جاءت ابنته غادة البقاع تطلبه باحثة عنه تجد ذلك فلا تشك انه هلك غرقاً بقضاء الله لم تمسسهُ يد بشر ! . . . فاستصوب الروسه راي فريد وارصد ذيبا ومبروبا لخدمته فانطلق فريد على قارب لاتمام الامر فالفى البقاعي يصطاد سمكاً فسارع اليه ولما رآه مقبلاً عليه بشّ به وحيّاه فقال له فريد : لقد جئتك الآن على غير ميعاد مدفوعاً بما بلغني من ان اعداءك الندماء لم يصبروا ان يروك متقلباً في

هذه الحال من السرّاء والرخاء ... فتآمروا بك !... وفي عزمهم ان يغتالوك !...
وقد اعدوا لهذا القصد رجالاً اشراراً يفتكون بك على حين غفلة منك ... وحيث اني
اتخذت التدابير اللازمة للفتك بهم فلست آمن عليك كيدهم ومكرهم .... ولهذا فلا بد
لك من ان تتوارى عن العيان شطراً من الزمن منقطعاً عن الناس في مكان عزلة
لا يدري بك احد مبدلاً اسمك وسمتك وزيّك الى ان يتهيأ لي اهلاك عدوك فارسل
في اعلامك وطلبك من حيث تكون مقيماً متوارياً وارى انه يمكن لنا قطع مسافة في
البحر على هذا الزورق طلباً للنجاة والفرار

فلما سمع الشيخ هذا الكلام قال له بارك الله فيك من صهر محب برّ صادق حرّ
فلقد عُنيت بانقاذ ابنتي بالامس من مكايد الاشرار وها انت ذا معنيٌّ بانقاذي من
عدوانهم وسطواتهم عليّ فياجزاك الله كل خير ووقاك من لواحق المكروه والضير !...
وكانت مدارك الشيخ قد وهت وضعفت وصار كالطفل ينقاد ويذهب به غير مختار
فخلع رداءه وغادر زورقه وركب مع فريد زورقه فسار بهما حتى اذا توسطا اليمّ وابعدا
عن الشاطىء اقبل ذيب وميرو با على ذلك الزورق المتروك قرب الساحل فاخرجاه
الى البر وجعلا الرداء بجانبه كما رأته غادة البقاع عند البحث عن ابيها . اما فريد
فكان ينظر الى الشيخ نظر الآسف الحزين قائلاً في نفسه لا يكون ما امر به الروسه فاني
لا اقتله ابداً !... وانما اخفيه عن العيون... ومال بالسفينة الى جهة جسر المعاملتين وما
زال حتى ادناها من البر وخرج بحميه قاصداً احد الاديرة على قمة جبل هناك ولم
يكن البقاعي ليُعرَف من جراء تبدل زيه وهيئته فضلاً انه كان معتزلاً مخالطة الناس
وايضاً فان فريداً قد بدل زيه ولم يكن له سابق معرفة برئيس الدير فاستأذن عليه
فجاءه الى مكان الانتظار فسلم عليه بالرئاسة فرحب بهما كليهما واكرم مثواهما حسب عادة
رؤساء تلك الاديرة . ثم طفق فريد يحدث الرئيس بان هذا الشيخ قد اصيب
برزءٍ جسيم أليم حمله على الزهد في الدنيا وحبب اليه الانفراد في الدير منقطعاً الى عبادة
الله ونقده مقداراً من الدراهم هبة للدير واندفع يقص عليه من خبر الشيخ قصة ملفقة
محصلها : انه من تجار بغداد كان ذا ثروة وافرة في الغاية فخانه الدهر فرزأه بذهاب
جانب من غناه وفقد امرأته وكان له ابنة فتاة فاصيب بفقدها ايضاً فحج الارض المقدسة
زائراً متورعاً واذ كان بينهما سابق مواصلة تجارية قصده ليرشده الى اختيار دير يقيم به
زاهداً بقية ايامه وهو لشدة ما نابه من البلبال يحب الانفراد ولا يشاء مخالطة الناس
واقصى ما يروم ان يلزم تمام العزلة والخلوة . وكان الشيخ يهز اليه هامته ايذاناً بالموافقة

والتصديق فامر له الرئيس بغرفة حسنة الفرش والمعدم على قدر الامكان واقبل عليه يؤنسه ويسليه وسأل عن اسمه فاجابه فريد : يدعى يوحنا البغدادي وكان ما اداه له عنه عشرة آلاف قرش في نظير اقامته بالدير من السنة الاولى وادى ايضاً خمسة آلاف قرش لاعداد ما يلزمه من الكسوة والفرش فسر الرئيس بذلك وامر ان يكون طعام الشيخ مخصوصاً ورتب له خادماً خاصاً وهكذا انصرف فريد بعد غروب الشمس مجداً في السير الى الشاطئ. فوجد زورقه فسار به مسرعاً وكانت الريح موافقة له فبلغ قصره في هذه المدينة قبل رجوع غادة البقاع وعليه لوائح الكآبة على ان امساكه عن الغدر بذلك الشيخ البار البريء قد خفف عنه مؤونة تأنيب الضمير ونفى عنه لوم الروسة الظالم ومؤاخذته فبات في مأمن من شره لاعتقاده ان البقاعي بات اكلاً للاسماك والحيتان في جوف اللجة

﴿ ٥ ﴾

كان الروسه منهمكاً في الغي متهالكاً في استنباط الحيل ونصب الحبائل الشيطانية اكتساباً للسحت من المال الذي اعتاده ودأب فيه منذ صغره وشب عليه وشاب وبئس الاكتساب . ومما تسنى له قبل زواجه انه تعرف بامرأة اسمها لؤلؤة بارعة الجمال حسنة القد في اعتدال ولها بعل ذو مال جزيل وكان الروسة قبل ابغاله في المنكرات وانبعاثه في المعاصي بهي المنظر حسن العشرة لطيف الاخذ فاضل المرأة . . . فطاوعته وما كان الا ان مات عنها زوجها فخلف عليها الروسة طمعاً بالمال وحاز بذلك ما ورثت منه فاقام معها مدة قصيرة في عيش هنيء ثم نبض فيه عرق الخبث والفساد والخسة والدناءة فاخمد نار محبته لها واحست هي منه بالفتور فقلقت ثم درت انه يأتمر ويدبر المكايد طمعاً في السحت واستئثاراً به فمقتته اشد المقت وتبين هو منها علامات التغير والتنكر والانحراف ولم يعمد الى تدارك الامر بما يدفع عنه الشك ويدرأ الريب بل حدته نذالته وسفالة طبعه على ان اتخذ له منزلاً آخر يخلو به لتهيئة غوائله الشيطانية . . . وصار لا يأتي منزله الاول الا في الندرة فساء هذا العمل امراته وبلغ منها كثيراً فباتت تفكر في سوء مصيرها وشر منقلبها مقابلة بين سعادة حالها الزوجية مع السلف الصالح وحالتها السيئة مع هذا الخلف الشرير وكان النزاع بل النشوز يتزايد بينها وبينه يوماً بعد آخر حتى لم يبقَ في الوسع تألفها وتواصلها لشدة ما كان عليه الروسة من الشر والفساد ولم يرعو عن غيه واستمر متشاغلاً باغراضه السافلة الدنيئة . وحدث ان

شاباً غيسانياً نحيف البدن يضرب لونه الى الاصفرار على ان ملامحه تسترق القلوب يدعى اندراوس طفق يتردد الى بيت الروسة وكانت لؤلؤة زوجته تسر برؤآه وتعزه كثيراً اذ انها كانت تكاشفه بهمومها واكدارها . وبينما هما ذات يوم في معهد اجتماعهما والابواب موصدة اذ جاء الروسه فسمع شاباً يحدث الى امرأته في غرفتها فاستاء اشد الاستياء واستشاط غضباً حتى همّ ان يفتك بهما معاً فتجلد ريثما يستمع الحديث استطلاعاً للسرائر وخطرات الالباب بين الالفين فسمعه يقول لها : ان والدتي زوجة ميخائيل اللبابوي الرنّان قد توفيت وكانت تدعى وهي صبية حنه البقاعية فقالت له : حنه البقاعية ؟ قال نعم هذا اسم امي وهي فتاة ! ... ثم التفت اندراوس الى ما حوله كالموجس خيفة وخلج لؤلؤة بعينه فنظرت يمنةً ويسرة كالمستريبة فقال لها بصوت منخفض اسمعت ؟ كأني برجل يرفر بالقرب منا فهل من رقيب علينا ؟ قالت وانا ايضاً اشعر بمثل ذلك ولبثا كلاهما يستمعان هنيهة فاذا عربة تجري على الطريق فقالت لؤلؤة ليس الامر كما وقع في روعنا فليس من احد يرقبنا . قال اندراوس انا اكتنه الامر وخرج من فوره ينظر في الغرفة المجاورة وفناء الدار فلم يجد احداً فعاد وقال لم أرَ احداً واظن ان ما سمعناه كان مجرد توهم ليس الاَّ

واتفق للروسة بذلك ان درى بوالدة الشاب المذكور وكان ورجاله يبحثون عنها منذ سنة فاكثر اذ انها الوارثة الثانية لبطرس البقاعي ولم يتمكنوا من معرفتها ولم يعلموا هل هي باقية حية ام توفيت وكذلك كان خدم مراد بك ينقرون عنها باذلين المال الجزيل لوجدانها فانكشف هذا الامر الخفي للروسة اتفاقاً ولما سمع باسم حنه البقاعية اخذته هزة الطرب تمازجها شدة العجب حتى كاد ان لا يملك نفسه عن اظهار الفرح لاول وهلة بيد أنه تنبه الى لزوم حسن التدبير ووجوب الصمت استتماماً لاكتشاف السر فبقي محترساً من ان يراه او يشعر به احد وحسب الشاب قد درى به فتوارى في بيت المؤنة حذراً خائفاً من ان يعلم به فيحبط مسعاه علماً بان لا مانع له من التهام التركة برمتها الاَّ حنه زوجة اللبابوي فاخذ يفكر في وجه الحيلة للتخلص منها

وما كان هذا المانع على الروسة بعسير ! فانه قادر ان يحتال على الزوج ميخائيل اللبابوي كما احتال على الشيخ بولس ... ولا يدع جرجي الطبيب ابن اللبابوي ان يحيا ... ولكن كيف يدبر على هلاكه ؟ ... لا يعدم حيلة وذريعة لقتله ... اما اندراوس المختلي بامرأته داخل الغرفة فحياته رهن ارادته لان القانون أُبيح للزوج قتل من يوجد مع زوجته في مجلس الريبة . وبعد ان فكر الروسة في ذلك قليلاً

خرج من مخبإه وكان اندراوس قد عاد الى الخلوة بالمرأة فاخذ اي الروسة غدّارة وهمّ بالدخول عليهما فجأة قصد الفتك والايقاع فبدا له فتوقف مفكرًا بعض الشيء وقال في نفسه : لو قتلت هذا الشاب بالرصاص بحجة الدفاع عن العرض والغيرة عليه غير مستحيط في العمل لم يكن بدٌّ من حضور الشرطة والاخذ في الاستنطاق وقوفًا على جلية الامر ولا يعلم ما يحتمل ان يحدث بعد ذلك وينبغ مما لم يكن في الحسبان ٠٠٠ ومع كون الروسة صاحب جرأة واقدام غير هيّاب الا انه كان يشفق من تعقبات ارباب العدلية وبث العيون عليه ٠٠٠ فارتأى ان يتلطف بهم ويتداخل معهم ٠٠٠ لما لحقه من الندم على قتل نسيب لا شفقة او لهفة عليه ولا تحرجًا او تأثمًا من اتيان الكبائر والجرائر لان من تعود شيئًا هان عليه ٠٠٠ ولكنه فيما زعم ما كان يحب ارتكاب الاثم من حيث هو بل يتخذه وسيلة لبلوغ اربه من اقرب الوجوه والطرق ولذا أنّب تابعه حنوش على تعجله في قتل نسيب . وبعد ان اطال الفكرة في هذا المعنى قال في نفسه : لا ينبغي ان نعجل في الامر فان العجلة مجلبة الندامة ! ... واني لواجد طريقة اخرى لادراك المرام ! ... ودنا من باب الغرفة واصغى الى حديث المتناجيين فيها ٠٠٠ وكان اندراوس حذاء لؤلؤة يحدث اليها سرًّا فقال لها : ايتها السيدة لولؤة ان خلواتنا محزنة كثيرًا ! ...

— لمَ ياسيدي اندراوس ؟ فان منزلتك عندي عظيمة وذلك مما يقوي عزمك وينشطك

— اوّاه ٠٠٠ اني غير آمن على مودتنا الخضراء ان ينضبها منجل الفناء فتنصرم حبال اللقاء وتذهب اويقات الصفو والهناء ... أجلْ اني ادخل عليكِ الكرب والغم بهذا القول ولكن ٠٠ . لله دركِ سيدة مجتمعة للصفات قد بلغ من لطفك ان تنعطفي نحو رجلٍ مثلي ٠٠٠ ولست ادري سبب انعطافكِ الزائد وملاطفتكِ المتناهية وانما ذلك يذكرني اخي جرجي ... فانه هو مثلك قد تناهى في حبي ... ولسوف تربن كرم اخلاقه... وعزة نفسه ٠٠٠ وحسن شيمه ٠٠٠ اعلمي انه كان من نيته ان ينتظم في عداد ماموري العدلية بيد أنه لما ازمع السفر الى الاستانة حبًّا بدراسة كتب القوانين شعرت بضعفٍ في جسمي وبقيت اضعف يومًا بعد آخر فقال اخي جرجي لابينا يا ابتِ اني ليحزنني ما الم باخي من الوهن فارى ان ادرس الطب واكب عليه حتى امهر فيه واصير كفوءًا لمعالجة شقيقي ومداواته حتى يشفى وتعاوده العافية وهذه كانت غايته القصوى !! ان لبرأ من العلة ... فجعل يدرس علم الطب مبالغًا في تلقي ما تعلق منه بالامراض

الصدرية لا يمل من الدرس آناء الليل واطراف النهار حتى اذا اتم الطلب في المدرسة هنا سافر الى باريس وادى فيها امتحانًا وافيًا بالمراد وحاز الشهادة بكفاءته ومهارته وقد تقصى في البحث عما يعين على علاج المصابين بالعلل الصدرية ثم كتب اليَّ: انه على وشك الظفر بالبغية ولا يلبث ان يصير نطاسيًا شهيرًا بما يستنبطه من الدواء الذي لم يسبقه احد اليه من اهل هذه الصناعة واتمامًا لدرك المنية قصد المانيا منذ بضعة اشهر تجشأ عن سر العمل وبلوغ غاية الامل وها انا واني ننتظر مجيئه بين يوم وآخر وفي آخر كتاب ورد منه يقول: «عما قليل احضر فائزًا باكليل الظفر والفلاح» فلله من اخٍ عزيز ودود لي في النهاية واني لا ارى من اعظم جدي وسعادتي ان يعود الينا على جناح النجاح مكللاً باكليل الفوز والفلاح!... نعم ان سعادتنا موصولة بسعادته ولولا انه يوفق الى اتمام مشروعه ويفلح في عمله ويحوز حسن السمعة والمزية بين علماء الطب الماهرين لم نأمن عليه ان يموت في قليل من الايام بدءًا من الان!...

فقاطعته لولوءة الكلام وقالت: ولِمَ يموت؟

— انكِ تجهلين السبب وانا لم احدثك به فان الحديث ذو شجون... ان اخي مبتلى بحب فتاة فتانة فتبلته... وذلك انه اثر قدومه من باريس محرزًا الشهادة الطبية العالية قد بدأ بمزاولة صناعته وواظب على البحث توصلاً الى اكتشافات ذات شان وحدث من نحو سنة ان دعاه مراد بك التركي الى منزله ثمة ليتولى علاج احدى شقيقتيه فريدة وكانت في شدة من المرض... ومع كون العادة عند القوم ان النساء لا يسفرن النقاب عن وجوههنَّ الا للطبيب فنضت عنها الخمار فنظر في ما يستدل به الطبيب من احوال البدن على علة المريض وامكن له شفاؤها. وقد تقدم ان الفتاة ذات حسن رائع وجمال بارع تسحر القلوب لاول نظرة وما كان اخي حتى ذاك الحين يعرف طعم الهوى وانما كان خاليًا عن شواغل العشق وبلابله لا يعرف سوى حب ابيه واخيه ولا يهوى غير العلم والمطالعة فعلق بتلك الفتاة الفتّانة وتنشب حبها في فؤاده فهام بها ومنعته شدة الوجد الاكل والرقاد فنحل جسمه أرقًا وشوقًا واوشك ان يقضي وجدًا وهيامًا وكانت فريدة على مثل هذه الحال واجدة به مغرمة فباتا لا يستطيعان صبرًا عن الاجتماع واللقاء فتواعدا على ان فريدة تفتح له باب الحديقة التي بجانب قصر اخيها مراد فياتي جرجي تحت ذيل الليل وهكذا كانا يلتقيان هناك في الموعد ولكن على مثل ما قال الشاعر في هذا الصدد

كم زارني والدجى يربدُّ من حنقٍ . والزهر تبسمُ عن وجه الذي عبسا
وبات طوع يدي والوصل يجمعنا . في بردتيه التقى لا نعرف الدنسا

واتفق ان خرج مراد بك في بعض الليالي الى الحديقة فالفاها مجتمعين فوقع بينه وبين اخي قذٌّ برودٍ بمبنّة «وهو مثل في شدة الخصوصة» وقد اخبرني اخي مرة عن هذه الحادثة البالغة التاثير ولم تزل في محفوظي اذكرها باطرافها كأنني احد من وقعت معها فان مرادًا لما رأى ما رأى من اجتماع الخطيبين اقبل عليهما ساخطًا وقبض على كتف اخي وقال له كاظم الغيظ والريق يعصب فاه : هلمّ ورائي ... اما فريدة شقيقته فتخاذلت رجلاها من شدة الوجل وكادت ان تسقط لولا انها استندت الى اخي جرجي فانتصر اخوها مراد بك على ان قال لها : ادخلي يافريدة خدرك ..

ومشى مراد يتبعه جرجي حتى ولجا قاعة القصر ولم يكن يسمع لاخفافهما الا همس لوقوعها على الزرابي والدرانك المبثوثة هناك وكان المصباح موقدًا يرسل اشعة نوره على الاسلحة المرصعة قبائعها ومقابضها بالجواهر المتالقة في جدران الدار فيحدث عن انعكاسها بريق ولمعان ياخذ بالابصار وكانت شفتا مراد قد ابيضتا من شدة الغيظ ولكنه اغضى واخفى الكمد واظهر الجلد وقال : ياخواجه جرجي بمَ يعبر في لغة بلادك عمّا اقدمت عليه من العمل ؟ ..

فاعترف جرجي بذنبه من غير انكسار وقال : نعم ايها المولى ليس لي عذر ابليه ... وانما انا امرؤ مفتون بهوى فريدة ! ... بل بلغ من فرط وجدي بها اني موطن نفسي على لقاء ايّ هول لاجل حبها .. وكان عليّ ان اكاشفك بذلك ... لاول وهلة ... بل كان الاخلق والاجدر بي ان اكتم الحب عنك وعنها وافرّ هاربًا ... في الارجاء القاصية فلا ارى وجه فريدة ولا اسمع كلامها .. غير انه كان عليّ ان افعل ذلك ولم افعل ...

فتبسم مراد ابتسامة تهكم وازدراء وقال : ما كان احوجك ياخواجه في ايراد كل كلمة وايضاحها الى ان تزيد على قولك : «ولم افعل ذلك — اذ اني اصبت احسن وسيلة لكسب ثروة وافرة دفعة واحدة»

— اراك يابك تلحق بي اهانة وغضاضة !
— بمَ اهنتك قل ان شئت وصرّح لا تلبس عليّ القول ؟
— بكونك شاكًا مرتابًا في امانتي ومودتي
— امانتك ؟ مودتك ؟ انما هما لفظان شريفان . والمسالة ابسط من ذلك .

انت دخلت منزلنا مدعوًّا لامر خاص قد حدث فيه — وهو مرض فريده — وكان عليك ولا حاجة الى البيان ان تعرف قدري ومكاني من الجاه والغنى بمجرد ما رأيت عندي من آثار النعمى وفاخر الرياش ونفائس الاثاث والفنى ولست اشك انك عرفت مبلغ اقتداري ويساري وكان أنّ شقيقتي فريدة قد نصبتك وتصبتها ... فبحت بحبها وتظاهرت به ... فما ابسط هذا الامر! ... واختلاف المذهب هو مانع مقدور الزوال ... فاذا ملكتها؟ ... لزمها اسمك ... وان تزوجت بك؟ ... جاءتك بالمال والثروة ... وبما اني غريب اللسان لا اعرف اساليب الكلام وفنونه في لغتكم العربيه ... اسالك مرة اخرى : اية عبارة مستعملة في بلادكم لوصف ما تأتيه وتفعله؟

وكان جرجي في غضون ذلك يقلب يديه ويعض انامله غمًّا وغيظًا ثم قال : لست قادرًا ان اذود عن نفسي لان شواهد الحال تضادني وتكذبني ... ومع ذلك فاودُّ لو اقنعك ... أترى كان لي وقت ابصر فيه مذ كلفت بحب فريدة؟ ... لا لعمري فقد استنَّ بي هواها حيث اراد وتقاذفني كخشبة في معظم سيل متدافع في ضوج واد ...

دعاني الى ما يشتهي فاجبته   واصبح بي يستنُّ حيث يريدُ

ولما بات قلبي اسير الغرام تعاظمني جوى شديد كل يوم يزيد فحرمت طعم الغمض لحرماني رؤية فريدة اثر تمائلها وتعافيها من الداء ولم يبقَ لي سبيل الى مرآها فاشتد عليَّ الكرب والغم وتولاني اليأس والقنوط حتى كدت انحر « اقتل انفسي » ... ولكن ما اعظم ما شعرت به من الفرح والسرور الذي لا يوصف اذ بلغني ان فريدة تحبني وتودُّ ان تراني ... وهكذا كان حزني وفرحي عظيمين ونفيت مع ذلك حيًّا فان المرء لا يموت قبل اجله مهما عظم فرحه واشتد ترحه

فاجابه مراد بك : كذب ... وخداع! ...

فقال جرجي آه لو ان فريدة هنا فتؤيد كلامي! ...

— يالها من حماية ولله من فوز بفتاة جهلت اطوارك وسطا عليها ملق لسانك ودهانك ... فان فريدة لم تسمع قط كلم الحب والهوى ... انىَّ تهوى ويدخل الغرام قلبها وهي صغيرة أيحتمل ان تروم الحب وتسعى في سبيله ولا تدرك كنهه؟ ...

— لقد ابعدت المرمى يابك ... ووجدت كلامك كله يضع من قدري

ويلحق بي غضاضة

— صدقت ولست ادعك ان تبرح هذا القصر ما لم اوسعك غضاً واحتقاراً لانك خليق بمثل ذلك ويكفيك ان اسمعك كلمة واحدة فقاطعه القول وقال له وهو في فورة الغضب : مَهْ ! مَهْ ! اما مراد فلم يحفل ، ولم يرفع صوته واتم مقاله : ياخواجه جرجي اللياوي اني احسبك خدّاعاً ...

—وبك يا بك ! ...

— انما الماكر الخب هو نذل ! ..

فلما رآه جرجي يزنّه بالخيانة والجربزة فار فائره ووثب عليه منقلب الحدقتين مزبد الشدقين ورفع يده وهمّ بضربه والايقاع به محواً لتلك الغضاضة البالغة منه كل مبلغ ... ولكنه تمالك فلم يفعل ... وانثنى ووقع على المكأة متماوتاً ... ثم قال : يامراد بك ... لا استطيع ان اضربك ... او اقتك بك لانك شقيق من احب واهوى ... اذن ... اهانتك اياي ضرب من الغلظة الفاحشة ...

فهزّ مراد منكبيه عجباً وازدراء وقال : انما هذا منك اعتذار غريب قد لجأت اليه فراراً من الجدال او القتال على حد قول من قال

يرى الجبناء ان العجز عقلٌ   وتلك خديعة الطبع اللئيم

فاشتد امتقاع لون جرجي وكلله العرق فمسحه وقام اليه بكله بصوت ابحّ او كصوت المختنق : نعم لست اريد قتالك ... لا اريد ... لاجل التي احبها ... ايمكن لي قتالك ؟ ... ان هذا لا يكون ... ولكني اراك تسيء بي الظن ولا تحسنه ومن العبث قولي لك ان اقصى البغية فريدة ! ... لا ارب لي ولا قصد الى كسب ثروتك ... فأبقها لك وهب لي فريده ... وايضاً فان من العبث ان اردد قولي لك : لست انا بصاحب ثروة ولكن لا يهمني ان تكون فريدة ذات مال او لا مال لها . فحسبي منها الحب فهو اعلى واغلى من كل شيء ولا يعدله عندي غنى ولا فقر على الاطلاق وكأني بك لا تصدقني في كل ذلك

فاجاب مراد هازئاً متهكماً : صدقت أصدقت ...

— مهلاً مهلاً فان لي سبيلاً الى اقناعك وحملك على احترامي واعتبار كلامي بما انا ملقٍ اليك : نحن الان في الخامس والعشرين من ايار فاذا انقضت السنة وكنا في مثل هذا النهار والساعة عدنا الى البحث في هذا الصدد .. وان نقضى العام ولم آتك بما هو اجلّ وافضل من المال بان اصير ذا ذكرٍ كريم واسم عظيم

بطن في البلاد فلا ارضى لنفسي الحيــاة والبقاء . . . اراك ما زلت تبدي ابتسامة هزء . . . كأنك تقول انه بعد سنة يحدث امور كثيرة تنسي ما كان قبلها . وتقدم جرجي ودنا من ساحة « طاولة » مرصعة بالعاج كانت في زاوية الدار وكتب في طرس ذيله باسمه ويده غير مضطربة وكان مراد ينظر اليه في خلال كتابته وهو مبهوت . ثم ناوله الصحيفة المكتوبة وقال جهير الصوت : اقرأ هذه الاسطر واحفظها . . . . فانها عبارة عن الحكم بموتي ونصها « في اليوم الخامس والعشرين من ايار . . . . سئمت الحياة لعدم نجاح عملي وخيبة املي . . . ولم تصبر نفسي على الضيم الذي صرت اليه . . . فعزمت على الانتحار « وهو ان يقتل المرء نفسه » . . . فلا يتهم احد في قتلي الصادر مني عن مطلق الارادة والعمد . . . »

ثم قال لمراد احتفظ بهذه الورقة واذا كنت في مثل هذا اليوم من السنة القادمة فاقرأها ثانية . فان لم انجز وعدي وادرك شأوي من المجد والفخار فلا بد لي من الانتحار . . . وان اخلفت الوعد ونكثت العهد او توقفت في امضاء الامر على ما عاهدت فحياتي حكم مشيئتك وبين يديك . . . فلا اكون سوى وغد ونذل . . . مستحق الموت وهذه الوثيقة التي توجد في جيبي تدرأ عنك كل ظنة وريبة ولا يبقى من سبيل الى اتهامك بقتلي

وكان مراد مصغيًا له حتى ان كلامه الصادر عن عزة نفس بلغ منه بعض الشيء ونطرق الى فؤاده لان ترفع نفس جرجي وشهامته كانتا قد تبينتا في عينيه « تخبر عن مجهوله مرآته » فنفت عنه مظنة التلهوق « اي التزين بما ليس عندك من سخاء ومروءة ونحوهما » وكان يري رباطة الجاش وتوطين النفس على الموت تحقيقًا لقوله وصونًا لشرفه

اما مراد فاخذ الصحيفة وجعلها فوق ضوء المصباح فتمددت واسودت فاحمرت واحترقت فقال جرجي

ويك بابيك ماذا تصنع ؟

— اما ترى ياخواجه اني احرق صك عهدك المتجاوز حد الصدق

— غير مضطرب — ان العهد باقٍ بقيت هذه الورقة ام احترقت وتلاشت واني عقدت معك عهدًا لا ارجع عنه . . .

— حسبي مجرد قولك . وتقدم نحوه وقد اخذته عاطفة الشفقة والرافة وبسط له يده ليصافحه فتلكأ عنه وتطامن امامه وقال : ليس هذا وقت المصافحة ولكن بعد انقضاء الاجل . . . فلقد جبهتني وتجهمتني فانت مذ الآن الى منقضي سنة اما ان تدعوني

اخاك او اني اغدو الى رمسي وها اناذا اودعك ...

فقال له مراد فليكن ما تريد فاذا مضت السنة وكنت في مثل هذا اليوم الـ ٢٥ من ايار .. والله يكون معك ويتولاك بعونه ومدده

اجل اذا انقضت عليّ سنة وكنت في الـ ٢٥ من ايار تلاقينا ان شاء الله ... وانصرف من لدنه لا يلوي على شيء واضعًا اصابعه في اذنيه مغمضًا عينيه مخافة ان يبصر وجه فريده او يسمع صوتها ... وما ولج حديقه القصر حتى شعر بيدين ناعمتين قد طوقتا جيده كقلادة من ماس وسمع صوتًا رخيمًا مفهومه : اني احبك . وما برحت انتظرك ... وليكن حبي رفيقك ...

ان فريدة كانت تسمع حديث شقيقها مراد وخطيبها جرجي من الغرفة المجاورة للقاعة ولما احاطت علمًا بكل ما جرى لم تصبر على ذهاب جرجي دون ان تودعه ... «عودًا على بدء» واستمر اندراوس في حديثه لمحبوبته لوءلوءة لا تقاطعه هي بكلمة بل كانت تسارّ اليه معجبة به مستغربة تلك القصة بل الحادثه الكارثة مقبلةً اليه بسمعها كل الاقبال على نحو ما كان عليه الروسه من شدة الاصغاء فانه لم يفته بنت شفة حتى سمعها ووعاها من وراء الباب وقال في نفسه : لقد احسنت العمل والتدبير بامساكي عن الدخول والظهور بداءة بدء متعجلاً الاقدام . وما زال مصغيًا الى حديثها فسمعه يقول لها : اما اخي جرجي فلا يلبث ان يعود لان آخر كتاب ورد منه في كولونيا يبشرنا ببلوغ الامل وقد قال فيه انه اهتدى الى اكتشاف فوائد طبية في منتهى الاهمية ولهذا سوف يذيع اسمه وتتحدث به الالسنة وتنوه به الجرائد العلمية ذاكرة مكتشفاته في فن الطب ومن ثم يمكنه ان يتقدم ويترقى فرحًا فائزًا مرفوع الراس بين الناس عمومًا ومراد بك خصوصًا لان الاجل الذي ضربه اخي جرجي لم يحن بعد ونحن الآن في اوائل ايار وقد تمكن من اتمام اكتشافه العلاج المروم ولهذا فانه سيعيش احسن عيشة رافلاً بمطارف العز والجاه بالغًا اقصى الوطر

واما الروسه فقال في نفسه : لا بد من اهلاك هذا وذاك ... ثم انسلّ يروم ما تسوقه اليه نفسه الخبيثة الامّارة بالشر والسوء

٦

وكان ما علمه واطلع عليه الروسة من السرائر موجبًا لدهشته فرأى ان يخلو في معزل ليفكر في ما ينبغي له ان يفعل واذ كان شديد العزيمة سريع الخاطر فتقت له الحيلة

وجه التدبير لبلوغ الارب بان كتب الى الامير فريد يقول له « اود ان احدثك بامر ما فأْتني تجدني في منزلي الخاص بسكناي في محلة الرميلة وها اني منتظرك هنا . لاني وجدت باقي الورثة فان حنة البقاعية قد ماتت عن زوج وولدين ذكرين واما لا آتي عملاً قبل حضورك » .

ودفع الكتاب الى ميروبا وامره ان ينطلق به الى الامير فريد فسار من فوره وطلب الامير فلم يجده فذهب الى سراي الحكومة يسأل عنه هنالك لانه كان قد تقلد منصباً سنيًّا في دوائر الحكومة فقيل له هو غائب فعاد الى قصره فلم يجده ايضاً فادّى الكتاب الى الخادم واوصاه بايصاله الى سيده عند حضوره . وكانت غادة البقاع في قاعة القصر فابصرت ميروبا مقبلاً بالكتاب فعرفتهُ انهُ من خدم الروسة انصار فريد « وهو الذي غرّها وذهب بها من بيت ابيها مع ذيب» فخالج فؤادها ان هذا الرسول لم يأْتِ الاَّ لشان جديد بين الروسة وفريد غايته الشر او قد نصب احبولة خفية فصاحت بالخادم على اثر انصراف ميروبا وقالت لهُ : ماذا يريد هذا الذي دخل القصر وما لبث ان خرج منه فاجابها : دفع اليَّ كتاباً يقول انه مهم ضروري والحّ عليَّ في ابلاغه الى مولاي الامير فريد عند حضوره فاخذته منه ووضعته في مقصورة سيدي على ساجة الكتابة . فما كان من غادة البقاع الاَّ انها صرفت الخادم وجاءت من فورها الى غرفة فريد فوجدت الكتاب بموضعه . . . فتوقفت في فضه . . . وترددت . . . ولكنها خافت العقبى . . . فاقدمت بعد ان احجمت على اكتشاف السر واكتناه الامر . . . فتناولت الرقيم وفضت ختمه وقرأته فاذا مضمونه كما تقدم آنفاً . . . فعجلت العودة الى مقصورتها وقد اصفرّ لونها واخذتها الرعدة وجزعت جزعاً شديداً علماً بان الروسة وفريداً لا يتحرجان من اتيان الجرائم في سبيل ادراك الثروة برمتها وجعلت تنكر في وجه التخلص من الشر فقالت في نفسها : ينبغي لي ان اقطع اسباب ارتكاب الجرائم ! . . . وانتصب وحدي للمقاومة ان دعت الحاجة ! . . . واذا اقدم فريد على اهلاك هذه العائلة عائلتي لا يبقي على احد منها . . . فيجدني ضدًّا له . . . واطرقت مفكرة قليلاً واسرعت في لبس ثوبها الاسود الساذج وخرجت من القصر ومشت في الشارع بعض خطوات فرأت عربة للكراء فاشارت الى سائقها واستوقفته بها فاجاب وركبت واوعزت اليه ان يسير بها مسرعاً صوب سكة بسترس وواعدته الاكرام

اما السائق فخيل اليهِ انها تريد لقيا انسان على خلوة فنغض براسه وساط الخيل فجرت سراعاً الى هناك

وما كانت غادة البقاع لتخفى عليها سرّ ذلك النغض بالراس فقالت في نفسها : سبحان الله ! حتى قصد الخير لا يخلو عن ان يُزَنَّ صاحبه بسوء النية ممن خبثت انفسهم وفسدت ضمائرهم ولكن ينبغي لي التجلد على كل ذلك مضافًا الى جملة ما لقيت من المحن والمكاره الى الآن ...

واما سبب مجيئها الى هذه المحلة محلة المقسم بعد ان برحتها منذ سنة فاكثر فانما هو البحث عن الاصدقاء الاولين والاستعانة بهم على اعدائها الاشرار الذي احاطوا بها احاطة السوار بالمعصم فذكرت عزيزًا وصاحبيه لمغان وشجعان الذين دافعوا عنها بادي بدء وهم ما زالوا يقدمون على حمايتها والاخذ بناصرها غير مخاذلين لها في هذه الحزة ايضًا ثم ذكرت مرادًا بيدَ انها شعرت باستحياء منه واحتشام من طلبه لانها كانت محبة لاحسانه اليها وقد فرّت من قصره حبًّا بمالك فؤادها عزيز ومع هذا فماذا تجدي مواجهته على ما فيها من لواحق الخجل والحشمة ؟ ... لانها يلزمها قبل اعلامه بالامر ان تعرف اسم العائلة التي علمت بوجودها من كتاب الروسه الى فريد كما مرّ ليتاتى لها اخبار مراد بك باسماء الورثة الذين يحق له ان يذود عنهم وينتصف لهم . وكتاب الروسه المذكور لم يسمِ اولئك الناس ولا مكانهم فبدا لها في ذلك بداء فجاءت محلة المقسم لسابق عهدها بها و بسكانها الذين لها بينهم معارف واصدقاء رجاء ان تعينها الصدفة على وجدان عزيز ولقياه فانها كانت منذ عام لم تظفره عينها ولم تعجم شانه وما صار اليه ... وقد طالما ذكرته باكية لنواه وهي تحنّ الى مرآه ! ... وكثيرًا ما خامرها انه قد ظنّ بها الظنون واعتقد فيها الخيانة والغدر ... فتتردد في طلبه مخافة ان لا يتلقاها بقبول حسن ...

ثم زايلها هاجس اليأس والقنوط وعقدت النية على ما ارادت من لقياه وخصوصًا ان ما كانت تخشاه اول الامر على والدها من عقبى المكاشفة بحقيقة شانها قد زال ولم يبقَ محذور من هذا الوجه لان اباها قد فقد فما تخاف من بعده شيئًا ولا يمنعها مانع من المبالاة ... ولقد ملّت الحيوة فما تشفق على نفسها من الردى والهلاك ... وكانت كلما قربت من محلة المقسم يزداد قلبها خفقانًا حتى امتقع لونها وعصب الريق فاها واذ وقفت بها العربة في تلك السكة سألت السائق عن منزل عزيز فدلها عليه فاذا هو الدار التي كانت تسكنها مع ابيها فثارت بها بلابل الوجد والجور ... واحست بارتعاد ... لتذكرها هاتيك الاوقات الصافية والعيشة الراضية الهنيئة ايام كانت عائشة مع والدها براحة واطمئنان نفس ونعيم بال مستمتعة بمعاشرة خطيبها ... وخصوصًا انها في هذا البيت نفسه قد وهبت لعزيز فؤادها وفوضت اليه قيادها

قاصرة عليه دون سواه اقصى مرادها ... وهكذا هو فعل فانه بذل في حبها قلبه وهجر اليها سائر الناس في بعده وقربه ... وانها من هذا البيت أُخرجت بالخداع تلك الليلة المشؤومة وعبثت بها حيل الماكرين اللئام وتلعبت بها ايدي الباغين الطغام .. اما وقد صارت الى هذه الحال فانها تعود الى هذا البيت مثواها الاول وهي سيدة سريّة ذات ثروة عظيمة لابسة ثياب الحداد على والدها فتجد فيه عزيزًا — عزيزًا مالك فؤادها — تلقاه في شدة اليأس والبؤس وكانت عند كل خطوة تخطوها نحو المنزل تخاذل رجلاها وجلاً لا تدرك له سرًّا واخبرها صاحب حانوت هناك ان عزيزًا في منزله ومنذ خمس دقائق رآه داخلاً اليه

فدنت من الباب وفؤادها يخفق ايّما خفقان هلعًا وجزعًا .. وذكرت ايام كانت تلج هذا المكان وقلبها يطفح فرحًا وسرورًا ... وهمزت سلك النداء فسمعت صوتًا من الداخل مفهومه : ادخل ... وكان الصوت صوت عزيز فلم تشك فيه .. فحاولت ان تمد يدها لمعالجة مزلاج الباب وفتحه فلم تقدر ضعفًا واعياء كأنها طفل او عليل دنف لا يقوى على عمل وكادت ان تسقط على الارض ... فعاودها الصوت : ادخل وتبعه صوت مشيٍ وفتح الباب ... فرآها عزيز فحملته الدهشة على الانثناء الى الوراء وصاح : غادة البقاع ! ... انتِ غادة البقاع ! ...

اما تلك الحزينة فلم تبدئ ولم تعد لانها صارت الى غاية التخاذل فاغمضت عينيها وعادت كالشبح لاحراك فيها ولا روح ولبث عزيز مندهشًا مبهوتًا وكرر قوله : آنت غادة البقاع ؟ ... فتعسًا لكِ وتبًا ! ... ما جاء بكِ هنا ؟ ...

فضمت احدى يديها الى الاخرى وتصاغرت لديه وقالت : لا تكسرني ! ... ولا تطردني ! ... انك ستعلم بكل ما جرى ! ... وتمالكت ان ولجت الغرفة وترامت جاثية على ركبتيها وجعلت تبكي وتشهق ...

وكانا لم يتشاهدا منذ سنة فبهت كلاهما ينظر احدهما الى الآخر بعينٍ قد شهقت عليه واخذت عزيزًا شرقة شديدة فقال بلسان الحال

وما هي الا ان اراها فجاءة   فأُبهت حتى ما اكاد أُجيبُ

وكانت غادة البقاع لابسة ثوبها الاسود حدادًا على ابيها فتجلت باحسن ما يكون في النساء وكان تكسرها وفتورها يزيد في حسنها وبهائها كمغناطيس يجذب قلب الجماد اليها وكان اصفرار محياها الوسيم ينبئ عن انكسار قلبها وكذا عزيز فانه ازداد حسنًا بتغير ملامحه لامتلائه سمنًا ولم يبقَ فيه شيء من اعطاف الاحداث وكان يحاول ان

تشاغل عن غادة البقاع بانصبابه على العمل وهكذا جاءته وهو على هذه الحال فقاطعته التشاغل فدخلا القاعة التي كان يعمل فيها ٠٠٠ وكان بين يديه ساجة (طاولة) عليها كتب ورسوم ورسائل واقلام ومهارق ومحابر كل ذلك في حيث كانت غادة البقاع تضع ادوات عملها وشغلها .وقد تحولت تلك الساجة لادوات عمل عزيز

فادنى عزيز من الساجة كرسيًا فجلست عليه غادة البقاع وبقي عزيز قائمًا امامها عابسًا كابي الوجه مكتئبًا وقال لها : ماذا اقدمك هنا ياغادة البقاع ؟ ٠٠ . فانك لم تاتِ هذا المكان الآ لعلمكِ اني فيه ٠ ٠ . ومحل العجب والاستغراب انه لم يبقَ بيني وبين زوجة الاميراقلُّ علاقة ٠٠ . ولست اشك انك قد اختصصت بزيارتك في بيروت هذه المحلة بل المحل الذي قضيتِ فيه ايام الفاقة واعوام الاحتياج ٠٠٠ وانما تريدين بذلك المقايسة بين حالتك الحاضرة وحالك العابرة . ٠٠ فامكثي هنا قدر ما تشائين ٠ ٠٠ وانا ابرح المكان ٠٠٠ توسعة للامر عليك

— اني جئت هذا المحل لاجلك ٠٠ ، باصاح ٠٠٠ انت في وهمٍ وعلى غير هدى ٠٠٠ فاسأُلك ان تقصر عن اللوم والعتب فانا في منتهى البلاء والشقاء فلا تجهز على الجريح ! ٠٠٠

— انتِ شقية تعيسة ! ياعجبا ! انت مصابة قال هذا عن سخط وازدراء ولم يبدِ اقل ابتسام — الستِ انتِ التي حازت كل ما ينبغي منهُ اسباب الهناء والسعادة ؟ ٠٠٠ فالثروة لديكِ موفورة تنفقين منها بغير حساب ! ٠٠ .ولكِ الجاه الطويل العريض ! وزوجك امير يحبكِ وانتِ — انت ٠٠٠ مغرمة به هائمة ! ٠٠٠ فماذا يعوزكِ ؟ ٠٠٠

فانغضت راسها تأسفًا وتلهفًا وقالت خافتة الصوت : كفى — كفى ياعزيز لا تزدني ألمًا وغمًا فوق ما انا عليه ٠٠٠ فانت ستندم على كلامك ! ٠٠٠ فانا لا استحق هذا الامتهان والتحامل ! ٠٠٠

— حسبُ ! حسبُ ! ٠٠٠ . لا تحاولي طلي المحال تلبسًا بالشكوى والتظلم ٠٠٠ فان حظكِ لتغبطين عليه ! ٠٠٠

— ذلك لان حقيقة الامر مجهولة ٠٠٠

— هل مال اوملَّ زوجكِ من حبك ؟ ٠٠ وما اربث مدة الزواج على سنة ! ٠٠٠

— أرعني سمعك اذن ٠٠٠ — ارى ان لا بد من ان اطلعك على كل شيء وها اني مكاشفتك بسر قد طالما كتمته ٠٠٠ سر حياتي المتجددة — وهو سرٌّ يدني أجلي ويسوقني الى القبر ! ٠٠٠

— وما يجدي ذلك وعلى مَ هذا الانقلاب السريع ؟ . . . اما أنا فتفارقنا تفارقاً لا اجتماع بعده على الابد ؟ . . . أو يمكن ان نجتمع في مستقبل الايام ؟ . . .

— سألتك ان تصغي الى حديثي ثم يكون لك الحكم بما تشاء . . . الا تراني كاسية ثياب الحداد ايّ حداد ؟ . . . اعلم اني فقدت ابي منذ قريب آه . . . وفقده يجيز لي الآن ان أوقفك على جليّة امري . . . فلشدّ ما اقاسي من الالام والكرب لرؤيتي اياك ترميني بما انا براءٌ منه ولا غرو فلقد استوجبت ذلك وان جوراً وظلماً . . . الم تذكر ياصاح عزيز ان ذلك الرجل الغاشم والامير الطاغي الباغي قد اعتقلني واوقعني في شرك مكره ودهائه حتى بلغ من تضييقه عليّ منعه اياي ان اخطو خطوة خلوًا من عثرة وسقوط ؟ . . . فقد شدد في خفارتي واقام لذلك اثنين من رجاله واشياعه ومماليه على الشر والمكر وقد تمكنت اول مرة من الهرب والتملص مخاطرة بحياتي . . . أفيخطر ببال احد اني فررت منه من اجل حبي اياه ؟ . . . ثم قُدّر عليّ الوقوع ثانية في حبائله وحاولت الفرار والتفلت . . . فلم اقدر لانه قيد يديّ ورجليّ بكبول من حديد اذ منعني الحرية وكان له عليّ أمرة مطلقة مطاعة فلم املك لساني ولا عيني بل اقل اشارة او حركة كنت اريد ابداءها

— ماذا تقولين ياغادة البقاع ؟ ... كيف تاتى لهذا الرجل ان يتسلط عليك كل هذا التسلط ؟ . . .

— أوّاه ما كان ابسط ذلك واسهله . . . فان الامير قد غلب على عقل والدي المسكين وما زال يداوره حتى استوثق منه . . . وذلك الشيخ الساذج لم يفكر قط بل لم يدر في خلده مطلقاً انه بلت آلة او العوبة بين يدي فريد . . . وانما بقاء ابي كان موقوفاً على صمتي وسكوتي وانقيادي التام لما يريد فريد فلو هربت كان في هربي هلاك ابي لا محالة ولو كشفت دخيلة الامر لك او لمراد بك اولايّ كان من اخلائي واصدقائي لم يبقَ على والدي دقيقة واحدة . . . اما ابي فكان يخفره رجلان اثنان لا يغفلان عن خفارته آناء الليل واطراف النهار . . .

— غادة البقاع أحقٌ ما تقولين ؟ ان ذلك لعظيم ! . . .

— أعلمت الآن سبب طول صمتي وسكوتي وكتماني كل شيء تلك الليلة الهائلة ليلة جئتم باجمعكم لانقاذي ؟ . . . اذ لو تمت نجاتي هلك والدي لامحالة فكفيت اولئك الاشرار ارتكاب جناية الانتقام بقتل ذلك الشيخ البريء الذي آثرته على نفسي فقد حملني حبي الصادق لابي ان لا اعدل به السعادة ورخاء العيش والنعيم الزائل .

اعرفت الآن سبب تظاهري بمحبة فريد الخب الماكر ؟ ... وعلة التزامي الدفاع عنه ووقاية حياته فعليها ... كانت موقوفة حيوة والدي فهل أُلام والحال كما ذكرت على التزام اظهار الميل اليه والذود عن حياته والمجاهرة بمقاومتك لاجله ؟ ... والحاصل اعلمت حق العلم الداعي الى تسليمي بعقد ذلك الزواج ؟ ... وباعثي على التظاهر بالرضى امام الكاهن والشهود وكبار المدعوين الى العرس ؟ ... وفيما ان الناس يطربون ويتداولون كؤوس الهناء والصفو ليلة الفرح اذا بقلبي مفعم غمًّا وكدرًا الا يطالب الأ الانتقام من اولئك اللئام الطغام الغاصبين وما اشد ما كان قلقي واضطرابي فقد بث في بلابل شاردة العقل اليك اسألك عفوًا وصفحًا جميلاً ! ... ولم يكن لي امل في التماس وجه الاعتذار ! ... وانت محق باعراضك عني تزاهدًا وجفاء لاني تظاهرت بالاساءة اليك وعدم حفظ الذمام بل بالغدر والعدوان ! ... آه ! آه ! آه ! ...

— الهي الهي ! ... ماذا تقولين لي ياغادة البقاع ...

— اقسم لك على صدق ما قلت انه هو الحق ليس الأ ...

— اذن ذلك الرجل هو وحش ضار ... يجب ان نرفعه الى ارباب الحكومة ليجزى على شر ما فعل امام محاكم العدل ... سجنًا ... وتعزيرًا بل وضعًا في الكورك ...

— اوّاه ... واحزني ... اوّاه وايأسي ... لو كان ذلك سهلا ما ابطأت عنه دقيقة واحدة ولكن لا يكون هذا الامر ...

— الأ تريدين ؟ ... أهو أهل لان ينال شيئًا من الرحمة ؟ ...

— لا . لا انه لا يستحق الشفقة والرحمة مطلقًا وما ارى الكورك جزاء كافيًا لعظم جريمته ...

— فعلى مَ تعفين عنه

— لن اعفو عنه ولكن لو رفعته الى القضاة وطلبت الحكم عليه كلفوني الاثبات بالبينات ومن اين لي اقامة الحجة والبرهان ... وغير خافٍ ما لفريد من الشان العظيم في المدينة وما له من المنزلة المكرمة عند الناس فمن ينتصر لي ويخذله وهو ذو مكانة وكلمة نافذة في جميع المجالس والمحافل وله منصب خطير في مناصب الحكومة وقد حاز الرتب الرفيعة فما يكون مبلغ قوة مرأة مثلي ضعيفة مع رجل مثله عظيم القدر شديد المحال وخصوصًا اني عادمة البرهانات والادلة القاطعة على صحة

دعواي ... ولا يبعد ان يجهلوني ويرموني بالحمق والجنون ... فينبذ قولي ظهريًا ولا يلتفت اليه ... فيسارع فريد في قهري واعتقالي بمكان منفرد ادعاء باني فاقدة العقل ... وانت تعلم انه قادر على ذلك لا يمنعه منه مانع لما له من عظم النفوذ والجاه خلا انهُ صاحب تدبير ودهاء وعزم واقدام على الامور الجسام لا يتحرج من المساوىء والشرور فاكون انا وكل من يحبني عرضة للبلاء والوبال! ... ومن ثم فان شكايتي اياهُ تحسب ضربًا من الحماقة والجنون على اني ارى رايًا وهو ان نسعى لاتخاذ تدابير اخرى علّنا بها نبلغ المرام! ...

— وما هي تلك التدابير ياغادة البقاع؟ ... فبينيها وانا لكِ معين على تيسيرها ولو ببذل حياتي ! ...

— ان كنت انت تبذل حياتك لاجلي ! ... فبالحري انا جديرة بذلك حبًّا لك ! ... فمعك احيا ومعك اموت ياعزيزي عزيز ! ... فاني ما فترت عن محبتك قط وانما هي ابدًا ان اصون نفسي وحياتي لاجلك

— ياعزيزتي غادة البقاع ! ... ياعزيزتي ! ...

— نعم احبك ! ... كثيرًا ! ... ولست مقيدة حتى الآن بما يمنعني محبتك ... واني ما زلت حرّة قادرة ان اقول لك ذلك لانني اما انا غادة البقاع انا — الفتاة التي عرفتها اما عقد اقتراني بالامير فانما كان قسرًا وعنوة ... لقد طمع في ثروتي ... ولا يكون حظه مني سواها ... فانا احبك ! ... أسمعت — أقنعت انما انت وحدك احبك ! ...

— غادة البقاع ! غادة البقاع ! ربي ! لقد ذهلت وطار عقلي من فرحي ! يا بشراي ! ...

اما غادة البقاع فتباعدت عنه بلطف ... وطفق يحدق ببصره في رياض محاسنها الناضرة ... ولم يفه بكلمة بل كان طرفه وقلبه ينطقان بغير لسان واحسبها ينشدان

وتخرس منا ألسنٌ حين نلتقي ونتطق منا اعينٌ وقلوبُ

فقطعت غادة البقاع ذلك السكون وقالت : اعرفت الآن سبب مجيئي اليك ؟ ... الوقت قصير ... وايضًا فاعلم ان زوجي وشريكه الروسه في الاثم لا يملكان ثروتي برمتها الا اذا اهلكا باقي الورثة ... والروسه قد عرفهم ولذا صارت حياتهم في خطر فاريد ان امنع تجدد وقوع الجنايات بانقاذ الباقين من شر زوجي ثم يتاح لنا ما نحن نتحرّى من الادلة ونحصل على برهانات كافية طلبًا للمجازاة على الذنوب

—اني آكون لكِ عونًا ونصيرًا في ذلك ياغادة البقاع ..

—لقد جعلت اعتمادي عليك —اعلم ان شقيقة والدي التي لها حظ في الارث قد ماتت عن زوج وولدين ولكن لست اعرف اسماءهم وموضع سكناهم ... انما الروسه يعرف ذلك وسيعرفه فريد ايضًا فاذا راقبتهما بلغت المراد بمعرفة الخلف الباقي واولى بنا ان لا نفارقهما مخافة شرورهما قبل انت باقٍ على تمام الثقة بولاء صاحبيك لهنان وشجمان

—ما زالا كما كانا صديقين مخلصين فحياتهما كحياتي رهن برضاكِ ووقف على ارادتكِ واشارتكِ ... فسأبحث عنهما .. وابتدر مذاكرتهما الامر وفي علمي انهما قد اتخذا مكانًا خاصًا لاكتساب رزقهما وهما شريكان في العمل ولا شيء يحول دون حريتهما لانهما مطلقان يعملان لانفسهما غير مقيدين بخدمة احد من الناس

—فسر ياصاحِ راشدًا مهديًا في كلاءة الله تعالى وانا اسأل القادر على كل شيء ان ينصركم على العدو الغادرين الماكرين ! ... ومدت نحوه يدها وصافحته مودعة وقد زوّدته فؤادها واغرورقت عيناها خوفًا عليه من شر العاقبة واقبلت على نفسها تلومها من اجل تعريضه للخطر بلوغًا لبغيتها وقيامًا بخدمتها

اما عزيز فنهض من فوره وارسل الى رب البيت التجاري الذي كان في خدمته يستاذنه في الغيبة عنه بضعة ايام وهو لا يشك في اجابة طلبه الاذن وما لبث ان خرج من المنزل قاصدًا صاحبيه لهنان وشجمان ليذاكرهما ما انعقدت عليه النية ولم يمضِ غير ساعة حتى اجتمعوا ثلاثتهم بجوار دار الروسة التي كانت مثابة ومعهدًا لعقد المؤامرات ونصب المكايد في محلة الرميلة

ثم بعد خمس دقائق ابصروا فريدًا مقبلاً ... وذلك ان ميروبا صادفه واخبره برسالة الروسه التي جاءه بها ولن يجده فاسرع للاجتماع بالروسه دون ان يعوج بقصره ولو عاج به لشك ان امرأته درت كه الرسالة على ان فريدًا لما اعلمه ميروبا بمعنى الرسالة خامره غم شديد وقلق عظيم تحرجًا من الاقدام على مزيد الجرائم والآثام عالمًا بان الروسه لم يزل جادًا في طلب بقية الورثة وكان يخيل له ان الدم مسفوح في موقع الجنايات المنوية ... وصار قلبه يخفق رعبًا ورهبة ... وارتكس في هواجسه يدفعه شك ويتلقاه ريب ... وقد بهظته اعباء تانيب الضمير من كثرة المساوئ والشرور ... وفي علم القارىء ان فريدًا هو من نبعة كريمة وسلالة طيبة وانما الذي ورّطه تلك الموارط المنكرة اختلاطه بالروسه ومتابعته على ما اراد فعوّده الاستمرار على الاجترام وارتكاب

الآثام والمرء اسير العادة فان زلت بهِ القدم مرَّة بعد اخرى الى مهاوي المعاصي هان عليه اتيانها وجعل يشخص بها وبنا متماديًا متوغلاً اللهمَّ اذا تنبه ونهى النفس عن الهوى في بادي الامر وثبطها عن الانبعاث في النكر . . فبات لذلك فريد يتقلب من شدة الغمّ والهمّ على احرّ من الجمر يشكو سوء حظه وشؤم طالعه بيد أنه تجلد امام ميروبا النباج واظهر قلة المبالاة وذهب بهِ الى معهد الروسه وكان يتبسم وفي احشائه ضرم فخلا بالروسه برهة ثم خرج من عنده كابي الوجه كاسف البال مرتعش اليدين منقطب الحاجبين كأنه ميت مخرج من قبر ومع كل ذلك تجلد ما استطاع وتبسم حتى اذا انتهى الى اسفل درج المنزل تخاذلت رجلاه وكاد ان يسقط اعياء كالشارب الثمل من شدة الحزن والابتئاس . . . وما كان بهِ سكر الخمر والمدام وانما دوار الاقدام على سفك دم الانام . . . وتولته الحيرة وتعاورته الهواجس وذهبت بلبه كل مذهب... اما ما كان بينه وبين الروسه في تلك الخلوة فلسوف ننبئ عنه الكوائن والامور التي تجري وينكشف بها الغطاء ويبرح الخفاء وكل آتٍ قريب

﴿ ٧ ﴾

ان فريدًا لم تطاوعه نفسه على مزيد التورط والتمادي في الشرور سواء كان حبًا بغادة البقاع او خوفًا من العقاب او ارعواء عن الغيّ لكثرة تأنيب ضميره لانه وان بلغ من خسة نفسه وسفالة طبعه هذا الحد لم يعدم من وجدانه زاجرًا عن المنكر بما وجدت وركمت عليه جبلته الطيبة الغرس فانه بعد اختلائه بالروسه في محلة الرميلة صادف في طريقه عربة فاستوقف سائقها واكتراها منه واشار اليه : أنْ جدَّ بي مسرعًا الى راس بيروت ووعده باجرة مرضية ان وفى بمراده من السرعة في السير وما كان للسائق من عائق عن الامتثال فالهب الخيل ضربًا بالسوط وملأ لها الاعنة فطارت تباري الريح في شدة العدو والجري ولكن حدث ان عربة اخرى كانت تتبع عربة فريد على الاثر على غير علمٍ منه واستمرت تجد في المطاردة وداخلها عزيز وصاحباه لهفان وشجعان وكانوا قد واعدوا السائق انهم يجزلون له العطية فجعل يسوط الخيل ويحثها حتى صارت تسابق الطير وبعد عشر دقائق وصلت العربات الى محلة راس بيروت فنقد فريد سائق عربته ريالاً مجيديًا فاخذه وانصرف فريد غير منتظر استماع تشكراته له وولج في احدى نواشط الشارع قاصدًا البيت الذي وجد فيه منذ يومين اندراوس ولؤلؤة والروسه وكان فريد قد تلقى من الروسه المعلومات الكافية المتعلقة بذلك البيت وسكانه وعرف

كيفية الوصول الى اكتشاف اسرار العائلة اللياوية بوسيلة تردد اندراوس على بيت الروسة والاجتماع بزوجته الى غير ذلك من الامور والمقاصد التي علمها فريد

وما لبث ان صعد في السلم وطرق الباب فشعر بهمس اقدام خلف الباب ولم يفتح له وكان في الداخل انصات تام فاستأنف الدق وقال بصوتٍ منخفض : افتح ــ افتح دون ابطاء لان الامر مهمٌ وعليه تتوقف حياتك ! . . . ففتح له الباب واذا باندراوس قد اعترضه ثابت الجاش مدلاً بشجاعته واقدامه وقال : ما شانك يارجل وماذا تريد ؟ . . . واحسبك ضالاً واهماً في غشيانك هذا المحل . . . فابتدره فريد بان قال : لست بواهمٍ ولا ضال وانما انا قاصد مخاطبة الخواجه اندراوس اللياوي

— اصبت فانا هو الرجل « وبدت عليه ملامح الدهشة »

— اذن دعني ادخل

— ليس هذا بيتي حتى آذن لك في دخوله . . .

— فبالحري قد وجب الدخول . . . لاجرم اني عارف ذلك . . . واقف على داخلة امرك . . . وانت منتظر حضور امرأة فتاة . . . وان لك معها علاقة . . . وهي قادمة . . .

— ياخواجا ! . . .

— مقاطعاً اياه الكلام لا تخف ــ لا تخشَ مني سوءا ولا تبتئس لمفاجأتي اياك هنا فانما انا اتيت لانقاذك من الخطر . . .

— فمن انت واين تكون ؟ . . .

— لا يعنيك ان تعرف اسمي . . . وانما المهم ان تدري بان خطراً مبيناً يحدق بك . . .

— خطر ؟ . . . وما هو ؟ . . . وانّى يكون ؟ . . .

— خطر على حياتك . . .

— صرح بالقول . . . هل الخطر المخوف محدق بي وحدي ام بي وبسواي من اوثر حياته على حياتي وافديه بنفسي ؟ . . .

— لا اعلم على ان الامر المحقق عندي انك انت الخواجا اندراوس اللياوي على شفا خطر مبين . . .

— « وهو هالك الجلد عادم الصبر » اسألك ثانيةً ان تزيدني ايضاحاً زادك الله صلاحاً ! . . .

— لا ارى لي وقتاً لمزيد الكلام ! فالهرب الهرب ياخواجه ان كنت تضنُّ

بحياتك ... تعجل الفرار ولا تبطيء دقيقة بل ثانية اخرى ... عزمت عليك بن تحب وتهوى ان تسرع في الهرب جهدك ...

وكان فريد يخاطبه بهذا الكلام وهو ظاهر الرغبة في اقناعه . والغريب ان ذلك الشاب كان كلما زاده تخويفاً وتحذيراً ازداد صبراً وشجاعة وما زال به حتى قال له: ايها الرجل انت مطلع على باطن امري — ولا ادري كيف اطلعت عليه — فلا يخفى عنك اني لا ابرح ما لم يحضر من انتظره ...

— انا عالم بذلك ولا اجهله

— وعليه فلا سبيل الى الفرار . وان كان هذا الخطر المحذور ان يداهمني سيفاجئ من لم ارل في انتظاره فاي مذلة ونذالة تلحقني من جراء هربي واختفائي ...

— ثق ايها الشاب انك ان كابرت ولم تنذر بما اقوله لك هلكت لا محالة فانه سيباغتك عدو وهو زوج من تود ... وقد اعدّ مكيدة او احبولة شيطانية لا تنجو منها ولا تسلم من شرها ... فيفتك بك مغتالاً لا غيرة منه على عرضه ان ينال او ضناً بشرفه ان يذال ولكن له أرباً آخر...

— ما زلت اكرر عليك قولي ... اني لا افقه هذه المغازي ...

— ستفقهها وستدرك كنه الامر اما الآن فاهرب ! ...

— لا لا يكون ذلك!

— انت تابى وترفض ... هذا لا يكون ! ... فانك سائر على غير هدى ...

— نعم نعم اني ارفض الفرار ولست اشك في الخطر الذي اشرت اليه ولكني لا ابالي به ولا انذر ...

فبلغ ذلك من فريد كل مبلغ وحمله التاثر على ان قال له : اراك لا تكترث لكلامي ولا تسمع نصيحة رجل لا تعرفه ولكن لو عرفتك بنفسي لشعرت بان لقدومي اليك شاناً كبيراً وهو انقاذك من الخطر المبين الذي حدثتك به ... فقل من لم يعرفني في بيروت او سمع باسمي ... اقسم لي انك تكتم السر ولا تبوح به ... ومهما يكن من الامر فلا تفشه لاحد بدون اذني — اني حاولت نجاتك ...

— وقد اظهر القلق من شدة انفعال فريد اني اقسم لك على ما اردت من كتمان السر والاحتفاظ بالامر

— انا هو الامير فريد . وعندها دهش اندراوس لان هذا الجلالة واللقب معروف في البلد بل هو اشهر من نار على علم وليس في الخاصة والعامة من يجهله . فلذا نطامن

امامه فقال له : اتذعن الآن لقولي ان اشرت عليك بالانصراف والفرار من هذا البيت . . . وما عليك في ذلك غضاضة . . . فلا تحاول ان تقف على جلية الامر وكنهه . . . فغدًا او في يوم آخر تحيط علمًا بكل شيء . . . اما اليوم فيجب انقاذك ايس الأ

ـ ولكن لؤلؤة . . . لؤلؤة . . . فانا منتظرها وكأني بها آتية ! . . .

ـ لاخوف عليها ولا خطر . . . فضلاً اني انذرها واحذرها شاني معك

فلبث اندراوس واقفًا واجمًا مرتبكًا في تيهور من الحيرة . وربما كان اذعن وراع لقول فريد فعزم على الفرار منتصحًا معولاً في شانه على الامير فريد ولكن بينما هو يعادل بين اللبث والبراح اذا بالباب يقرع قرعًا متداركًا وجلجل النداء يضرب ضربًا متتابعًا فتنهد فريد وقال : قد فاتت الفرصة فلطئ اندراوس بمغلاقي الباب فسمع من ورائه صوتًا مرتجفًا يناديه : اندراوس اندراوس . . . فمال نحو فريد وقال له : هذه لؤلؤة . وانت تقول فاتت الفرصة فلا باس وليفعل الله ما يشاء . . . فاسألك ان تنصرف عاجلاً اذ لا احب ان تخجل لؤلؤة وتنفعل عند مشاهدتك هنا لانها تابى ان يطلع احد على ما بيني وبينها من السر المكتوم

ـ ائذن لي في البقاء هنا فالتمس مكانًا في زوايا المنزل اتوارى فيه عن العيان واكون لك عونًا ونصيرًا عند الحاجة

ـ توفر وتحمد فغاية سؤلي منك ان تتعجل الخروج والانصراف

ـ لقد عرفت شدة حرصك على كتمان السر واني لاوافقك على مرادك ولكن لا اقلّ من ان تاخذ ياصاح هذه الغدارة السداسية حتى اذا فاجأك العدو المقبل عما قليل تدافع بها عن نفسك . . . آه . . . دافع عن نفسك رابط الجاش لا يغلب عليك الخوف . . . فانت مزمع ان تبلى برجل ولكن ليس كالرجال يغار على عرضه ويطالب بشرفه . . . وانما ستمتحن بانسان شرير ولص شرس الخلق يريد اهلاكك تسهيلاً لادراك ثروتك

ـ ثروتي انا . . . يسوءني ايها الامير انك على غير هدى من امري . . .

ـ لست الآن تعلم المغزى ولكنك في الغد تعلم كل شيء . . .

وقد تجدد دق الباب دراكًا وهاتف لاهف واجف يقول : اندراوس اندراوس ها انذا في انتظارك هلمّ . . . هلمّ افتح لي . . . فانصرف فريد من الغرفة وفتح اندراوس الباب فدخلت لؤلؤة وهي قلقة وجلة كثيرًا وكان اندراوس قد اخفى في جيبه الغدارة

السداسية التي اخذها من فريد وتجلد جهده حتى لا يظهر عليه اضطراب الجاش فبش بلؤلؤة وهش لها باسمًا فقالت له : سمعتك تتكلم فمن المخاطب والمحدث عندك ... تظاهر بانكار ذلك وقال : ليس احد ... لؤلؤة ... الك واهمة ... ولكن ما بالك صفراء مرتعدة ... اراك قلقة خائفة فما دهاك ... وماذا جرى ...

— اندراوس اندراوس ... فلنتعجل الهرب والفرار من هنا ... فان زوجي علم بدخلة امرنا واطلع على كنهه ... وها هو يتبعني و يتعقبني ... ما أكثر ما فرطنا واهملنا الاحتياط والاحتراز ... لا اعلم ... ولكني فيما انا جائية الى هنا منذ قليل ابصرت عربته جارية على اثري وقد رأيتها ثلاث مرات تقتص اثر عربتي كأنها تطلب المكان الذي اطلبه وكثيرًا ما عنيت ان اوهم سائقها اني ضاربة غير مضرب وسرت صوب الحرش وعطفت في طريق الباشورة وكنت امرت سائق عربتي ان يروغ في المسير فيذهب مرةً يمينًا ومرةً شمالاً حتى لا تعرف ولا تدرى الوجهة التي اريدها وما زلت الى ان توارت عني تلك العربة ولست اعلم هل افلحت ونجوت من الدرك ام لا ... بيد أني قانطة من الفرج علمًا بدهاء زوجي ومكره ... فالبدار في الفرار ياصديقي البدار ... والاّ صرنا عرضة للهلاك والبوار ...

فزاد اضطراب اندراوس وقال : ليكن ما تريدين اذ اني اكره ان اعرضك عبثًا لمحذور مواجهتك زوجك في هذه الحال ... فلنطلق الى حيث تشائين وتنوين نزولاً ... فاذهبي انتِ اولاً ... واقبلا كلاهما نحو الباب ... فطرق مسامعهما صوت اقدام على الدرج كأن رجلاً صاعدًا على مهل فوقفا مبهوتين وقد سقطت يد اندراوس بعد ارتفاعها لفتح الباب وجعلا يفكران في القادم موجسين خيفة منه ... وما لبثا ان سمعا رجلاً يترنم باغنية زفافية فقال اندراوس : خفضي عليك وسكني روعك يالؤلؤة فليس هذا الروسه . اما هي فلما سمعت الترنيم ارتعدت فريصتها وجلاً وتخاذلت رجلاها حتى لم تكد تقوى على القيام وقالت : بل هو هو نفسه لا شك قد هلكنا ... وخطت نحو الباب ولعثمت به واذا بالمفتاح قد أُدخل في القفل فقلقل والرجل ما زال يترنم ...

فقالت لؤلؤة وروحها توشك ان تزهق لم يبقَ عندي شك انه هو نفسه ... ها هوذا اجاز المفتاح في الغلق ... اعوذ برب الفلق ... أنّا هالكان لامحالة ... وانثنت به راجعين الى القاعة وجعلت وجهها بين يديها وقعدت على المتكإ . اما اندراوس فتجلد وثبت قائمًا ليذود عنها و يدافع بنفسه ووطن نفسه على توقع البلاء وانفتح الباب

ودخل رجل متباطىء في خطوه لا تلوح عليه علامات القلق والاضطراب كمن هو آمن واثق بادراك بغيته من الانتقام العاجل واقبل يمشي في صحن الدار بادي الهوادة والوقار ودخل الغرفة فاذا به الروسه اعزل في الظاهر «لا سلاح معه» وشفنها بطرفه كالمحتقر المتكاره واذ رأته لولوة قامت منتصبة على قدميها مظهرة قلة المبالاة به . اما هو فاوهم انهُ مفكر في امر ما وما كان الّا انه حدج اندراوس ببصره ينظر اليه شزرًا وقال له متهجما متهكمًا : أتعلم من انا ياخواجه ؟ . . .

ــ نعم اعلم واني مستعد لكل ما تروم مني

ــ أتحسبني اسومك المبارزة . . . معاذ الله . . . انت تعرف حق المعرفة ان هذه المرأة هي زوجتي وكونك معها في مقصورتها على حال خفية منكرة يحملني على قتلكما جميعًا وحكم الشرع والقانون لا يحرمني من المعذرة في ذلك فلا اخاف شدة العقوبة والمجازاة

ــ لك ياخواجه ان تقتلني دونها . . . اقسم لك قسمًا برورًا انها براء . . . اني لا اجد في حياتي وبقائي كبير امر فان رأيت في تلفي رضاك وشفاء لغلّة انتقامك فافعل غير متردد . . . اقتلني . . . فلست ادافع ولا امانع

اما الروسة فتذمم من اراقة الدم بيده لا كرهًا لرؤية الدم المهراق ولكن خوفًا من غشيان الشرطة ورجال الدرك منزله وتداخلهم في الامر وان كان آمنًا عقبى الفتك برجل وجده خاليًا بامرأته في مقصورتها ولانه كان يتحامى مشاهدة الشرطة لما عرف به من سوء السيرة ورداءة المسلك وقبح الطريقة فاختار التربص بذلك الشاب شر الغيلة فقال له : الا ترى ان لا سلاح لديَّ ؟

فاجابه اندراوس لا يكن هذا المانع . والقى اليه الغدارة السداسية التي غادرها فريد . ففكر الروسه وقال في نفسه : ارى الاولى ان الغ وطري وبغيتي باحسن من هذه الواسطة . . . فلي حيلة مثلها محققة النجاح . . . وهي اقل خطرًا . وانفتل الى الباب واقفله وعاد قائلاً لاندراوس : لنتكلم قليلاً . . . اما لولوة فكانت تحرق اسنانها من شدة الغيظ والغمّ وبلغ من خوفها انها عدمت القدرة على التكلم بالكلية وقد زادها السكون الظاهر من زوجها خوفًا ورعبًا مما لم يكن ينالها مثلهُ لو راتهُ غاضبًا ساخطًا اذ كانت تتوقع منهُ شرًّا لا تدرك مبلغهُ ولا تدري موقعهُ علمًا بانهُ يفكر في ما يقدم عليهِ من الجناية الشيطانية وكانت كمن يخاف خطبًا جسيمًا تتقد بعينها غير عامدة الى الغدارة التي القاها اندراوس على الكرسي ولم يلتفت اليها الروسة وانما شدة وجلها وضعفها قد جعلتها

خرساء لا تنبس ببنت شفة ولو تمكنت من القبض على الغدارة ما اشفقت من سطوة زوجها ومكره وبقي الروسة لا يعبأ بشيء من ذلك واقبل على اندراوس وقال : لست اريد تأنيبك وتقريعك لان الذي وقع لا يمكن الاعتياض عنه بشيء فانك ولجت غرفة زوجتي وخلوت بها ومع ذلك فلست اواخذك بعملك ... بل اني صانع اليك خدمة وهي اخبارك ومكاشفتك بشان هذه المرأة وفي ضمن هذه المكاشفة تفصيل امور مهمة اراك تجهلها بلا ريب

فنظر اندراوس الى لوْلوْة فامتقع لونها واخذتها الرعدة ومالت مستندة على كرسي كان بجانبها كيلا تسقط على الارض وجحظت عيناها وتبين في وجهها القلق والخوف الشديد مما يلوّح به زوجها ويهمُّ ان يكشفه

اما الروسة فاستتم كلامه بان قال : لا شك انه يسرك ياخواجه ان تسمع القصة فهي ان هذه المرأة التي تودها وتحترمها ... لا بد ان تكون قد تسترت بما يشنع لها ... ولم تتخذك مستودعًا لاسرارها ... وعليك في هذا غضاضة لا مندوحة عن غسلها وما احراك ان تعلم من هذه ... وها انذا اعرفها اليك ...

وكان اندراوس يتأثر بهذا المحلى وحرج صدره وشعر ان سيبلى بشر وينزل به مكروه وبقي ينظر مرةً الى الروسة واخرى الى لوْلوْة ... وتبين في المرأة شدة ابتئاسها وانفعالها ... ودفعها الى تحريك لسانها احساسها بدنوّ المحذور مما تتقيه ولا اتقاءها الموت وهو ان هذا الشاب الذي جل في عينها وهو اعلى بها عينًا سيعلم بما كانت عليه من المساوئ والمآثم ... وما لبست من العار ... واتت من الجرائم ... فثارت فيها هذه الهواجس والوساوس وجددت قوتها ... فاندفعت تقول للروسة مُجلجلة : اشفق ... ارفق ... فتظاهر بعدم السمع فدنت منه وجثت على ركبتيها بين يديه قائلة : اقتلني اخنقني ... اذقني من العذاب ضروبًا والوانًا ... واكفني كشف الغطاء لهذا الفتى فان المكاشفة بالمجهول امر مهول ... عزمت عليك لما قلت له شيئًا ... فاحب اليّ ان تقتلني ... من ان تقدم على اهلاكه ... بما عساك ان تقول ...

وما كان من الروسة الاّ ان ضربها برجله فقلبها الى حذاء الكرسي الذي عليه الغدارة فلبثت مطرحها منسدحة لاحراك فيها وقد جمدت عيناها كأنها أُخذت في هاجس مفاجئ . ومر الروسة في كلامه بكثير من الغلظة والخشونة فقال : اعلم ياهذا انك انت ثالث اثنين قد تلعبت بهم هذه المرأة فانها احبت زوجها الاول ثم تعرفت

انا بها واستملتها ٠ . . فاتت وما تشاحت امتناعًا مع كون بعلها حيًا بحاشنا عن مورد رغائبنا . . . وبلغ من طيشها وتهالكها في الوجد انها حاولت ازالة كل مانع بيني وبينها وما زالت طائشة اللب الى ان لاح لي منها أرب

وكانت لؤلؤة مصغية الى حديثه ونفسها تكاد تطير شعاعًا ثم قامت من مطرحها ودنت من الروسه وقالت : انت ولا شك هالك قبل اتمام مقالك وصوبت الغدارة السداسية نحو راسه واهوت بحديدها عليه فاعجلها بان استلقى الى الارض وكانت قد نصبت اداة الغدارة قابضة على الدافع . . . ولو مرت دقيقة واحدة لقضي على ذلك الشقي ولكن اندراوس ابتدر المرأة وضرب على يدها ونزع منها الغدارة . . . مغالبًا اياها جهده غير مبالٍ بشدة ممانعتها ومكابرتها وحركاتها المضارعة حركات المجانين . وكان « ابي اندراوس» قد احس ان الروسة سيكاشفه بمعلومات هائلة جسيمة استدلالاً بقلق زوجته وفرقها وفرط اشفاقها وخوفها من كشف الغطاء عن المجهولات والمكتومات فاستطير فؤاده ووقع في روعه ان وراء مطالعات الروسة ذكر الجرائم التي اوجبت العار على فاعليها وما كان اندراوس لتطاوعه نفسه الابية على اكرام امرأة هذه صفاتها مع كونه لا يجد من السهل المبين ان يراها على مثل هذه الحال فقلق واشتد اضطرابه عند سماع كلام الروسة ولم يبقَ له صبر عن اكتناه الامر بيدَ أنه خاف عقبى معرفة ذلك خصوصًا حين رأى ما رأى من امتعاض لؤلؤة وجزعها وقد ضاق ذرعًا بهذه الكوارث والمحن لنحافة جسمه وسرعة انفعاله فصدق ظن الروسة فيه لما تبين من شدة وداد هذا الشاب لزوجته فخفق قلب الشاب واضطجع اعياء على متكا طالما تبوأه اويقات الصفو والهناء واشتبكت يداه احداهما بالاخرى وانضمتا الى صدره علامةً على شدة غمه وكدره وفرط حزنه وجواه وانقبض صدره واحمرت وجنتاه وانطبقت عيناه وظهر شيء من الدم في فمه فمسحه بالمنديل ٠ اما لؤلؤة فكانت حاضرة كالغائبة ترنو اليه بتحسر ولا تجسر ان تخطو نحوه خطوة واحدة واظهر الروسة قلة اكتراث لذلك ووضع قدمه على الغدارة الساقطة على الارض فقالت له لؤلؤة بهوادة يا خواجا : ألم ترَ انك قاتل هذا الفتى ان زدته كلمة واحدة من جنس هذه الكلمات . . . فحرك شفتيه ازدراء وقال : لقد كنت اتوقع ذلك . . . ففهمت لؤلؤة مغزى تلك الاشارة والعبارة وايقنت بالهلاك وان حب هذا الشاب المنعش قلبها لا يلبث ان يزول بل ينقلب الى بغض على اسف منه وحسرة وربما اورده ذلك مورد المنية . . .

ولم يكن لها فرجة لحل العقال فاسلمت نفسها لليأس والقنوط وغطت وجهها

بيديها مغمضة مقلتيها سادّة اذنيها كيلا تبصر وتسمع ما يقال ويصنع وكفكفت عبراتها وكظمت زفراتها

ثم ظهر ان اندراوس قد سكن جاشهُ وثاب اليهِ روعه فانتصب تجاه الروسة وقال لهُ : ياخواجه من حقك ان تقول لي مهما شئت وانا مصغٍ اليك راغب في الاطلاع على كل خفي مجهول ... فاجابهُ لست اشك ان هذه القصة تحملك على الرغبة في سماعها فاكمل سردها ... واقول : لما كان بعلها الاول زاجرًا لها دبرتْ على هلاكه والتخلص منهُ ... وعليهِ فياخواجا ان التي قد تمكنت من امتلاك فؤادك وبلبلت بالك واستحوذت على جميع جوارحك وربما كانت لك اول شاغل ... هي هذه المرأة التي نراها حاضرة لا تجسرؤ ان ترفع راسًا او تفتح عينًا لعظم ذنبها وجسامة جريرتها فهل لك ان تحزر من هذه المرأة وما فعلت ؟

فاجابه اندراوس بصوت الآسف الحزين ويداه على قلبه من شدة الخفقان وفرط الكرب وقال : لا اريد ان احزر شيئًا ... واود ان اعلم كل شيء ... ان ذلك ... مجهول ...

فقال لهُ الروسة بشدة وغلظة انها ... مجرمة اثيم ولو سلمت الى الحكومة لسيقت الى المعلّق (المشنقة) او الحبس المؤبد ... وسلها هل تكذبني ؟ ...

فتنهد اندراوس وقال : الهي ... الهي ...

فاتم الروسة كلامه بان قال : اعلم ايها الشاب ان هذه المرأة قد سعت في هلاك بعلها الاول

وكان الروسة عابسًا عند القائه هذه الكلمة التي وقعت في قلب اندراوس وقوع السهم اوكأنها حربة شقت صدره ... فاقبل اندراوس على لؤلؤة شارد العقل ورفع يديها بعنف عن وجهها واطال النظر اليها ثم ناداها بصوت بتهدج ولسان يتلجلج لؤلؤة ... اليس هذا الرجل افاكًا في قوله عليك ؟ ... قولي لهُ كذبت ... اما هي فلم تستطع ان تجيب بشيء لان ظواهر الحال تؤيد كلام الروسة وتؤذن بانها آثمة مجرمة ولو كانت قد بكت واسفت كثيرًا على ما فرط منها من الذنب العظيم . واذ ثبت عند اندراوس اجترامها شهق وضحك كالمجنون وارتجف وسقط على الارض مغمىّ عليه وفاض الدم من فمه وسال على فكه الاسفل حتى تضرج عنقه الابيض الناصع اللامع كجيد الفتاة

وعلى هذا المنوال انتهت مكيدة الروسة الهائلة بقتل ذلك الشاب دون اعمال آلة جارحة لان الروسة كان يدري شدة ضعفه وعظم انفعاله وحسن خلاله وما هو عليه من

الحب والاعزاز للؤلؤة فلم يشك ان كلمة واحدة سيئة تقذف بها تكون كافية لموت فتى مثله ابيّ النفس ضعيف البنية فعمد الى قتله واهلاكه بهذا التدبير الشيطاني فكان ابلغ فيه من فعل الغدّارة السداسية التي كادت لؤلؤة ان تطلقها على الروسة فتكاً به وبطشاً ... ولو اقدم الروسة على طعن الشاب بالخنجر في صدره لما كان تاثيره اشد من وقع هذا الكلام . ولما ان اتمّ الروسة مقاصده الخبيثة رجع ادراجه على رسله ولم يظهر في وجهه اقل تغيرٍ او امتقاع

٨

اما ما كان من امر فريد وما صار اليه في ذلك الوقت فانه قبل تلك الحادثة بساعة انطلق الى منزل الروسة في محلة الرميلة وعرف عزمه على اهلاك اندراوس ولكنه لم يدرِ وجه التدبير وسر المكيدة واخبره الروسة بما كان من اجتماع الفتى بامرأته في منزله براس بيروت وكان لا يأوي اليه الا في الندرة لتشاغله بالمهام في المنزل الآخر فظن فريد ان الروسة يتذرع الى قتل الشاب بذريعة الدفاع عن عرضه تخلصاً من العقوبة والقصاص فتوقع الشر بينهما فتعجل انذار اندراوس وغادر الغدارة السداسية بين يديه لاجل الدفاع عن نفسه وما خطر بباله ما اضمره الروسة من الحيلة الشيطانية التي احتالها . وكان انهُ لما جاءت لؤلؤة قد اطمأن قلب فريد بعض الشيء لتاهب اندراوس وتحذره من مفاجئة قرنه فخرج — اي فريد — من المنزل وتوارى في حانوت هناك وقعد يرقب مجيء الروسة حتى ابصره جائياً على عربة وخرج منها وصعد في السلم فقام من مخبإهِ الى حيث يمكنهُ الاستماع باصغاء تام لما توقع من عقبى الامر فمرت عدة دقائق ولم يسمع صوت اطلاق النار فجعل يفكر في ما لعلة وقع وبينما هو كذلك اشتد بهِ الكره والمقت للروسة لان فريداً كان قد تيمّه العشق وتبلهُ الهيام بغادة البقاع ووجد نفسهُ مجرماً مسبباً اليها وان الباعث لهُ على ذلك هو الروسة زميله الشرير فعزم ان يعوضها عما مضى مصلحاً ما افسد رجاء ان ذلك يزلفه الى مرضاة غادة البقاع ... او يكون وسيلة للانتقام ممن دفعهُ الى الانبعاث في المعاصي والمآثم وبالجملة فانه صار الدّ عدوٍ لشريكه الروسة وصرف عنايته لاحباط مساعيه . ثم احس برجل نازل على الدرج فلطأ بمكانه ونظر من خلال حاجزٍ هناك فابصر الروسة رابط الجاش لم يظهر عليه علامة قلق او اضطراب كأنهُ عائد من زيارة عاديّة حتى اذا انتهى الى موقف العربة ركبها وسار عليها فتريث فريد ليرى اندراوس ولؤلؤة خارجين

من المنزل فلم يخرجا فرابه امرها وتوجه الى الباب قصد الدخول والبحث عما كان فاذا بعجلة واقفة على مقربة منهُ وفيها رجل ينظر اليهِ بتحديق فدهش وارعدت فرائصه لان الرجل المحدّق هو عزيز فلزم موقفه محاذرًا مشفقًا لانهُ لو دخل المنزل وكان فيهِ خطب لخيف عليه سوء المنقلب والمصير لتعرضه للتهمة فبدا لهُ في الامر فتعجل الذهاب منصرفًا عن ذلك الشارع مغادرًا البحث عما نابه الشاب اندراوس بعد ان بذل اقصى الجهد في قصد ذلك المنزل لانقاذه ورأى ان لم يبقَ من حاجة الى الاستقصاء اعتقاد ان اندراوس اما انه هلك بسطوة عدوهِ عليه واما انهُ طلب النجاة هربًا ففاز وعلى كلا التقديرين لم يكن ابطاؤه لمزيد البحث نافعًا . ثم صادف العربة التي كان قد اكتراها تنتظره على بعد غلوة فركبها وكرَّ بها راجعًا وسأل السائق ان يسرع جهده مواعدًا اياه بصلة اخرى يبذلها لهُ

واما اندراوس فلبث ملقىً على الارض عادم الحس وبقيت لؤلؤة مشرَّدة العقل كاسفة البال متضعضعة لا يقر لها قرار واستمرت في حال الذهول والخمول برهة وكان في تلك الغرفة سكون مخيف —وانما هو سكون هول المطلع— لا يقاطع هذا السكون تنفس . ثم افاقت لؤلؤة من دهشتها وظهرت في وجهها امارات الغم والجنون واحمرت عيناها واقبلت زحفًا على الركبتين اعياء نحو الفتى الملقى على الارض وجعلت ترفق في تنبيهه وتنعشه رويدًا رويدًا فعل الام بالولد وما زالت حتى اجلسته على التكأة وقد تصدعت كبدها من شدة الغم والجوى وحرج صدرها واطالت النظر اليه وهو في هذه الحال المشفية على الهلاك من اجلها فقالت في نفسها : ما كان احراني ان اعاني هذه الشدائد والبلايا كفارة عن آثامي وجزاء ذنوبي اما هذا الشاب فهو بريء لم يأتِ جرمًا ولم يرتكب اثمًا . ايها الرب العادل الرؤوف انظر من عرش سمائك لهذه الذليلة الضارعة اليك المستجيرة بك طلبًا للرحمة والمغفرة ولتحلَّ نقمتك على من كفر نعمتك ولكن هذا الفتى الزكي لا ذنب لهُ فاجعلني فداءه واني تائبة اليك عن سيئاتي السالفة وانت التوّاب الرحيم . ثم نظرت فارعدت وارتاعت من رؤية جثة الذي بجانبها لا خوفًا من الموتى على انها فكرت في ما بينها وبينه من التفاوت في الفضيلة وحسبت ان في وضعها الجثة هذا الموضع احتقارًا لها واهانة فنادت بصوت آسف حزين اندراوس . . . يا اخي العزيز . . . الصفح الصفح عما سفقت اليك من الاساءة وانزلت بك من ضروب الاذى عد الى نفسك واستثب روعك تامل شدة اسفي ولهفي وكفى عذابي واضطرابي ! . . .

اما اندراوس فما كان ليبظر او يسمع وهو كالميت عادم الحركة ويداه في بياض الثلج ولين الحرير فاقبلت عليه مدية النظر اليه ... فلم تشعر منه بتنفس ولا حشرجة ... وانما كان كأنه ميت لا رمق فيه

ولما ايقنت ان بين يديها جسدًا بلا روح ارتعدت مفاصلها وارتعشت اناملها وقالت ان ذلك غير بعيد الوقوع ... ليس بمحتمل ... وجمعت كل قواها ثم نادته ثانيةً : اندراوس اندراوس ! وما من مجيب فقالت : يا اخي ما بالك لا تلبي ندامي فتكلمني وتفتح عينيك فتراني الا تعرفني ؟ ... اندراوس لا تصدق لا تصدق كلام ذاك الانسان ... فانه آثم مني ... آه يا اندراوس ماذا عليَّ ان اقول لا رد اليك الحيوة ؟ واخذت تحرك يديه وتهزهزه لتجدد فيه قوة الحياة ولكن كل ذلك ذهب سدًى ولم يزل اندراوس جثةً لاحراك لها فتباعدت عنهُ وقد تولاها الخوف الشديد وبردت اوصالها وكللها العرق البارد لمشاهدتها مصرع من مات حرصًا على حرمتها وغضبًا لشرفها فكان كشف مساوئها السابقة كطعنة قاضية عليهِ وكانت توهمت باديً بدء انهُ مغميٌّ عليهِ ... فهل هو الآن ميت ؟ نادت : اندراوس اندراوس اسمع خاطبني وليِّ ! اما هذا الفم الاصفر الذي كان يساقط الكلام كالدرر كالشهد يحلي مرارة قلبي ؟ ما لهاتين الشفتين مصفرتين صامتتين وكأني بذلك اللسان قد خرس خرسًا لا يعقبهُ كلام ! ...

فضاقت بلؤلؤة الحيل وخاب الامل فطفقت تتمشى في الغرفة موسعة الخطى كالمعتوهة وشهقت شهقة عظيمة على ان دمعها قد انقطع وتظلمت على غير هدى ورشاد وقالت وصوتها يتهدج : الهي انت عادل ورب الرحمة والحنو ... لقد اصاب سهم النقمة هذا الفتى البريء وانما انا المجرمة الشريرة ... فهو لم يجترم جرمًا قط ... فلا تدعه يموت يا الهي ... فان لي كل الاعتماد عليك وعلى قدرتك وعدلك وقد اتيت اثمًا عظيمًا ... ولم ينلني عدل البشر بالعقوبة ... فاسألك ان لا تقتص مني بهذا الشاب ... الهي اني اعزه جدًّا ... فلقد احببته حبًّا صالحًا — حبًّا لا يسخطك ... لانه مبني على العفاف ليس فيهِ شيءٌ من الريبة والمنكر — فلا تجعل موته جزاء اساءاتي بل كن لأمتك ابًا رحومًا ... مره فيحيا ... أفما يكفيني جزاء ما الاقي من الغضاضة والاحتقار عنده مدة حياته وما يشعر بهِ من التمّ لما ظهر من مساوئي ... اما فقده فلا اسطيع عليه صبرًا . ثم تراجع اليها وعيها وسكنت زفراتها وهدأت شهقاتها وانهلت مدامعها السخينة وعاودت نداء اندراوس فاذا بهِ لم يزل غير مجيب ودنت منه وخاطبت

نفسها قائلة : لعله باقٍ حيًّا لم يمت وما اشأم هذه الغرفة اني لا اجد فيها قطرة ماء انضحها على جبينه عساه يفيق فلو علمت ان دمي يحييه ما بخلت عليه به كله

وما كان ذلك منها تحذلقًا ولا تفيهقًا فانها كانت تود لو تبذل حياتها لينظرها نظرة ولو بعينٍ باذئة . وبلغ من شدة لهفها وابتئاسها انها صارت تعض اصابعها واصابها مس فافقدها الحس ثم ثاب اليها روعها فقالت : هلاَّ ادعو له طبيبًا لعله يعالجه فيفيق ... ولكن لا بد من استدعاء الطبيب عفو الساعة بلا ابطاء ... انىَّ اجد الآسي ؟ ... وما اقول له ؟ ... ما الراي ما العمل ؟ ... ان ذا لامر جلل ! ...

وما هي الاَّ أن وقفت بغتةً وحدقت الى اندراوس لانه تحرك بعض الشيء وتنهد تنهدًا عميقًا كاد ان لا يسمع فقالت في نفسها : انه لم يزل حيًّا ... جيرِ ما زال حيًّا ! وحماك ياربِ ! ...

وما لبثت ان خرجت من الغرفة وانطلقت مسرعة نحو السلّم في طلب الطبيب فاذا برجل صاعد على الدرج حتى اذا انتهى وقف امامها ... وكان الرجل عزيزًا . فقالت له : ايها الرجل انىَّ لك تستوقفني ؟ ... فاجابها ـ وصوته اجش ـ اسالكِ ان تخبريني عن رجلين جاءا هنا منذ برهة ... احدهما الامير فريد ...

— اني لا اعرفه واجهل ما تقول

— والآخر يدعى الروسة ... وانتِ زوجته

— هذا صحيح

— هذان رجلان لا يجتمعان الاّ لاتيان جريمة ... فاريد ان اعرف الجرم الذي فعلاه هنا ... اني اراكِ تحاولين الذهاب ... ارجعي معي واخبريني

وقبض على عضديها ودفعها الى داخل المنزل فتفلتت من بين يديه مرتاعة مذعورة وهي تفوه بكلمات متقطعة وكررت ما ياتي من العبارات

دعني ـ دعني ... يجب ان ادعو الطبيب ـ الآن تلزم دعوته ... انه يموت ... اين الطبيب ... وكانت ترجع القهقرى مكرهة حتى بلغ بها عزيز الى الغرفة وهي شاردة العقل لم تفكر ان تسأل عن هذا الرجل الاجنبي وشانه ومراده بما يفعل وعما ادراه بما كان وانما كانت تقول : الطبيب ... الطبيب ...

اما عزيز فرأى اندراوس على تلك الحال فحقق ضرورة استدعاء الطبيب لانه وجده في خطر مبين فاشار اليه وقال للؤلؤة : انها لجناية حدثت هنا

فاجابت ونار الغيظ تنقدح من حدقتيها ووجهها كامد وقلبها واجف لتصورها

جسامة الجريمة فقالت : اجلْ انها لجناية اعظم من كل جريمة سواها اذ وقعت بدون خنجر قاطع ولا سم ناقع

— ومن القاتل ؟ أليس الذي اشرتُ اليه ؟

— آوّاه ثم آوّاه سواء كنت لي صديقًا او عدوًّا فها انذا اقول لك ان القاتل ذكرته وسميته منذ هنيهة ! . . . وهو زوجي بعينه ولكن اسالك ياسيدي ان تشفق وترفق فلا تسالني مزيد بيان وانما ينبغي ان نوجه عنايتنا الآن الى هذا الفتى ثم تعلم كل شيء . فلا بد من طلب الطبيب فانا منطلقة لاستدعائه

— انطلقي مسرعة في طلبه وانا البث هنا قائمًا على العناية في هذا الشاب المسكين ريثما ترجعين ومعك الطبيب

— شكرًا لك على هذا المعروف ياسيدي واسال الله ان يجزيك خيرًا . واسرعت في المضي وكان عزيز قد دنا من اندراوس ورفعه الى المقعد وفك ازرار ردائه وقميصه وجعل اذنه على منبض قلبه فشعر منه بخفقان ضعيف لا يكاد يسمع فالتمس ماء باردًا من عند احد الجيران وبلّ منديله ووضعه على راسه ومسح بالماء البارد ايضًا جبينه ووجهه وفاه وعنقه ويده ولم يكن في البيت خادم يعاونه لان صاحبة المنزل لؤلؤة كانت اذنت لخادمتها بالانصراف صباح ذلك اليوم ليخلو لها الجو

ثم تنفس اندراوس ولم تزل عيناه مطبقتين لان الاغماء لما يفارقه وانما كان يلوح ان قد التأم صدع فؤاده الحادث عما القاه الروسة عليه بدليل انقطاع خروج الدم من الفم . ومضى على غيبة لؤلؤة ربع ساعة ولم تحضر الطبيب والفرصة مع ذلك لم تنت لتدارك المصاب بالعلاج . وهي اول ما كان منها انها قصدت اقرب الاطباء في المدينة وطرقت باب بيته وكان الوقت نحو الساعة الثانية من الليل فاشفقت من ان لا تجده واذ جاء الخادم وفتح الباب سالته الطبيب هنا ؟ وصوتها يضطرب فاخبرها انه في المنزل فسكن جاشها واستأذنت في الدخول فادخلها الخادم الى القاعة وقال لها ينبغي ان تنتظري سيدي الدكتور قليلاً لانه جاء الآن تعبًا لكثرة ما قضى اليوم من الزيارات الطبية فلا بد له من اخذ قسطه من الراحة وهو جالس على المائدة فيحسن ان تنتظريه هنيهة

ففكرت ان في الانتظار ابطاء تفوت به فرصة تلافي اندراوس الدنف بالعلاج الواقي من الموت التام فالتفتت الى الخادم وقالت : ابلغ مولاك ـ آه ـ ابلغه ان الحال تقتضي الاستعجال ... وان حيوة الشاب موقوفة على سرعة حضوره وها قد مرّ وقت طويل مذ فارقته ولم اتمكن قبل هذه الساعة من الوصول الى هنا

فاشار الخادم الى قلة الامل باذعان سيده واجابته قبل الفراغ من تناول الطعام ومع ذلك عاد اليه وخبره خبرها وما لبث ان اتاها قائلاً : سيدي يسألك المعذرة في انتظاره وهو آسف لما ابلغته من نبإ المصاب على انهُ لا يبطئ عليك في الحضور ...

فكمد وجه لؤلوة واطرقت غمًا وناجتها نفسها ان تخرج في التماس طبيب آخر ولكن ذلك يقتضي وقتًا مع احتمال ان تجد او لا تجد طبيبًا مساعفًا في تلبية الدعوة سريعًا فلبثت وحدها سادرة حائرة ومرَّت عليها دقائق ظنتها اياماً بل اعواماً وكانت غرفة المائدة بجانب القاعة وكان الطبيب يأكل وحده اذ لا اهل لهُ واصوات صحاف الالوان والملعقة والشوكة والسكين وقع اشد من وقع السهم في قلب لؤلوة ومما زادها تألمًا ان النطاسي كان يكثر على عادته التأني في تناول الطعام غير مبالٍ بما دعي اليه من دفع خطر ملمٍ عن دنفٍ من بني الانسان وكانت لؤلوة تتذمر قائلة في نفسها : متى ينتهي هذا العشاء ؟ اولم يخطر ببال هذا الطبيب اني اتقلب على مثل نار الغضى من طول الانتظار ؟ اما هو فلم يبالِ بكل ما كان وبقي يأكل بتأنٍ وتأنى الى ان قبض الله فراغه من تناول الطعام فلم تصبر لؤلوة على ذلك فدخلت عليه واذ شاهدها دهش وعالى عن الكرسي وقعد ولم يرد عليها التحية بل قال لها بتعجب : ايتها السيدة ماذا تريدين ؟

— ياسيدي آه انه يموت ... انهُ يموت

اما هو فلم يجبها بشيء ولكنه هزَّ منكبيه المقبلين على صدره كبرًا ايذانًا بقلة الاكتراث لمثل هذه الدعوة المفاجئة المحزنة التي الفها وصارت لا تحيك فيه وهكذا لبث يأكل واشار الى المرأة ان تقعد على متكإ في غرفة المائدة فجعلت تتلين وتتلطف في استعجاله في المضي الى العليل الدنف وهو يجيبها وفمه مفعم اكلاً هاأنذا فرغت ... لا البث ان اقوم عن المائدة ... بعد دقيقة ليس الاَّ

أجل ان الطبيب كاد ان يفرغ من تناول الطعام الاَّ ان لؤلوة كانت تجد تلك البرهة القصيرة عامًا بل دهرًا حتى انها حسبت الايام تعاندها والطبيب يناكدها قصدًا للتريث والتباطوء

وفي خلال ذلك اتى الخادم بالجبن ثم بالفاكهة وكان الطبيب أكولاً شروبًا فتناول كاسًا ترعف من خمر « بوردو » وجعل يترشفها متلذذًا متلمظًا

وحسبته لؤلوة قد فرغ من الاكل والشرب وكان الامر على خلاف ما ظنت اذ جاءه الخادم بكوب من قهوة البن فجعل يبرده من السخونة ويرشفه ثم تناول قدحًا صغيرًا من شراب « شارترز » ومسح شاربيه وقام عن المائدة فتقدمته لؤلوة الى الباب

وودت لو تجره بعنف فقال لها: ها أنذا منطلق معك ولبس رداءه الطويل العريض ووضع برطله على راسه والتمس عصاه حتى وجدها واخرج لفافة تبغ واشعلها وقال لها سيري بنا اين المنزل أهو بعيد ؟

— لا ياسيدي الطبيب بل هو قريب لا يجاوز مسافة خمس دقائق

— لا باس . . . لا حرج . . . احب ان امشي بعد الطعام

فسارا ولم يمرّ غير خمس دقائق حتى بلغا المنزل وانما كانت مسافة احتراق لفافة تبغ (سيكارة) وكانت لؤلؤة قد تأثرت بقلة مبالاة الطبيب وشفقته ومسارعته في مساعفتها وتلبية دعوتها ولكنه لما بلغ الغرفة وشاهد اندراوس مطروحًا فيها كالميت مسته مواس الرحمة وظهر فيه حسن الشيم وسجايا مثله طبيبًا نطاسيًا ورجلاً حرًا رفيع القدر كبير النفس يحرص على اتمام واجباته وان كان ذلك منه امرًا عاديًا عاريًا عن كل ما لا يلابس صناعة الطب . فصرف معظم اهتمامه الى امعان النظر في الدنف وساعده عزيز في الكشف عن صدر اندراوس وكتفيه فالقى الطبيب سمعه الى ضربات قلبه ثم فعل مثل ذلك في ظهره وكانت لؤلؤة تنتظر فراغه بقلب يخفق خوفًا مما عسى ان يقول الطبيب بعد ذلك . اما عزيز فانه رَق لهذا الفتى المضارع له سنًا مع عدم معرفته اياه وانما عطفه عليه ما ركب في الطبع من الميل والنزوع الى استنقاذ من كان غض الشباب رطب الاهاب

ان الخجيعة بالرياض نواضرًا لاشدُّ منها بالرياض ذوابلاً

وما حال هذا الشاب الاّ حال غادة البقاع في كونهما ذاهبين شهيدي غوائل الاشرار ! . .

وما كان عزيز ليشك ان هناك امامه احد ورثة تلك التركة العظيمة الذين يتأثرهم فريد والروسة

ألم يكن هذا الفتى صريع اليد الباطشة التي وقعت بشدة على غادة البقاع !

وهذه الهواجس كانت تمرُّ بمخيلة عزيز على حين كانت لؤلوءة شاردة العقل ذاهلة عما يقول الطبيب اما عقبى بحثه الطويل فانه نظر الى عزيز ولؤلؤة دون ان يظهر في ملامحه شيئ من دلائل استعظام البلاء وقال لهما : أأنتما من ذوي قرابة هذا الشاب ؟

قالت لؤلؤة قول الآسف اللاهف : انما نحن من ذوي مودته ليس الاّ

— اني اشير عليكما ان تخبرا اهله بحاله ان كان له اهل . . . اذ فيما يبين لي انه لا يبقى كل هذا الليل . . . وان بقي الى الغد فلا يطمع في بقائه الى غروب الشمس . . .

فكانت هذه الكلمات كنبال تخرق قلب لؤلوة فوضعت يديها على جبينها ثم مريم المجدلية الثانية وجثت على ركبتيها قائلة : يارحمان ياروؤف يامعين اصرف غضبك ان عقابك لعظيم !!

٩

وكان ما ينبغي نقل اندراوس من ذلك البيت المشؤوم الذي لاقى فيه هذه الصرعة القاتلة وقد لاحظ الطبيب حال لؤلوة ودرى ان ليس هناك ما يقتضيه التمريض والعلاج فسأل عن منزل اندراوس الدنف

فقالت لؤلوة ان منزله في ميناء الحصن

قال الطبيب اطلبي عربة تنقله بالرفق والتؤدة والهوادة الى بيته ليموت فيه بين اهليه وينبغي ان تجري به العربة جريًا بطيئًا لينًا كما قدمت لان العدو العنيف الشديد لا يؤمن معه تجدد مفاجر جراحه فيقضي نحبه ولا تدرين ايتها المرأة ويصير بين يديك جثةً لاروح فيها وانتِ تحسبينه حيًّا

وما لبث الطبيب ان عدل عما كان اشار اليه اطماعًا بتاخر أجل الرجل الدنف فاستدرك بان قال : ولكن لا رجاء في الشفاء وراء ذلك لان بقية حياته لا تتعدى بضع دقائق او بضع ساعات فسيَّان تلافيه بالعلاج وعدمه . وهكذا خرج من المنزل وقد اخذ اجرة زيارته

فاقبلت لؤلؤة على عزيز ضامة يديها احداها الى الاخرى — وقد جمدت عيناها اذ لم يبقَ فيهما عروق دمع لكثرة ما بكت وسكبت من العبرات — وقالت له : نشدتك الله ايها المولى الحرّ الشفوق اللاهف معي على هذا السيء الجد ان لا تخذلني وتهملني في هذه الحال الشديدة وان كنت لا تعرفني ولا اعرفك . . . اسالك ان تساعدني على انقاذه من الموت ان كان ذلك يستطاع . . .

— اني لا ادعكِ ايتها السيدة ! فلقد حدث هنا جناية لم اقدر على منع حدوثها فاجتهد على الاقل ان استبقي هذا الصريع الجني عليه حيًا ان اتاح الله لنا بقاءه

— اوّاه يامولاي ان الله يريد انقاذ هذا المظلوم فلا ترتابنّ في ذلك

اما عزيز فلم يظهر اليأس او الجزع من حياة اندراوس الدنف المائت فخرج مسرعًا في طلب عربة لحمله عليها وكانت العربة التي طلب قريبة من المنزل فاشار الى سائقها فادناها من الباب ورجع عزيز ورفع اندراوس ولؤلؤة تعاونه وخرجا به من ذلك البيت

المشؤوم وكان جثةً ضعيفة البنية كجثة فتاة لطيفة ووضعاه في العربة موسدًا موسطًا بينهما وقعدا متناوحين برفقان به وامر عزيز الحوذي (السائق) ان يجري الخيل على هينة سائرًا بالعربة تهويدًا ففعل ولذلك مرَّ ساعة في قطع المسافة بين راس بيروت وميناء الحصن ولما صارت العربة على مقربة من بيت اللباوي والد الفتى الدّنف تجددت العبرات في مقلتي لؤلؤة علمًا بانها مضطرة ان تفارق عما قليل قتيل هواها اذ لم تجسران ترافقه الى داخل البيت وتشاهد اباه في هذه الحال لعدم تمالكها ان تقول له شيئًا . . . وماذا ينبغي لها ان تحكي له وتحدث عن ولده ؟ . . . فكاشفت عزيزًا بامرها وما هي فيه من شدة التضايق وحرج الموقف فرقّ لها فؤاده وبلغت منهُ مظاهر قلقها واضطراب بالها ونوازل غمها وبلبالها فطفق يعزيها ويسليها ويشجعها ويقويها قائلاً : خفضي عليك وهوّني البلية ودعيني اسعى للاجتماع باهل هذا الشاب فالفق لهم حديثًا وقصة كأنْ اقول لهم صادفته في شارع كذا متالمًا متململاً اصابه غشية اصارته الى هذه الحال التي ترون . . . ولكني لا اجد بدًّا ايتها السيدة من ان اطلعهم على جلية الامر واكاشفهم بالحقيقة . . . فانت لم تنظري الاّ الى انتقام زوجك منكِ ومنه همالك . . . وما اراك على يقين من سر الحيلة والدخلة فان الخطب لا عظم مما تظنين فهناك جرية جسيمة واثم فظيع ! . . .

—أفي الحادث جرم ؟ . . . آه ! ويلٌ لذلك الشقي الشرير الذي جملني مهانة ذليلة باقدامه على اقتراف جميع المعاصي والسيئات . . . اني اصدق ما قلت . . . فويحي ثم ويحي ! . . . وتبًّا له وتعسا ! . . . وجعلت تنظر الى عزيز كالمستخبرة عن كيفية الجريمة وسببها وهمّ عزيز ان يخبرها بكل ما درى من احوال التركة الدائب في ادراكها الروسه وفريد وان الفتى اندراوس من الورثة على انه توقف في الاخبار لان هناك سرًّا ليس من اسراره الخاصة فضلاً انهُ كان يخاف بعض المحذورات ويشفق من عواقب الامر ولبث بين شكٍ في صدق دعوى المرأة شدة الحزن واحترازٍ من ان تكون مخادعة مخاتله وبين احسان الظن فيها انها لم تضمر بذلك سوءا ولم تنصب له شرك شر ومكيدة وما زال في عدال من امره ممسكًا عن مزيد التصريح والبيان

اما هي فاحست بما يخالجه من الهواجس فتنهدت اختلاسًا ونكست راسها الى صدرها المفعم غمًّا فقال لها عزيز : ما بالك مطرقه فنيمَ تهجسين وما تدرين ؟

فهزّت منكبيها وقالت لست أُبالي بما انا صائرة اليه . وكانت عازمة ان تلحق باندراوس أيّان قضى ومضى لسبيله طالبة لهُ كفّارة في الآخرة

وعاودها عزيز بان قال لها بلين ولطف اسالك عفوًا ياسيدتي ان كنت كلفتك

الجواب عما لا يخصني ولا يعنيني وإنما ارجو ان تأذني لي في اعادة السؤال

— ويلاه لا اعلم اين يذهب بي ولا انىّ يقر راسي

— هذا ما دعاني للالحاح عليك في السؤال افليس من نيتك الرجوع ... الى زوجكِ

ولما سمعتْ بذكر بعلها ارتعدت مفاصلها كرهًا واشمئزازًا وقالت : لا فيئة له عليّ ولا رجعة ابدًا ! ابدًا !

— اني اراكِ شديدة المودة لهذا الفتى فما الحيلة في ايصال اخباره اليكِ

— شكرًا لك ياسيدي ! على هذه العناية فاني آتي كل يوم مراتٍ اتنسم اخباره ... اوّاه لو امكن لي ان اتولىّ خدمته بنفسي ولا افارقه طرفة عين لعلي ابلغ به الى حال النجاة ولكن انىّ لي ذلك !

— فلو ثابت اليه روحه ... وافاق ... ولو شاء ان يكلمكِ ... فاين اراكِ ؟

فكفكفت لؤلوة دموعها — وقد بلغت العربة بيت الفتى الدنف — وقالت لعزيز : اذا دخلت بيت اللياوي فانظر الى البيت المتاوح له فاني ساستأجر فيه غرفة واقيم بها لا ابرح متضرعة تائبة الى الله تعالى رجاء انه يتقبل صلوة التائبين فيعفو عن المحتضر البريء وانت تجدني هناك كلما طلبتني

و وقفت العربة لدى باب بيت اللياوي فقالت لؤلوة لعزيز بلهوجة : أداخل انت باندراوس الى بيته ثم تستدعي له طبيبًا آخر عن لسان ابيه وان كان غائبا .. . اما انا فاني لا ابعد عنك فهاانذا ابقى داخل العربة متوارية عن العيان وراء سجوفها وحجبها المستورة واني اسالك مترامية على قدميك مستحلفتك بما هو اعز شيء عليك ان تعود اليّ عند انصراف الآسي وتخبرني عما اتوقع ... او ارجو ...

فانصدع فؤاد عزيز ورقّ لها فقال : اني اعدك بذلك وعدًا اكيدًا . وقد انتفى عنه حينئذٍ كل شك وريب في صدق دعواها الحب لما راى من تذارف عبراتها الصافية التي اوشكت ان تنطق من غير لسان .. وايقن ان ما تقوله هو من وحي القلب وان كل ما في ظاهرها يدل على حسن باطنها وسلامة ضميرها وخلوص قصدها

فابتدر عزيز ان انزل الشاب من العربة واحتمله الى البيت وقد اعانه اهل الجوار الذين اخذتهم الدهشة وعراهم القلق اذ رأوا جارهم الفتى على هذه الحال فتداعوا واحتشدوا زائرين او مستخبرين . واما لؤلوة فقد غطت وجهها وتوارت داخل العربة وولج عزيز باب المنزل الاسفل وكان مفتوحًا وصعد باندراوس على الدرج تعاونه في حمله

امرأة من الجيران فقالت له لااراك تجد في هذا المنزل غير خادمة عجوز اسمها مرغريتا فان والده ميخائيل اللياوي غاب ولما يحضر. قال: سارسل في طلبه

— ومن سوء الحظ ان اخا الفتى جورج غائب عن بيروت والمسموع انه طبيب ماهر كل المهارة وهو لم يتجاوز طور الشبيبة ... ولعله لو كان هنا لشفى اخاه هذا اندراوس وبودي لو تدري ياسيدي عظم محبة هذين الشقيقين احدهما الآخر فان مات اندراوس وعاد جورج واخبر بموته لا يسلم من الجنون حزنًا عليه ... وعسى الاّ تكون بلية اندراوس جسيمة أتدري ذلك ؟ فاشار اليها اشارة السلب وثقل عليه طول حديثها وقد وصلا فناء الدار وطرق احدهما الباب فجاءت الخادمة تفتحه وكانت مرغريتا العجوز وقد مرّ على خدمتها في بيت اللياوي مدة طويلة فهي التي ربت جورج واندراوس وتحبهما محبة الام لبنيها وهما يكرمانها ويبرّانها شان الولد مع والدتهم . وكانت أنها لم تشعر بحركة العربة عند وصولها ولذا دهشت حين رأت اندراوس على تلك الحال لا يبدي حراكًا وشهقت وسقطت عليه تضمه بين يديها ذاهبة العقل ثم بسطت له فراشًا وثيرًا لينًا ووسدته اياه قائلة آه يا ولدي العزيز ما اصابك ... اواه ان سيدي والده ذهب ولم يرجع حتى الآن . ونظرت في السماء وابتهلت الى رب العرش قائلة: غوثك يارحمان ما هذه المصيبة! ...

وما زالت لؤلوة في الشارع متوقعة الخير او الشر واجفة القلب ومرّ عليها نحو ساعة ابصرت في خلالها عزيزًا منطلقًا ثم عاد يصحبه آخر فاشتد قلقها واضطرابها وبلغ من وجلها وجزعها ما اصارها الى حال من فارق الحياة فكانت تضغط بيديها على صدرها تسكينًا لضربات قلبها . ثم خرج اليها عزيز وقال: جاء الطبيب ... اوّاه!

— ماذا جرى ؟ وكانت ترتعد فرقًا وخوفًا

— اثبت ما قرره الطبيب الاول

— ألم يبقَ من امل ؟

— لقد خاب الرجاء في الشفاء فواسماه! ...

فلبثت لؤلوة بضع ثوانٍ واجمة لا تنبس ببنت شفة ثم تنهدت تنهدًا غير بيّن واخذت يد عزيز الممدودة اليها وقالت: لك الشكر ياسيدي وهاءنذا اودعك ولا انسى معروفك وحسن مؤاساتك ما حييت ... واني لست ابتعد من هنا ... فانا منطلقة الى حيث عاهدتك ... فلا تقطع عني الانباء عما يكون ... اريد ان اعلم كل شيء ... الى النهاية المشؤمة والساعة الهائلة ... ولو كان في ذلك انقضاء اجلي

— اكرر لك الوعد واجدد العهد اني لا ادع اندراوس ... او يعود ابوه اللبناوي

واشتى عزيز راجعاً الى غرفة اندراوس وجلس بجانبه متأوهاً اما الدنف فلما ببرح في يوم بحران ووجر الدواء الذي وصفه له الطبيب فما عاج به وبقي فيه رمق بدليل بقاء النبض وكان يتامله ويهز راسه ايذاناً باليأس من شفائه

فطلب عزيز من الخادمة مرغريتا قلماً وقرطاساً ودواة فجاءته بها وكتب الى غادة البقاع يخبرها بالحادثة ولما فرغ من الكتاب خرج يلتمس رسولاً يذهب به اليها فوجد من دفعه اليه واوصاه ان يبلغه غادة البقاع يداً بيد

وكان قد ارسل في استدعاء ميخائيل اللبناوي منذ ساعتين فاكثر ولما يحضر وكانت مرغريتا ممن يصدق الامثال السائرة فجعلت تتمثل في نفسها — ان المصائب يجرّ بعضها بعضاً ! —

وجاء الرسول بالكتاب فالفى غادة البقاع وحدها فدفعه اليها فعرفت من العنوان خط عزيز فارتعدت واوجست خيفةً وخامرها هاجس ... فتوقفت في فض الكتاب مشفقة مما تضمنه ان يعلمها بشرِ حادث اجدر بها ان تجهله ولكن هذا التوقف والتردد ما لبث ان زايلها وكان الكتاب طويلاً فلحظته ببصرها وفهمت ما حوى فارتعشت وسقط من يديها وجحظت عيناها واغبرّ لونها لشدة الانفعال وصاحت : الهي الهي من لي بان ينتقم من الاثم المجرم ؟

ولم يكن عزيز اخبرها في ذلك الكتاب الا عما عاينه كاتباعه فريد الى راس بيروت وترقبه من حين دخل المنزل هناك الى ان خرج منه وان الروسة جاء على اثره ودخل البيت . وان فريداً كان يتجسسه وانهما بعد ذلك قد افترقا وذهب كل منهما في سبيله ولم يدرِ احدهما بالاخر . واخبرها ايضاً بكيفية حدسه في حدوث الجرم وان وصوله المكان كان بعد فوات الفرصة وتمام الامر ومصرع فتى دون ان يبين فيه اثر جرح بالكلية وانه لما رأى لؤلوة تحقق ظنه في وقوع الجريمة ثمة ... ولكنه لم يعلم نوعها وكنهها ... وانه لم يكن لاحد ان يجلو حقيقتها سوى اندراوس وحاله معلومة او لؤلوة وقد منع من استخبارها فرط قلقها وحزنها فرأى ان يؤجل سؤالها تفصيل الحادثة وآخر ما اودع كتابه اخبار غادة البقاع بكل ما دلهُ من شؤون بيت اللبناوي عن مزيد بحث وتدقيق لانه كان قد تقصى في استخبار مرغريتا الخادمة المار ذكرها

واذ طالعت غادة البقاع كتاب عزيز اليها تحققت كلما تحققه من تصميم عزم الروسة

وفريد على قرض هذه العائلة عن آخرها وان اول من بدىء باهلاكه اندراوس اضعفها قوة وحولاً

اما وقوع الجرم فهو ما لا شك فيه . . . وما يهم غادة البقاع ان تتوصل الى معرفة كيفية ارتكابه واتمامه فلبثت لذلك برهة ذاهلة غائبة العقل يخيل اليها انها زوجة لص شرير قاتل ويدور في خلدها ان عجزها عن ممانعته لا يبرئها من ان تكون شريكة لهُ في آثامه ومساوئه وبلغ من اشتداد هذه الهواجس في نفسها انها مثلت لها مهارق الدماء ومصارع الابرياء بين يديها تصرخ طالبة الانتقام! الانتقام! فخافت وارتعدت فرائصها وحارت في امرها وعدمت صبرها على مساكنة مثل هذا الرجل المنبعث في المعاصي والفظائع فحدثت نفسها بالفرار ولكن رأت في ذلك عارًا عليها بين الناس الجاهلين حقيقة شانها المحزنة ثم هوَّنت كل ذلك وصبرت نفسها على ما سيقال فيها مكتفية بما عندها من سلامة الشرف الباطني واطمئنان الضمير وحسن القصد ولكن امرًا آخر قد منعها عن ذلك وهو معارضة البغاة الظالمين فاذا هربت فلا يكون لهم من منتقم ولا معارض في اتيان الشرور والموبقات اما فريد فانها كانت تنتقم منهُ بالاعراض عنه على علمٍ بانه اسير هواها وكفى به ذلك قهرًا وتعذيبًا ومن ورائه ضرب آخر من الانتقام وهو ان تخبر الشرطة ورجال الدرك عن افاعيل فريد والروسة اذ كانت لا تستطيع بنفسها ان تقوى على دفع شرورها وقد طالما فكرت في هذا العمل واحجمت عنه لتعذر اقامة الادلة والقرائن مصداقًا لما تقول فيهما

فها قد حدثت جريمة جديدة . . . فتى دَنِف مات . . . ولكن كيف السبيل الى تبيِّن سبب موته ؟ وكانت غادة البقاع ترتجف وتدهش عند تصورها شدة دهاء الروسة حتى صارو فريدًا من ادهى الخلق واعظمهم مكرًا فانهما ضربا آباط الامور ومغابنها وحذرا مظان الشبهات ومواطنها واذ كانت تهيم في وادي هذه الهواجس خطر لها ان بعض كلمات تساق الى رئاسة الضابطة تكفي في الدلالة على ما هنالك ولعلها تمنع مزيد الشر وقد لاح لها ما هالها من اقدام رجال الحكومة على التعقبات والتحقيقات فان قدرت ان تقيم الادلة والبينات هبط الامير فريد من درجة عزه الرفيعة الى دركة الذل والهوان فتكثر القالة في شانها . ثم عاودها ثبات الجاش فقالت في نفسها : اني ارضى بكل ذلك ولا اخاف القيل والقال وحسبي تسلية عن الكرب ما لا اعدمه من شهادة الالسن عند اعتقاد الضمائر براءة ساحتي وظلمي واخذي بالمكر والخديعة وصبري على اهوال الدفاع عن شرف الذات

وان لم يترتب على تحقيقات الشرطة اثر مهمّ فلا تخلو عن فائدة مستقبلة وهي تنبه الضابطة الى ما لعله يحدث في الغد من الامور المكرة فاذا وقع خطب استأنف الشرط تجديد البحث والتنقير وقوفاً على الحقيقة . وباتت كل ذلك الليل في ارق وقلق وعند الصباح عزمت على الامر وكتبت الى ادارة الضابطة ما يلي

« ارى ان جرائم كثيرة تقع ولا تنالها يد العدل وما زال خبرها مكتوماً فانا ممن قد أُصيب بواحدة منها وسينزل بغيري مظالم اخرى او كأني بها قد تمت فان ثلاثة رجال على خطر الهلاك وفي حين كتابة هذه الرسالة ارى احدهم دنفاً مائتاً ! وما ادري ما جرى على الآخرين وهم من بيت اللياوي في جهة مينا الحصن على شاطىء البحر فان ايدي الاشرار المتآمرين تبطش بهم بطشاً وقد آلى اولئك البغاة على انفسهم ان يهلكوهم عن آخرهم طمعاً في ثروة عظيمة واسعة وانما الفاعل رجلان احدهما يدعى الروسة والآخر . . . »

وقد توقفت ان تخط اسم من تلبست به على الرغم منها — اسم زوجها المعروف بين الناس — ثم رأت ان ذلك لا يمنعها التصريح باسمه شفقةً عليه او حرصاً على شرفه او ضناً بعرضها ان يلمّ به فان كل ذلك لا يثبطها علماً بان انقاذ اسرتها ودفع الشرور ومنع الجرائم افضل واولى بها وان كان فيه مظنة قدح وذم خلا ان قلبها قسا على فريد قسوة لا يمازجها رافة ولا شفقة على الاطلاق لانه كان علة بلائها وسبب شقائها وشقاء عائلتها وبدا لها في الامر بداء فتلوّمت مخافة ان التصريح باسم الامير فريد على وجاهته ومكانته ونفوذ كلمته في دوائر الحكومة يكون باعثاً على حبوط هذه السعاية والاعراض عن هذه العريضة وانتباذها ظهرياً اذ لا يطمع في تصديق هذه الوشاية عليه فيكون حظها لدى من تصل اليهم هز المناكب وانغاض الرؤوس انكاراً وازدراء . . . وظهر لها ان شكوى فريد عقيم لا تجدي نفعاً فعوّلت على عدم ذكر الامير فريد وختمت الرسالة بما يأتي

« اما الآخر . . . ففتشوا عليه ليس بين الصعاليك ولا المعدمين البائسين . . . ولكن انظروا الى من فوقهم قدراً وابحثوا بين السراة الكبراء »

وانفذت الكتاب الى ادارة الشرطة ولم تضع في ذيله اسم من ينسب اليه



وقد آن ان نعود في الكلام على ما كان عند شاطىء البحر بناحية مينا الحصن حيث كان اندراوس ملقىً على فراش النزع والاحتضار والى جانبه عزيز ومرغريتا وتحدث

عما جرى قبل ذلك اذ كانت مرغريتا تتمثل بقولها «ان المصائب يجرُّ بعضها بعضاً»

فان من عادة ميخائيل اللياوي المستمرة ان يؤوب الى بيته عند غروب الشمس لا يستأخر شيئاً من الوقت مطلقاً وهو مطبوع على حب ترتيب العيشة ونظام احوالها الف ذلك مذ نشأ وشب — ومن شب على شيء شاب عليه — ومن صفاته انه نحيف البدن ضعيف البنية ازبُّ وقد وخطه الشيب . ومرت الدقائق في طيّ الساعات على الخادمة مرغريتا وهي تنتظر عودة سيدها بذاهب الصبر والجلد فقلقت وجزعت فارسلت من يسأل عنه حيث كان يتردد فرجع الرسول ولم يقف له على خبر فازداد بمرغريتا القلق والخوف عليه واغرورقت عيناها فكررت قولها « ان وراء البلية بلايا والمحنة تجر المحنة » ومما كان يدور في خلدها انها على طول مقامها عند اللياوي لم تعهد انه ابطا بالحضور مثل هذه المرة ولما رأت شدة شفقة عزيز على اندراوس كاشفته بما تخاف وتخشى فسكّن روعها بيد انه هو نفسه كان مضطرب البال يذكر قصة خطف غادة البقاع واخفاء والدها الشيخ البقاعي فلا يبعد ان تكون تلك الايدي الباطشة قد ذهبت بميخائيل اللياوي ولبث عزيز في حيرة من الامر يضرب اخماساً لاسداس

* * *

تقدم الكلام ان الروسة لما احاط علماً بخبر عائلة اللياوي صمم على اهلاكها بان عقد مؤامرة مع اشياعه في منزله بالرميلة واتخذ على نفسه التدبير على هلاك اندراوس الشاب واوجب على ميروبا ان يتولى اغتيال ميخائيل اللياوي وان كليهما يفعلان في يوم واحد فانطلق ميروبا وما لبث ان وقف على شان اللياوي فقصده عصر النهار في معهد عمله وسأل عنه فلقيه وقال له : أَنت سيدي ميخائيل اللياوي او كانت زوجتك السيدة حنة البقاعية ؟

— نعم انا هو

— لي كلام مهم القيه عليك وقد طالما بحثت عنك حتى هديت اليك اليوم

— قل ما بدا لك

— اني مامور ان اقف على جلية امرك لمسألة ذات شان كبير لك فيها خير كثير وكونها سرّية لا ينبغي التحدث بها الاّ على خلوة تامة فان شئت ذهبنا مساء اليوم معاً عند من ارسلني اليك وهو يطالعك بكنه الامر وان رمت مزيد البيان هلمّ معي بعد الفراغ من عملك الى مكان قهوة على شاطئ البحر وهناك اتمُّ لك الحديث

— اني لم اتعوّد القعود في اماكن القهوة ـ وشديد على المرء ما لم يعوّد ـ خلا اني اكره الابطاء عن ميعاد ايابي الى بيتي فان امكن لك فاخبرني الآن بالقصة ولا تدع شيئاً منها

—لست عالماً بكل ما تهمّك معرفته ولكني مخبرك بل مبشرك باصابة ثروة عظيمة ان طاوعتني واذعنت لي وعملت بمشورتي وانما الثروة المحدث عنها تساوي ملايين من القروش قد ساقها اليك القدر المتاح وسنّاها لك حق الارث أفما انت جدير ان تصير معي اليها ؟ . . .

وكان ميخائيل اللباوي يعجب ويندهل مما يحدثه به فقال له : انىّ لي مثل هذه التركة ولم اعهد في عائلتي اغنياء عظاماً ؟ . . . اما امرأتي فقد هجرت بيت ابيها منذ مدة طويلة ولا علم لنا بمصيره

— كيف كان ذلك ؟

— غاية ما اعلم من السبب في ذلك انها فارقت والدها مراغمةً وذهبت معي هياماً بي وغراماً فكبر هذا الامر على عائلتها وساءهم جدّاً حتى انقطع ما بينهم وبينها كل مواصلة . اما انا فمذ خلصتْ اليّ واقامت معي لم اخلُ من لوم ضميري وتانيبه على ما فعلت واتيت من الجرأة فرأيت ان استكفي هذا الهاجس والبلبال باتخاذها لي زوجة شرعية وهكذا بارك الله زواجنا ووهب لنا ولدين . واما ابوها فقد سألت عنه بعد ذلك فأُنبئت بموته وكانت امها قد توفيت من قبل وكان لها شقيقان وبلغني ان اباهما كان اوصى بهما احد اصدقائه فهاجر بهما من بلاده مستصحباً كل ما اتصل اليهما بالارث من والدهما ولم نسمع من بعد ذلك بخبرهما . واما امرأتي فكانت لا تفتر من السؤال عن اخويها مدة السنوات الاربع التي قضياها معاً الى ان ادركتها الوفاة ولم تعلم بمكانهما وانا ما زلت اجهل مصيرهما حتى الآن

وكان ميروبا يسمع هذه الكلمات باصغاء تام وبا جنه نفسه ان هذه البيانات لا تخلو عن فائدة عند سيده الروسه والظاهر ان احد الاخوين الذي هو بولس البقاعي قد عاد الى الوطن ولم يدرِ اللباوي بعودته فلما اتم حديثه قال له : لقد بشرتك بادراك ثروة وافرة وانت بالخيار في اتباعي الى من ارسلني اليك او في البقاء هنا فان رمت الوفاق على الانطلاق معي وقفت هناك على حقيقة الامر وها انذا انتظرك في الفندق القريب من محلك ريثما تفرغ من مشاغلك

— اني منطلق معك في الموعد وفقاً لمشيرتك

وبعد غروب الشمس جاء ميخائيل الفندق فالفى ميروبا ينتظره فرحب به كثيرًا وسأله بلطف احتيالٍ ان يجلس اليه بضع دقائق انتظارًا لورود العربة فاجاب وقال : اظن المكان الذي نقصده بعيد الشقة من هنا ؟

— لم يخطىء ظنك ولكن من هو مثلك جديرًا باصابة ثروة واسعة معدة له يسهل عليه انفاق نزرٍ من الدراهم في سبيل احرازها وآمل ان هذه البشرى تاتي بخير يعوضك اضعاف اجرة العربة

— لا شك في ذلك وثق اني ساكافئك على تعبك

— أتأذن لي ان اناولك كاسًا من الجعة (البيره) وانا آخذ كاسًا منها ونشرب كلانا بسر الثروة العتيدة . وبصر ميروبا بالعربة مقبلة وكان بين يديه كاس مترعة (ملآنة) وزجاجة فيها ما يملأ قدحًا آخر من النبيذ المذكور فصبه لميخائيل وقال له : اشرب ها ان العربة جاءت

— اني اشرب هذه الكاس بسرك ياصاح

— وانا اشرب هذه ايضًا على ذكرك يامولاي

فشرب اللياوي المخدوع ولم يشعر ان في الكاس طعم النركوتين الذي كان دافه له بالجعة ميروبا المكار لذهوله بما طرق مسمعيه من خبر الثروة وابتدر ميروبا ان حاسب صاحب النزل (اللوكندة) بثمن المشروب ودعا ميخائيل الى ركوب العربة فركب وركب الى جانبه ورأرأ بعينه الى السائق باسمًا وقال: سر بنا مسرعًا وكان ذيبو احد عمال الروسة الاشرار قاتل نسيب فصعق بالسوط فعدت الخيل شديدًا في طريق المناره

اما الشيخ اللياوي فما لبث ان شعر بثقل في راسه واصفر وجهه فقال ياعجبا كأني بالارض تدور بي مثل فالك واحس بوجع راس وارتخاء اعصاب واجد في جسدي توعكًا ومال على متكإ العربة فاسنده ميروبا حسنًا فراجعه الكلام بان قال : ما زلت استشعر اضطرابًا شديدًا ولعله من اجل شربي الكاس بنفس واحد فارى في معدتي ثقلاً ولا ادري ما اصابني فلعل ذلك من شدة الفرح بالبشرى — ومن فرح النفس ما يقتلُ —

— ربما كان السبب ما ظننت . ومهما يكن من الامر فاحسب هذا العارض شيك الزوال — على ان الشيخ كان قلقًا متزلزلاً لا يستطيع ان يقعد راسه وكانت العربة مطبقة مستورة والوقت بعيد الغروب والليلة مظلمة فلم يبصرْ احد عابري الطريق من في العربة خصوصًا انها كانت سريعة الجري في طريق المنارة — ثم قال الشيخ لميروبا

هل لم تزل المسافة بعيدة فاني اشعر بالمٍ في قلبي وعدت لا ابصر شيئاً ثم نكس راسه الى صدره واغمض جفنيه وسكن لان النركوتين كان بلغ منه كل مبلغ فحركه ميروبا وقال : ما بالك ساكتاً ساكتاً ؟ تذكر انّا متوجهان للقيا رجل ذي قدر ومنزلة ! . . . فاثر هذا الكلام في نفس ذلك الشيخ المتفاني فقال نعم . . . نعم . . . لا انام . . . لا انام . . . بيدَ أنه ما عتم ان اعتراه تغير شديد اصاره الى الهذيان وقد حلك الظلام وانتهت العربة الى جهة المناره فدعاه ميروبا فلم يجبه وبات كالميت لا يسمع ولا يتحرك فاشار « اي ميروبا » الى السائق ان أنتبه لان هذا اوان العمل فارتعدت فرائصه مع اعتياده الفتك وسفك الدم وجعل الخب الماكر يفتش في ثياب ميخائيل الفاقد الحس والوعي لان النركوتين اعدمه كل حركة وانتباه اذ سرى سمه في جميع مفاصله وعروقه فاخذ كل ما وجده معه من الاوراق ثم فك ازرار ردائه وقام بهوادة وتأنٍ شان من يفعل امرًا عاديًا واخرج من احدى جنبات العربة خنجرًا وطعنه به في صدره فنفذ من صلبه ونزعه نزعة تذيب قلب الجماد اما الشيخ المسكين فلم يبدِ حراكًا وانما فتح عينيه واطبقها وفاضت نفسه

١١

فاشار ميروبا الى ذيبو ان العمل قد تم وبقي ان نطرح الجثة في اليمّ وما كادت العربة تقف في جهة المناره الا وقد دنا منها خمسة من ديدبانة ادارة حصر التبغ كانوا يجولون في ذلك الليل الدامس منعاً لتهريب الدخان فارتابوا في مسير العربة ووقوفها هناك وصاحوا بسائقها ان قف وجاءوا ووقفوا في سبيلها معترضين فايقن ميروبا بانكشاف الامر وخاف القبض عليه فابتدر فتح باب العربة من جهة البحر وهمّ بالهرب فازداد الديدبانة فيه ارتياباً فتبعه اثنان منهم فلم يجد مناصاً الاّ ان القى نفسه في البحر وكان احد اولئك الرجال قد طيّر الخبر الى شرطي (بوليس) المحلة استنجادًا واحتياطًا فجاء من فوره في نفر من الجند اما السائق ذيبو فلم يستطع الفرار وحاول ان يلهب الخيل ضربًا بالسوط ولكن الديدبانة منعته فاستسلم اليهم مدهوشًا من شدة الارهاق واذ وصل الشرطي والجند وجدوا ميروبا قد اقتحم اليمّ وذيبو بين ايدي الديدبانة الذين ساءهم وجدانهم في العربة جثة قتيل بدل التبغ المهرب المطمع بنيل قسطهم من المكافأة النقدية واقبل رجال الدرك يفتشون على ميروبا في البحر فلم يلحقوا له اثرًا فخطر لهم انه هلك غرقًا او عطب بسبب سقوطه على اتان الضحل (صخرة في الماء)

فساقوا الحوزي ذيبو والعربة عليها القتيل الى دار الحكومة و بدأوا باستنطاق السائق واخذ المعلومات وتقارير الشهود اما ذسو فاظهر الاستغراب من القبض عليه اما الشرطة متجاهلاً منكراً كل ما حدث داخل العربة وجاء المستنطق ليلتئذٍ يقرره بايجاز قال : ما اسمك وما هو رقم عربتك واين محلتك ؟

— اسمي اسعد المهيطل ورقم عربتي (٨٥٠) ولديّ اجازة في مزاولة مهنتي ومسكني في محلة الدحداح من البلدة حيث استأجرت بيتاً — وكان صادقاً في ظاهر قوله لان الروسة لما اضمر الشر لعائلة الليماوي امر ذيبو ان يزاول مهنة سوق العربات وياخذ في مزاولتها رخصة نظامية منتحلاً اسماً مجهولاً ويضع على عربته الرقم المذكور وهكذا تأتى له ان يجاوب المستنطق باحتراس على اسئلته —

(س) متى اكريت العربة ولِمَ مانعت اول الامر في الاستسلام ؟

(ج) هاانذا اخبر بكل ما جرى فاقول : كنت راجعاً الى مركزي بعيد غروب الشمس فعرض لي في الطريق رجل واستوقفني ومعه آخر واُستاجر عربتي مساوعةً . اي مكاراةً بالساعة — ودخلها ورفيقه واطبقا بابيها ونافذتيها وامرني الذي استأجرها ان اسير بهما في طريق المنارة مسرعاً ففعلت وانا غير منتبه ولا مكترث لما يكون داخل العربة خصوصاً ان الوقت كان ليلاً أليل وما زلت كذلك حتى اعترض لي ديدبانة حصر التبغ واستوقفوني فابى عليهم مستأجر العربة وامرني بمخالفتهم فطاوعته طمعاً في مزيد الاجرة والكراء « اه »

وبمثل ذلك كان ذيبو السائق يروغ عن مقال الحق باخبار ملفقة تقرب من حد التصديق

اما المستنطق فداخله الشك المريب في شدة ممانعة السائق للديدبانة لاسيا ان واحداً منهم قال : انه شهر عليه الخنجر تهويلاً وتخويفاً ليخلي له الطريق . واما ذيبو فاعتذر عن ذلك بان شدة الغضب والحدة قادته الى المجاهرة بالمقاومة القاصرة على مجرد الاخافة دون الفعل

وسال المستنطق عن الخنجر فلم يظهر له اثر لان ذيبو لما رأى ان لا سبيل الى التخلص وان جرح بهِ احد ديدبانة حصر التبغ زاد الامر جسامة واعضالاً القاه في البحر واعتذر للمستنطق بفقده وضياعه

وقد اقتصر على هذا الحد في الاستنطاق الابتدائي وامر بتوقيف ذيبو واقيم عليه شرطيٌّ يخفره و بعث يسأل عن حاله وصنعته رأز (شيخ) ساقة العربات في البلدة وكتب

جريدة التحقيقات

واستدعى بطبيب البلدية فجاء وسارع في الكشف الطبي عن جثة القتيل وكتب في ذلك تقريرًا قال فيه : اني لم اجد في جسد الرجل القتيل سوى جرح بليغ واقع في الصدر الى جهة القلب وهو عمل آلة قاطعة نافذة وبسببه حدث الموت في الحال

وبحثت الشرطة في جيب القتيل فلم تلف شيئًا يستعان به على استظهار الحقيقة لان ميروبا كان قد اخذ كل ما وجده معه من الاوراق المكتوبة كما تقدم الخبر ولكن رُئي على ثيابه هذين الحرفين (م ١٠) وبما ان المقتول لم يعرف أُرسلت جثته الى الكرنتينة مع احد البوليس لتحفظ هناك الى الغد اذ لم يستحسن ابقاؤها في دار الحكومة

اما البوليس والشرطة فلما اعياهم الوقوف على آثار القاتل في البحر وقد تقصوا في البحث كثيرًا ولم يحلوا بطائل ليلتئذٍ ايقنوا انه هلك غرقًا وان سيقذفه التيار الى الشط غدًا . وهكذا اكمل مامورو العدلية واجنادهم بحثًا وتحقيقًا في اثناء ذلك الليل البهيم

واما ميروبا فانه ما زال حيًّا لانه حين القى نفسه في اليمّ لم يسقط دفعة واحدة بل تزحلق رويدًا رويدًا على تلك الصخور الناتئة عند الشاطىء فاصابته نضاريسها في يديه ورجليه وراسه سحجًا وتخديشًا وما زال حتى انتهى الى الماء وقرَّ هناك وهو على اقصى الاعياء والدم يسيل من خدوشه بيدَ أنه ما لبث ان ثابت اليه قوّته واحسّ بان الشرطة مجدّة في طلبه وادراكه فلجأ الى مغار وجده اتفاقًا وتوارى فيه ريثما استراح بعض الشيء ثم خاف ان يراه رجال الدرك الباحثون عنه فلما سمع صوت جري العربة رمى نفسه في البحر وكان يحسن السباحة كل الاحسان فامكنه الايغال في اللجة وكان يجهد ان لا يعوم على وجه الماء مخافة ان يُرى وكثيرًا ما كان يرفع راسه لينظر هل احد يتبعه ويقتص اثره فلم يرَ له متعقبًا فامن وسكن جاشه واستمر يسبح محترزًا اتم الاحتراز عابرًا من جهة المنارة الى جون الرميله فدنا من الشط تحت جنح الليل الدامس وخرج منصاعًا الى منزل الروسة المعروف ثمة وقد قطعه التعب والاعياء والدم يسيل من خدوش بدنه فالفى سيده المذكور فجعل يقص عليه ما وقع له فقال كان من الامر كيت وكيت الى آخر ما جرى

﴿ ١٢ ﴾

صباح اليوم التالي اقبل شاب على قصر الامير فريد في المدينة وطفق يدور حوله نحو ساعتين الى ان تحقق خروج الامير ، وقرع الباب فجاء الخادم فقال له :

استأذن لي على مولاتك

فانطلق فاخبرها ان في الباب زائرًا فاذنت له في الدخول الى الردهة فدخل وكان الرجل عزيزًا فاعجب بما رأى في القاعة الكبرى من فاخر المفروش والمتكآت البديعة الصنعة وعلى الابواب والنوافذ من السجوف المتناهية في الحسن وعلى الجدران من ضروب النقش والرسوم المختلفة الاشكال والاصباغ التي تمثل للرائي كل ما يروق ويشوق من صور الطيور والاشجار وفي السقوف من بدائع صنعة النقش المذهب ما لا يكاد يوصف ويندر مثله حسنًا واتقانًا وبهاء ورونقًا في دور بيروت وقصورها الشاهقة وعلى حيطانها مرايا كبيرة من البلور تحت كل منها ساجة مشرجعة في نهاية الاحكام والاتقان يعلوها ساعة كبيرة ثمينة الى اشياء أخر كثيرة من التحف والطرف النفيسة يحار فيها الناظر وفي جوانب القاعة مقاعد وكراسي مغشاة بالاطلس والمخمل ووسط الدار مائدة غطاؤها مرمر منقوش فوقها آنية الزهر فاجتاز عزيز اثر الخادم واطئًا بساطًا عجيبًا كأنه منسوج على قدر ارض القاعة ولما دنا من باب الردهة دعاه الخادم ان يدخل رافعًا السجف امامه . وكان عزيز يتامل ما هناك ويقضي العجب مما شاهد من آثار النعمى واليسار والزينة والرخاء وكان مع كل ذلك مقبض الصدر لاتيانه بنبإ مهم الى غادة البقاع . فولج باب الردهة ووقف مستوحشًا لان كثرة الاثاث والسجوف المسدولة على النوافذ جعلت المكان مظلمًا بعض الشيء فلم يبصر لاول وهلة ما في داخله فتوهم انه متوحداً هناك لا انيس له وفيما هو كذلك اذ سمع بغتة صوتًا رخيمًا قد طالما طرق مسمعه يدعوه: ياعزيز!

وكانت غادة البقاع جالسة في الردهة على كرسي كبير فقامت من فورها واقبلت نحو عزيز ومدّت له يدها للتحية فاخذها مصافحًا وقد ظهر له جوّاني الردهة اكثر ضياء شان المبصر بعيد دخوله مكانًا فرأى الاميرة لابسة ثوبًا ساذجًا من الصوف الاسود وهي عاطل ليس عليها شيء من الحلى والزينة وكانت صفرة وجهها تزداد ظهورًا تحت حالك شعرها في قبائها الاسود فنظر عزيز الى ذلك الحسن المتمثل لعينيه عجيبًا ولم يكن ليكتفي رنوًا اليها فجعل يسبح الخالق ذاهلاً عن كل امر حدث ساهيًا عما جاء لاجله وقد ذهب عنه ان غادة البقاع مقيدة بعهد الزواج مع رجل غيره لان عواطف الحب قد ثارت في قلبه فاضحى ثملاً نشوانًا تائهًا في اودية الهوى والغرام وكان انسان عين كل منهما يوحي الى الآخر بيانًا عما كان يتوقد في الحشى اشد من نار الغضى

وما كانت غادة البقاع لتخاف باسًا من عقبى هذا الهيام لانه خلا عن كل ريبة

بل عن كل نية سيئة فضلاً ان المحبة قد نمت بنموها ونشأت بنشوءها ولم يفرقها اختياراً بل اضطراراً وقسراً بفعل اولئك الطغام الاشرار

وغادة البقاع ما كانت لتحسب نفسها زوجة فريد لما ان هذا الرجل الشرير القاتل لم يعدُ ان كان بعلها حكماً جرياً على مقتضى عقد ذلك الزواج الاكراهي تهديداً وتخويفاً لغادة البقاع بقتل ابيها ان أبت وامتنعت من الموافقة على ما تقدم الخبر ولهذا استمرت تود عزيزاً بل ازدادت له حبًّا خصوصاً انه كاد يبذل حياته في سبيل انقاذها ومن اجل ذلك قالت له : آه ياعزيز ما احسن مجيئك ! .... بودي لو تعلم ما صرت اليه من العيشة الشؤمى ... ولكن مرآك يعيد اليَّ بعض التجلد ولي به مصحاة من سكر الغمّ ومسلاة من كرب الهمّ ... فاني لشدة سأمي الحياة كثيراً ما تمنيت الموت بمشيئة الله تعالى

ثم اقبلت الى عزيز واعتبرت في مروءته وحسن شيمه وكرم طباعه وما هو عليه من صحة العزيمة والحميَّة وقالت : لقد اخطأت في تمنى الممات ولي اخدان مثلك يفدونني بالارواح ولكن مالي وللاسف واللهف فلست بذاكرة الآ غضبي على ذلك الخبيث الماكر الشقي وسوى اني اهواك فاخبرني ايها الخل الوفي بما حدث

— جريمة أخرى

— اوَّاه ألم يكفِ ما كان من الجرائم ؟ ... ودقت يداً بيد ولطمت وجهها من شدة الانفعال

— الى الآن لم اتحقق ما وقع ولكن قرائن الحال تدلُّ على وقوع جريمة جديدة

— قل ولا تخف شيئاً فانه قضي على الشاب اندراوس اللياوي .

— لا لم يمت ولكن الاطباء باجمعهم قالوا انه عن قريب يموت ولا بد في بقائه حيا وشفائه من معجزة . الامر لم ينته عند هذا الحد فان والده مفقود خرج من مكتبه امس مساء ولم يعلم مكانه وعادته ان يؤوب الى بيته آخر النهار بخلاف عشية امس فانه لم يحضر ولا بد له من امر مهم وسابحث عنه اليوم وقد منعني البحث عنه في هذا الصباح ما اجد في جسدي من توصيم الارق والسهد لاني احييت الليلة العابرة في هواجس ووساوس وما ذقت الرقاد الا تهويما واول ما فكرت عند الغداة ان آتيكِ واخبركِ عما كان وهاانذا منذ ساعتين ادور حول هذا القصر مترقباً فرصة خروج الامير فريد وذهابه لاراكِ والذي اعلمه ان الشيخ اللياوي لم يعد الى بيته حتى الآن

— آهٍ من هذا الانسان فريد ! وتبًّا له ولانصاره وزملائه ! وتوجهت ببصرها الى

﴿ ١٣ ﴾

وقد صدق حدس غادة البقاع فان فريدًا اول ما وصل سألها ان تأذن له في الجلوس اليها محدثًا . ولم يمعن اذ شك في اجابتها هذه المرة اذ انه صار من الهين عليه ان يراجعها في الامر وان رأى منها اباء ونفارًا لشدة ارتكاسه في البلابل والهواجس حتى عاد لا يدري ما يفعل وقد انصرفت جميع عواطفه الى غادة البقاع ووجد بها وجدًا لا قياس له ولا حد فترخصت معه يومئذٍ في دخول مقصورتها فولجها مضطربًا مرتعدًا على كونه شديد الباس قوي الحول ثبت الجنان فاخرج من جيبه منديلاً ومسح عرق جبينه ودنا منها وخاطبها خافت الصوت او بالحري كان يغمغم غمغمة المذعور بان قال : يا غادة البقاع اني اراني سعيد جدًا بما مننت لي من سبيل مشاهدتك ومحادثتك ... ولا سيما هذا اليوم ... فانك لو لم تأذني لي في ذلك ما عدوت عادتي في موافقة مشيئتك ... فان لحبك عليّ سلطانًا غالبًا قويًا لم يبقَ لي معه ارادة مستقلة ...

اما هي فلبثت وسط المكان صامتة لا تنبس ولا تظهر مبالاةً بقوله ولا تحرك شفتيها احتقارًا له ولكن علق بذهنها كلمة « ولا سيما هذا اليوم ... » فجعلت تفكر في مراده منها

وكان الامير فريد قد شحب لونه ونحل بدنه وتضمرت وجنتاه من الهزال ... وكان في جسمه حمى الدق تضنيه والى الاجل تدنيه ... وظهر في وسط جبهته غضن بيّن يدل على شدة قلقه واضطراب باله وبلباله ... وكان ارتجاف شفتيه ينبئ عن حزنه المستمر ... وكلما مرّ عليه ساعة يشعر بثقل وطأة الدهر عليه وما سامه من الضر والذل والهوان

وقد اضحى كأنه غير ذلك الشاب الغيساني المدل بسطوته وقوته وغناه وهو ذو جاهٍ عريض وشرفٍ صاعد وجدٍ مساعد تباهى بحدة ذهنه وحسن روائه ودرايته حتى كأن لم يكن من اثره لمن كان يهمّ ان يتخطى جميع العقاب الصعاب ويذلل كل المشكلات والخطوب لا يثني عزمه هول من الاهوال ولقد عاد كصعلوك ذليل تحسبه ينوء بعبءٍ ثقيل

ونظرت اليه غادة البقاع في هذه الحال وقالت : لقد أُشكل عليّ من كلامك كلمة لم افقه مغزاها وهي « انك تجد نفسك سعيدًا بمشاهدتي خصوصًا هذا اليوم » فما مرادك بذلك ؟

— ساوضح لك المعنى ياغادة البقاع ...

— ألعلك تريد ان تعجل باعلامي اصرارك على آثامك ؟...

— يكفيك ياغادة البقاع فدعي اللوم والتقريع

— أو تود ان تقول لي انك هديت الى معرفة تلك العائلة المتعسة الجد التي طالما بحثت عنها بجدك وانما هي ذات قرابتي ويحق لها ان ترث نصف التركة الهائجة بك دعيات الطمع ؟... أو أنت تدعي لنفسك المسرة لتشعرني انك وزميلك الماكر الشرير قد تسنى لكما اهلاك اثنين من هذه العائلة ... الاب وأحد بنيه ؟...

ولما سمع فريد ذلك فائر ثائره وقال : من ذا اعلمك بهذا ؟

— لا ينفعك ان تعرفه افلم يحدث ما قلت ؟ فلا تسلني عمن اخبرني

— مطرقاً — ان ذلك صحيح

فتنهدت وصاحت : ويلك من لص ... انك جان قاتل — وتباعدت عنه من آخر المكان الى الباب الذي عليه الحجاب كأنها تريد الالتجاء بمن هو متوار وراءه

— اي عزيز — اما فريد فضمر ولم يفه بكلمة وكان غريب السحنة مكفهاً الوجه وقد عاودته رعشة يديه واصابة تقبض في انامله وحاول النجاة من شدة انفعاله الذي كاد ان يذهب بجنانه فقالت له : انت وزميلك قد قتلتما اندراوس الليماوي اوكدتما ان تقتلاه لانه دنف داني الاجل

— أهو حي ؟ وقد برقت اسارير وجهه بغتة دلالة على الاستبشار الذي لم يملك اخفاءه

— نعم هو حي ... اوّاه منك فانك تخاف من يشكوك و يرفعك الى الحاكم أليس كذلك ؟ هو حي وانت ترتعد خوفاً ! هو حي... ولكن سكن روعك ياشقي فربما توفي الساعة ...

فتنفس الصعداء وترك الدفاع عن نفسه علماً بانه ان نفى مدافعاً كذبته .. ولو اخبرها بمحاولته انقاذ اندراوس من ذلك الخطر الذي كان يخافه عليه ويعلم عظم هوله ما صدقت دعواه بل رمته بالخداع والغش ...

وكانت غادة البقاع صفراء من شدة الغضب فارادت اتمام كلامها : لاشك انه ليسرك ان تراني اليوم لتخبرني بميتة اندراوس .. ولا ريب ان اليد الباطشة هي هذه اليد المتوارية مرتعشة من الوجل ... وكنت احسبك اثبت جاشاً مما رأيتك وان الدم لا يهولك كل هذا الهول الذي اراه الآن لاعتقادي اعتيادك سفك دماء العباد

فاجابها بصوتٍ اجش كمن عدم الصبر والجلد ولم يطق اطالة الكلام فقال: غادة البقاع لا شيء يغيظني من كل ما ترميني به لانه سيأتي يوم استطيع فيه الجواب على اقوالك كلها

—وعلامَ تتلكأ وتؤخر جوابك ان كنت قادراً ان تدفع عن نفسك ؟ ولِمَ لا تتنصل من التهمة في الحال ؟

فتنهد وتأوه تكرارًا وقال : لما يئن الاوان .. فاطرق وسكت قليلاً وهو يدنو نحو غادة البقاع رافعًا رأسه شيئًا فشيئًا وناداها باسمها وقال: اسلفت لكِ اني اليوم اراني سعيدًا جدًّا لقبولك زيارتي بخلاف سائر ايامي السالفة وانا اشعر بسرور عظيم في اثناء محادثك... ولست اروم ان يكون غيري مخبرك بما انا محدثك عنه ...

— ملذا تعني بكل ذلك؟ اني لا افقه من مقالك شيئًا ...

— انك ستفقهين . جيرِ ياغادة البقاع قد حدث جرمان آخران في هذه الايام الاخيرة لاحدهما خافٍ عن ارباب الحكومة لعدم الاحتياج في اتيانه الى استعمال الحديد او السم ... اريد بذلك مقتل اندراوس... والجرم الثاني هو الذي يبحث عنه مامورو العدلية ولا بد ان ينال فاعله الجزاء اريد بهذا مقتل الشيخ اللياوي الذي درى به رجال الدرك وطلبوا قاتليه فادركوا احدهم وهو من العمال الاشرار الشرسي الاخلاق شديد العزم حريص على حفظ الامانة والذمام لسيده الروسة من تكرهين سماع ذكره تكرهك لاسمي وربما تؤدي معرفة العامل الى معرفة المدبّر وان أُخذ الروسة فلا اقل من ان يجزى هو بالموت وانا بالحبس الدائم (الكورك) ... بيد أني اتخلص من مشاق هذا الحبس وعذابه بالانتحار... وحينئذٍ تجدين المناص ... فهذه بشارتي لكِ ياغادة البقاع فسرّي وافرحي

فتلهفت وعيناها تبرقان وقالت : ان ساعة العدل لما تاتِ ولكن ستاتي ويكون القصاص كافيًا انتقامًا وانتصافًا لجميع من ذهبوا شهداء في سبيل الغوائل والمكايد ...

— ولكن اعلمي ان القاتل الذي لدى الحكومة لا يتكلم ويموت ولا يقرّ على مولاه الروسة وقد أُخذت كل التدابير على غاية ما ينبغي حتى يعسر العلم بمن كان السبب في هذا الجرم ... ومن ثم فان القاتل لا يتكلم ... وان لزم الصمت نجوت انا والروسة ...

— اضرع الله تعالى ان يلهمه الندامة والتوبة فيتكلم

— لا تطمعي في ذلك ياغادة البقاع ولكن يوجد وسيلة اخرى لاهلاك الروسة

وزملائه ... وهي ان بنى الى ادارة الشرطة ان المقبوض عليه هو من عمّال الروسة ثم يوضح هناك سبب قتل الشيخ اللياوي والعزم على قرض عائلته طمعاً بادراك التركة ...
وبذلك يتسنى لك ياغادة البقاع ان تسري وتفرحي لان من تبغضينهم لعدة اسباب يصيرون الى شفا الهلاك والردى

فتبسمت غادة البقاع شافقةً فريد وقالت: ان مشورتك قد تأخرت عن ميعادها لان ما تقوله قد صار امرًا مفعولاً

وما كان فريد الاَّ ان تبسم حزيناً مقابلةً لتبسم غادة البقاع واخرج من جيبه رقعة مطوية فنشرها ودفعها اليها فاخذتها مرتابة وقرأتها مرتاعة فامتقع لونها وانما هي الرسالة التي كتبتها منذ قريب وفيها اتهام الروسة بالمنكرات والشرور خلواً من ذكر الامير فريد فقال لها: اني اشكرك على عدم ذكراسمي ولكني ولا شك ساواخذ تبعاً للروسة اذا قبضت الحكومة عليه لانه هونفسه يخبر عني ويغري بي ... ثم جثا الامير فريد على ركبتيه لدى قدمي غادة البقاع واتم حديثه: اني احب يدكِ ياسيدتي — احب اليد التي تسوقني الى البلية ... احب اليد الساعية في ادناء اجلي والباسي ثوب العار وايراد اسمي مورد الذل الهوان ...

— هوذا الكتاب فكيف حصلت عليه ؟!

— غير خافٍ عنكِ ان للروسة اصدقاء في كل محلة فلما وردت الرسالة اعلموه بها فسعى للحصول عليها وهانذا اخذتها منه وعرفت خطكِ ... ولكني مشركِ ان الغاية التي طلبتها ستدركينها فعليكِ ان تتمي العمل الذي بدأتِ به ... واودُّ لو تثقين اني احبكِ ياغادة البقاع ... واريد ان تصدقي قولي لكِ اني اجد الشفاء في حبك سعادة والعناء لاجلك راحه ... واني ادعو لليد التي تطعنني فاتمي عملكِ ياغادة البقاع ... امضي الى ادارة الشرطة وان ابيت التظاهر بالامر واتقيتِ المعرّة فاكتبي ثانيةً الى المستنطق وقولي له ان الرجل الذي وقفتموه ينتحل اسم اسعد المهيطل مع ان اسمه الحقيقي ذيبو ... وهو من عمّال الروسة . والذي قتل في جهة المناره هو ميخائيل اللياوي وبيته في مينا الحصن وكفى بهذا بيانا

— ومن انبأك اني لا افعل ذلك انقاذاً لاقاربي من الهلاك

— اسالكِ ذلك ملحًا عليك فيه جهدي

— ألعلك سئمت الحياة و بلغ جزعك الى هذا الحد ؟

— إي وربي اني سئمت العيش وما بقي لي صبر ولا جلد على الجفاء والكمد ...

فموتي لاجلكِ حياة ... ولكن اعجلي في الامر يا غادة البقاع ... فان الروسة اذا داخله بعض الريب تعجل الهرب ونجا من الطالب ... فلا يتأتى لكِ الانتقام الأ من جهة واحدة ويفوتك شفاء الغليل في كبت سائر المجرمين

وكانت غادة البقاع تنظر الى فريد مستنكرة لعدم علمها بما كان يدور في خلده ويهجس في قلبه من الهواجس المتجددة واشفقت ان يكون وراء ذلك مكيدة معتدة فقالت له : اذكر كلامي يوم آكرهتني على اتباعك ... يوم قلت لك انذارًا بانه اذا حان حينك فلا اشفق عليك كما انك لم ترفق بي وتشفق عليّ ... واني اكون قاسية القلب فلا تحسبنّ ان في فؤادي لك ماسة رحمة اوعاطفة رأفة ... فانك لم تشفق ولم ترحم ... ولو قيض لي الله ان احيا بعشرة اعمارمثل عمري لقضيتها كارهة اياك شانئة ... وها اني اكتب الى دائرة المستنطق

اما فريد فاطرق وتنهد قائلاً : ان في حشاها نارًا حامية توّججها موجدتها عليّ .

وجلست غادة البقاع الى ساجة (طاولة) وانشأت تكتب ويدها ترتعش من شدة الغيظ حتى اذا كتبت بعض اسطر دفعت الكتاب الى فريد وقالت له: اقرأه أليس يكفي ؟

فرفع راسه وقرأ الرسالة ثم عاود الاطراق وقال: هذا هو الحكم بموت الروسة والقضاء عليّ

واذ مدت يدها لاخذ الكتاب منه قبض على يدها بشدة والزمها جبينه وهي تتوقد بالحمى وقال : اني ابدًا احبك ... لعمري لا اراني مصرفًا عن محبتك رضيتِ ام لم ترضي ...

—ان كنت ثابت العزم وصحّ ان ضميرك يوبخك على ما جنت يداك وانت لا تحاول ان تمكر بي كما طالما كدت لي ضروبًا من الكيد واصرتني الى هذه الحال فلمَ لا تسلم نفسك الى الحكومة ؟ ... وعلى مَ تريد ان اكون انا السبب في تسليمك اليها ؟

—لان الموت اهون ما يكون عندي بل احبّ اليّ اذا اتاني من قبلك ! ثم قال وهو يتضاحك غمًّا — وشرُّ المصايب ما يضحك — لست اجد في نفسي ندمًا على ما فعلت وما كان ضميري ليلومني يا غادة البقاع ... انما انا احبكِ واريد ان أُويد حبيكِ بالبرهان ... اودكِ واتمنى لو تودّيني ساعة فاموت ... واذا متّ يرجوت ان تمسّكِ مواس الرحمة لمن سفت اليهِ اجله فترثين لي وتنظرين اليّ نظرة

الحمان والتشفقة فامضي سعيدًا في سبيل الهوى كالمستشهد وكأنني انشد

ومن لم يمت في حبه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحلُ
فقل لقتيل الحب وفّيتَ حقه وللمدعي هيهاتِ ما الكحلُ الكَحَلْ

وبذا حبي

— لا تطمع في المحال فدع ما انت فيه من الاماني والآمال ألم اقل لك انذارًا خف ان ياتيك يوم تندم فيه ولات حين مندم وليس من يشفع او يرحم

فاجابها وقلبه يتمزق غيظًا وكمدًا : اذهبي اذن ودبرّي على هلاكي فانني اختار الموت على الحياة في جنب رضاكِ ! فلست اسعى لتاخير البلاء دقيقة واحدة فهانذا تائق الى الفناء لاكفيك مزيد العناء فثقي بقولي ولا ياخذكِ فيه شك . وكان صوته متهدجًا كصوت من همّ بالبكاء وخرج من الغرفة لاهفًا واجمًا لا يلوي على شيء

ولبثت غادة البقاع مفكرة في الامر بضع دقائق ثم قالت في نفسها ان هذا الانسان مجرم فلو دفعته وزميله الى الحكومة كفيت وكفي غيري شرورًا اخرى ... وجرى العدل مجراه جزاء بالجرائم المرتكبة .. وعلى من اشفق ؟ .. فهلاّ اخذتهما الشفقة على من اغتالوهم بحبائل مكايدهم ؟ ... ومن هذا المرء الذى انصرف عني الآن بالنسبة الي ؟ .. فانما هو ابعد الناس عني ... نعم هو اجنبي بل أبعد من اجنبي ... هو عدو ... بل اعدى عدوّ ... هو وحش ضارٍ شرس متترس ... فليمت فايمت وزميله الشرير ... كلاهما مستحقان الهلاك ! ... ثم جاءت الى حيث كان عزيز متواريًا مستمعًا الى الحديث لايبدي حركة بيد ان وجهه كان اصفر بعض الشيء فقالت له : اسمعت ما كان من المحاورة اترى مظنة للخوف والخشية ؟

— لا ولكنه صادق بدعواه محبتك ... وانه كان يعلق بما في قلبه ولا شك في كونه يهواكِ بالشادة البتاع ...

فتبسمت تبسم الفائز الظافر وقالت : يا ويله من مغرم معنىّ ... أتراه كما اراه شديد العناء ؟

— نعم انه يعاني كثيرًا من الشدائد واراه شقيًا يتمنى الموت لان حياته صارت شديدة وعيشته مرة لاتطاق ...

فرفعت بين يديها ذلك الكتاب الذي كتبته بمرأى فريد اطلاعًا لرجال

الحكومة على جلية الامر ليقضى عليه وعلى الروسه بالقصاص وقالت : اذاً ليمت !

١٤

عوداً على وصف ذلك الليل الذي حدث في اواخره امور خطيرة لم تتصل انباؤها بفريد وعزيز وغادة البقاع فجل ما كان في معلومهم مقتل اللياوي واعتقال قاتله ذيبو سائق العربة . فان الروسه وعماله عمدوا الى احداث خطوب جسام ستراً للجريمة واخفاء للجناية عن ماموري العدلية وكان أن ميروبا بعد ان قص الخبر على الروسة جعلا يجثان في التماس اسباب النجاة من شر العقبى وقد اكثر الروسه من سؤال ميروبا عن مجرى الحادث وكيفية وقوع الجناية توسلاً بمزيد الاستيضاح الى ما ينجي من سوء المنقلب فلم يزده بياناً على ما قدّم من انه بينما الامور جارية مجراها وكاد هو والسائق ان يتخلصا من تبعة ما جنت ايديهما خاليين عن مظان الريبة اذفاجأهما القدر المتاح بما احبط مساعيهما وورّطهم شر مورط — وكثيراً ما يتفق ان يسيء المرء وهو يحسب انه يحسن تدبيراً —

يوشك من فرّ من بليته في بعض فرّاته يوافقها

وطفق يفصل له خبر باوغم جهة المنارة حيث راموا القاء القتيل في البحر مثقلاً بحجر كبير يعين على سرعة اغراقه واخفاء اثره وانهم بينما يهمون في ذلك اذ صادفهم ديدبانة حصر التبغ وكان من الامر كيت وكيت الى آخر ما جرى وانه ورفيقه حاولا الفرار بادي بدء فلم يستطع هو سبيلاً الى النجاة بسوى المسارعة الى اقتحام اليمّ وامسى ذيبو بين ايدي رجال الدرك وهلمّ جرّاً . وكان الروسه منصتاً كل الانصات الى الحديث قاطباً غاضباً وبلغ منه فضرب الارض برجله وقال : انكما لمعذوران فان المقدور كائن لا مفرّ منه وهو الذي احبط اعمالنا وخيب آمالنا . . .لقد اصارنا الى اسوإ حال وعرضنا لخطر الهلاك

—اراك ياسيدي شديد الخوف مما وقع على غير داعٍ موجب علماً بان ذيبوصادق المودة لك لا تحمله شدة المضايقة على الاقرار بالحقيقة والبوح بالسرّ المكتوم الى حد ان تظهر داخلة امرك وتنكشف خلطتك في الجناية . اما انا فلا اخال الشرطة تلمّ بي وتدركني لو مهما بحثت عني ومع ذلك فلو علمت بي وادركتني أيداخلك شك في صحة ذمامي وولائي لك

— اني لواثق بكم متحقق ثباتكم على الانكار وعدم الاقرار بشيء مما تعاهدنا عليه

— اذاً ما هو الباعث على الخوف

— هو ان يعرف رجال الحكومة جثة القتيل لان اهل ميخائيل الليماوي اذا دامت عليهم غيبته حملهم قلق البال على البحث عنه ومن ثم يدرون بامره و يرفعونه الى ارباب الحكومة فينكشف الغطاء ويبرح الخفاء

— ولكن لا ارى عليك ياسيدي خوفاً من هذه الجهة لانهم اذا عرفوا كون القتيل ميخائيل الليماوي فماذا يترتب على هذه المعرفة ؟ فمن يظن ان لهذا الانسان حقه في وراثة تلك التركة الواسعة ؟ . . . وانّا ساعون للحصول عليها احتيالاً ؟ . . . عدا انا مع تقدير احاطة اهل الحكومة علماً بالورثة لا تكون انت موضع الظنة لبعدك في القرابة والنسب عن الليماوي وانتفاء الريبة فيك من هذا الوجه

— ما زلت ياميروبا غافلاً عن سر الامر غير متنبهٍ الى سلسلة علاقة فريد بالتركة المعهودةِ وهذا السر لابد ان يفشو ويذيع ويعلمَ ان بيني وبين فريد مواطاة ومؤامرة . . . ولذلك تتوجه الخواطر اليّ واصير عرضة للظنون . . . خلا ان الشرطة قد بثت عليّ العيون والارصاد . . . وان عندي الخبر اليقين . . . وانها وان كانت ما زالت موقنة بمزاولتي اعمالاً غير مريبة لكنها المّت ذات يوم في الوقوف على شيءٍ من حبائلي ومكائدي . . . فلو خطر لها الآن ان تتعقبني . . . او لو اتاها شكاية او وشاية تظهرُ لها الحقيقة امسيت عرضة للبلاء وعدمت الطمانينة والراحة

— لقد اصبت في ما حدست ولكن من ذا يجسر ان يشكوك او يسعى بك الى ارباب الحكومة

— اني اخاف وشاية من يخافون شرّي او الذين حاولوا مغالبتي فغلبتهم وظفرت بهم فاطرق ميروبا متبصراً ثم قال : اراني فطنت لما تقول وفهمت المغزى وهو انك تخشى تبعة الجناية التي فعلنا أليس كذلك

— فكرت وحزرت ما يدور في بالي ويهجس في قلبي من خوف الوشاية والخيانة

— ان الخائن أياً كان لابد ان افتك به ذات يوم

— لعلي ادعك تفعل ذلك بعد حين اما الآن فمن مصلحتنا ان نبقي على الخائن

— لماذا

— ان المرأة التي اخافها ستكون في الغد الوارثة الوحيدة للشيخ البقاعي

— اذاً هي غادة البقاع

— هي نفسها . . . واني اخاف منها اذا طال عرض جثة القتيل للناظرين وعرف

ارباب الحكومة هويته وشان ذيبو معنا فاتة بذلك يكون بوارنا لامحالة ... اني اخاف ذلك كل الخوف

ـ اذاً الامر بسيط لا اشكال فيه وعاقبته ممثلة نصب اعيننا في الحال

ـ وهو يتاوه ـ أتظن ذلك سهلاً لا اشكال فيه ؟

ـ اني لا ارى اشكالاً في العمل الذي نقدم عليه اذ ليس سواه و بالحري يلزمنا عملان

ـ وما هما

ـ احدهما ان نهتم بتخليص ذيبو من يد الحكومة

ـ والآخر ماذا

ـ ان نخفي اثر تقاتيل الليباوي

ـ لقد قلت حقاً وهذا الذي كنت افكر فيه ولكن اتحسب الامر سهلا ؟

ـ لست انكر صعوبته خصوصاً انّا لا نجد بدّاً من اتيانه عاجلاً قبل ان تتجلى الحقيقة ونقع علينا العيون اما قولي ان الامر بسيط فمعناه ان لاسبيل الى سواه

فجعل الروسة يفكر امعان وقال : لاسبيل الى النجاة بغير ما ذكر فلنحاوله مع ما فيه من المصاعب لانّا اذا قدرنا على اخفاء القتيل وانجاء القاتل لا يبقى من وجه للظن في لصيرورتهما مجهولين وبذلك تتم النجاة وتقتصر الشرطة على ادراج هذه الجريمة في جملة الجرائم التي لم يظهر فاعلوها و يستقر في الاذهان ان القتيل رجل غريب وان المتهم في قتله قد فرّ ولم يبقَ للجناية من اثر وهكذا تصير نسيًا منسيًا ... ومن ثم نفوز بالسلامة . . . ونحصل على الطمانينة التامة

ـ ولكن اعلم ياسيدي ان الزمن ثمين والفرص تمر مرّ الرياح فيلزمنا اتمام كل ذلك هذه الليلة لان الابطاء به الى الغد لا يؤمن معه حبوط المسعى ويخشى ان تدري عائلة الليباوي بما كان فنقع في الياس

ـ اني ارى رايك ولكن ما الحيلة ... وماذا ينبغي ان نصنع ؟ وجعل كل من ذينك الشريرين يضرب اخماساً لاسداس . ثم قال الروسة لقد بدا لي وجه موافق ولكن لابد ان اتحقق بعض الامور فارى ان تنطلق انت قبل فوات الوقت وتدعو من رجالي من هو اصح عزيمة وولاء واذا عدت بعد ساعة وجدتني هنا اسطرك لان الشروع في الامر الذي اضمرت يقتضي عدة رجال يعملون بجد ونشاط وهاانذا منطلق الى دار الحكومة لابحث عما صنعوا بجثة القتيل وابن المتهم ثم يكون لنا ان نسعى لاتخاذ وسيلة الى بلوغ المراد فقم وادخل الغرفة وغير ثيابك واغسل راسك ووجهك من آثار الغبار

ودونك جرعة من الخمر فانها تقوي اعصابك وتعيد اليك النشاط وتنسيك العناء واعلم انا مقدمون على امر عظيم جدًا فاما حياتنا او مماتنا

— امرت يا سيدي خادمًا امينًا مطيعًا فاني سافعل وعما قليل آتي ورفاقي الى هنا فدبرّ برايك السديد وانظر ما ينبغي ان يؤتى من الامور وانت تعلم أنا لانهاب الموت في سبيل مرضاتك . ثم خرج ميروبا مغادرًا الروسة في غرفته يدفعه شك ويتلقاه ريب وهو يضرب اخماسًا لاسداس

﴿ ١٥ ﴾

وكان ان الروسة بعد انطلاق ميروبا طفق يتمشى وسط الغرفة مرتعدًا مشفقًا مما يدور في خلده مع كونه امرءًا قد اعتاد ارتكاب الجرائم حتى لايهوله وقوعها ولم يخطر باله عمل حسن ولم يظهر في عينيه ما يدلّ على الشفقة والرافة وهو الرجل الذي اتخذ جميع التدابير لاصابة تركة البقاعي وقد اراق على جوانبها الدماء . . . بل هو المرء الذي بلغ من جسارته ان يستصغر كل جسيم ولا يهوله امر عظيم والذى اعانه التوفيق حتى ذاك الحين على درك نتيجة مخاطرته . . . فهو قد خانه الجلد وضعفت قواه وعاد قلق البال كثير البلبال ينذره ضميره شر الوبال القريب وقد قلّ رجاؤه في التوفيق وعدم الثقة بنفسه . وبقي يمشي من اول الغرفة الى آخرها على غير هدى ثم عاد اليهِ روعه وقال في نفسه ربما كانت فرصة النجاة في كل دقيقة تمضي فالسرعة السرعة . وراى ان لا بد من الذهاب الى دار الحكومة للاستخبار والاستعلام فاضطرب وجزع وخيل له انه واقع في المغواة التي حفرها والاحبولة التي نصبها لتلك العائلة فارسل برقاوية كأن شرر النار تقدح منها وتوزعه الهواجس فتمالك نفسه وجمع قواه وصوب نبال غضبه على من كانت تقاومه وتمثلها امامه فجعل يخاطبها بقوله : غادة البقاع ! . . . غادة النقاع ! . . . ويل لك بل ويلان . . . فأنتِ التي اخاف منها هذه الصدمة الشديدة ! . . . وما احراني بالتحذر منكِ اكثر مما كنت . . . لقد مر بكِ ايام رايتكِ فيها صاغرة لديّ ذليلة . . . اما وقد علمت ان حبكِ غالب على قلب فريد حتى ملكتِ قياده فانكِ تتعالين وتشمخين بانفكِ . . . تبًا لكِ وآهًا منك ! ! . . . وسحقًا لفريد الذي اصاره حزنه رحمته وخسة طبعه الى حالٍ تشبه ان تكون خيانة ! ! . . .

واشتد به الغم والانفعال فسقط على الكرسي لا يعي وخيلت اليه لوئزة كافظع ما تكون من النساء وخيل له اندراوس ميتًا وتراءت له اشباح الذين ذهبوا بمكايده وكان

دم نسيب وميخائيل اللبناوي ينادي عليه بالانتقام ... الانتقام .. . فنهض من فوره ونظر في الساعة فاذا قد مرّ ثلاثون دقيقة من ذهاب ميروبا فتجلد وناجى نفسه ان ليس هذا وقت الجزع والهلع ولكن وقت العمل وجعل يعلل نفسه ببلوغ الوطر واخرج لفافة تبغ واشعلها وخرج والليل قد انتصف والناس منصرفون الى منازلهم من مجالس السمر وسار كمن يسري همومه في ذلك الظلام المدلهمّ حتى اذا بلغ دار الحكومة وجد لدى بابها عربة وبعض الشرط فسال احد من حضر عن سبب الجلبة فاجابه: «قتيل مجهول وجد في جهة المنارة داخل عربة فأمسك سائقها ووقف». فتقدم الروسة فبصر برجل بين شرطيين يخفرانه ذاهبًا الى مكان التوقيف وكان الرجل ذيبو فتراسلا بالالحاظ ايحاء الى كتم السر والاحتراز من كشف الغطاء . اما العربة فسارت وعليها جثة القتيل والى جانب من يسوقها رجل من البوليس فاستبشر الروسة وزايله القنوط من الفرج بما وفق له من الوصول الى ذيبو ومشاهدة الجثة في آن واحد ولو ابطأ بضع دقائق لفاتته الفرصة وسمع البوليس يقول للسائق سر بنا صوب الكرنتينة واذ كان الروسة ينتظر رجوع اعوانه سعى للعلم بما اذا كانت الجثة تبقى ليلتئذٍ هناك لينظر في وجه العمل فما كان منه الاّ جدّ في اثر العربة وعاج بمنزله في الرميله وبدّل ثيابه دفعًا للريبة فيه من اجل مجيئه دار الحكومة ثم اتباعه الجثة وما بلغ باب الكرنتينة حتى صادفته العربة راجعة وعليها السائق وحده ولاح له النور في احدى غرف الكرنتينة فايقن بان القتيل هناك يخفره البوليس ورجع ادراجه الى بيته وكانت الليلة مظلمة كما مرّ وبعد برهة سمع صكة مستفتح وفق العلامة المعهودة فابتدر فتح الباب فاذا بيروبا ومعه آخرون من جماعته فجلس اليهم الروسة يذاكرهم الامر وقد مضى ثلثا الليل فقال ميروبا ها نحن يامولاي سبعة رجال بين يديك وكلٌّ منا موطن نفسه على المخاطرة بحياته في ادراك الغاية المبتغاة فنظر اليهم جميعًا ونقدهم ما اعدّ لهم من الدراهم جعلاً وقال: اني لواثق بفرط مودتكم وثباتكم وهذا جزاؤكم معجلاً فوق ما لكم من الراتب ما ستنالون من المكافأة العظمى متى فزنا بالمقصود واقبل على ميروبا وقال: لقد تبصرت في الامر مليًا وذهبت للبحث عما جرى فتحققت موضع القاتل والقتيل فيلزمنا الآن ان نقدّم دفعة واحدة على طلبهما واخراجهما معًا من حيث هما موضوعان فالقول لي السمع باجمعكم ابثكم عما عزمت عليه وهيأته من التدابير فاول ما ينبغي ان ننقسم ثلاثة اقسام الاول يسعى في تخليص ذيبو من ايدي الشرطة ويكون على زعامة هذا القسم ميروبا والقسمان الآخران ينطلقان في طلب الجثة من الكرنتينة ويكونان بزعامتي وغيره

خافٍ عنكم ما هناك من الامر المهم بيدَ أن ثقتي بشدة اقدامكم وصحة عزائمكم وفرط مودتكم لي تقوي رجائي في بلوغ الارب . فسر انت ياميروبا في اثنين من رفاقك الى بيت خمرة بسوق النجارين وذاكرها وجه الاحتيال لتخليص ذيبو وهانذا منطلق بالاخرين في طلب جثة القتيل . وهكذا آكلوا وشربوا وتسلحوا بالطبنجات والخناجر وافترقوا فريقين وكل منهما على علمٍ كافٍ بما يفعل الآخر لنجاح المسعى الذميم

✻ ١٦ ✻

وكان الشرط ومامورو العدلية قد فرغوا من اعمالهم في صدد تحقيقات الجناية فانصرفوا على قصد معاودة البحث في الغد ولم يتخلف ثمة غير خفير من البوليس وبعض جند المراقبة وبينما هم يتهوّمون لشدة ما نالهم من الجهد والعناء في تحقيقات حادثة القتيل اذا بامرأة متأزرة تنادي الخفير وتوقظه مستصرخة فانتبه وفتح الباب فوجد خمرة فقال لها ما شانك ايتها المرأة في هذا الليل ؟ فاجابت مظهرة شدة الاضطراب والقلق ان زمرة من الاشقياء غشوا منزلي ـ ومهنتي معلومة ـ وطلبوا السلافة فجئتهم بها فشربوا حتى لعبت سورتها باعطافهم ودارت في رؤوسهم فقاموا وانقسموا حزبين واحال بعضهم على بعض بالمدى يتضاربون فهالني الامر واسرعت اليكم لاخبركم واسالكم المداركة والاَّ وجدتم في الغد بضعة جرحى وربما كان فيهم قتيل . فدعا من بقي عنده من رجال الدرك وانطلق بهم مغادرًا السجان وحده وغفل في خلال ذلك عن ثلاثة رجال دخلوا الى دار الحكومة واختبأوا في ممشى الطبقة الثانية منها وعلى اثر انطلاق البوليس واعوانه ومعهم المرأة خمرة الى حانتها فوجئ السجان بضربة شديدة على ام راسه القته مغيًّ عليه وابتدر ميروبا ان اخذ منه مفاتيح السجن واطلق ذيبو ومضى به ورفيقيه مسرعين في الهرب الى ناحية الرميله واختبأوا ثمة بمنزل الروسة وما لبثوا ان جاءتهم خمرة واخبرتهم ان الشرطة ذهبوا الى حانتها فلم يجدوا فيها غير قطرات الدم على بعض الامتعة فاستدلوا بذلك على صدق ما قالت وان المتضاربين اركنوا الى الفرار خوفًا من الدرك وهي ما عتمت ان برحت حانتها مخافة ان تتهم بمشاركة الجاني الهارب

ولما اتمت خمرة كلامها صافحها ذيبو وشكرها قائلاً : انكِ بهذه الحيلة مهدت لي سبيل النجاة والاَّ كنت هلكت لا محالة

قال ميروبا لاشك ان مولانا ذو تدابير سديدة وآراء صائبة ولسوف يعرف لك

ياخمرة ما صنعت وينيالك اضعاف ما خسرتِ وضاع عليكِ هجر منزلك وتعدُّل حالتك بحيث صار من الممتنع عودك اليها

ـ انت تعلم اني لا اعدل بالمال شيئاً ولهذا فان وعدك اياي بجزيل العوض يذهب غمي من اجل ما تركت هناك من الموائد والكراسي والمسكرات

ـ ستنالين العوض مضاعفاً وتعطين فوقه جزاء حسناً واراكِ قد استصحبت ما تملكين من النقود والحلى لاني كنت انذرتكِ بغشيان مأموري الحكومة منزلك وتفتيشه ارتياباً بكونكِ ذات خلطة في تسهيل هرب ذيبو من الحبس

ـ أجل قد استصحبت ذلك لامحالة

وكان في علم ميروبا وذيبو انها لا شك قد جمعت اموالاً كثيرة فنظر احدهما الى الآخر كالمتغامزين عليها ولم يكن لهما من زاجر ولا وازع عن الانبعاث في المعاصي والمنكرات طمعاً في الكسب فقال ميروبا لخمرة لابد ان تكوني محتاجة الى الراحة لكثرة ما كابدت من اهوال الليل فادخلي بيت المائدة تجدي عجالة من الطعام وزجاجة خمر واذا اكلتِ شيئاً وشربت كاساً عادت اليك القوة

ـ اكرم بك من خلٍ وفيٍ ذكي وها انا داخلة آخذ ما احتاج اليه اكلاً وشرباً

وحين خلا ميروبا برفاقه قال لهم: ان هذه الليلة كثيرة المغانم والمكاسب فقد تسنىٰ لنا فيها تخليص ذيبو من السجن واراها فائزين بمكافاة جزيلة من لدن مولانا الروسه وها ان لدينا غنيمة اخرى نضارعها ولا يلزمنا فيها غير ما تعودنا من العمل ـ وكل امرء من دهره ما تعوّدا ـ ذلك ان نفاجيء خمرة بطعنة بكر ونسلبها مالها ونقتسمه ما بيننا وانا اعرف تحت هذا المنزل نفقاً (سرداباً) قد احتفرة الروسة منذ زمن طويل لاخفاء جثث القتلى فلا تظهر مكايده وهو ولا مراء منقطع القرين في حيله وتدابيره فهلمّ نفتك بهذه المرأة ونخفي جثتها ونغنم مالديها ولا يدري بنا احد وان سألنا هو عنها قلنا له لم تعد الى هنا . وقد كان اخبرني انه غادر النفق مفتوحاً هذه الليلة لاخفاء ذيبو المهرب من الحبس عند الحاجة اي اذا ارتابت الشرطة في صاحب هذا البيت وجاءت تفتشه وانا لا ارى من حاجة الى اخفاء ذيبو لان الشرطة لم تدرِ بامرنا ولم تنتبه الينا فهلمّ نقدم على اغتيال خمرة والروسة لا يرجع الا بعد ساعة ريثما يتم عمله ففي هذه البرهة يمكننا ان نبطش بعشرين امرأةً مثل خمرة

فوافقوه على رايه ودخلوا كافةً بيت المائدة وقام ميروبا امام خمرة وهي تاكل وقال: لها لابد ان تكوني دهشتِ عند مشاهدتك الشرطة فلم ترفع اليه راساً واستمرت

مكبة على الاكل فباغتها ذيبو بطعنة خنجر تحت ابطها الايسر فنفذ قلبها ولم تفه بكلمة وقضت حالاً فنقلها ميروبا الى النفق وواراها في اقصاه وعاد من فوره وقاسم رفاقه ما تركت من الحلى والدراهم وغسل ما ارفض من الدم حتى لم يبقَ له اثر يستدل به على الجناية وقعدوا فرحين بما اصابوا من المغنم لا يشعرون من انفسهم بما نوبب ضمير على فظاعة جريرتهم لاعتيادهم الشر كما مرّ ودعاهم ميروبا لشرب المدام وتناول الطعام فقاموا وداروا بالمائدة ياكلون ويشربون في نهمة وانهماك

اما خفير جثة القتيل فوضعها في الكرنتينة حيث امرت الحكومة ان توضع وما كاد يرقد حتى دق عليه الباب رجل في زيّ بوليس خارج من عربة واقفة ثمة وصاح به : افتح الباب فنهض وسأله من انت ؟

— مامور من قبل الشرطة آتٍ بقتيل آخر لوضع جثته مع جثة القتيل الاول والظاهر ان هذه الليلة كثيرة الحوادث

ففتح الخفير الباب فاذا برجل في زيّ بوليس قائم حذاء عربة لم يعرفه فقال له امهلني في نقل هذه الجثة ريثما افتح باب الحجرة التي فيها الجثة الاولى وعاد الى داخل الكرنتينة فتبعه البوليس الكاذب وسائق العربة وبينما هو متشاغل في فتح باب الحجرة اذا بيد قوية قبضت على يديه واخرى سدّت فاه بمنديل مخافة ان يستصرخ وجعل على عينيه غطاء منعه ان يبصر ما يجرى عدا ان شدة الظلمة ما كانت لتمكن من رؤية شيء — وانما اراد الروسة مزيد الاحتراز وكان هو واحد رجاله في زي بوليس وسائق عربة — وما لبثا ان ادخلا الخفير حجرة جثة اللياوي القتيل واوثقا رجليه وشداه الى حديد النافذة وذهبا بالجثة صوب البحر وكان على الشاطىء رجلان في زيّ النوتية وانما هما من اشياع الروسة بانا يتوقعان المعاونة في سرقة الجثة وحملها على قارب معهما والذهاب بها على ان الامر لم يحوج الى المساعدة فان الروسة قد استطاع بلوغ المرام بحيلته ودهائه واشار الى سائق العربة ان يعود بها الى منزله في محلة الرميله بعد اغلاق باب الكرنتينة وانطلق هو والبحرية بالجثة على القارب الى وسط البحر والقوها مثقلة بحجر كبير وسكن بال الروسة وأمن تبعة الجناية باختفاء اثرها . وما مرّ ساعة حتى تواثبوا كافةً في المنزل المعهود بالرميلة وجعل كل فريق يقص خبره على الآخر وما صنعوا لنجح السعي فشكر لهم الروسة واعطى كل واحد منهم جُعْله وذكر المرأة خمرة فطلبها وسأل عنها ميروبا فقال : رايتها مع رجال الدرك حين استدعتهم الى منزلها ولما تعد فعسى ان تعود بعد الآن فسكت الروسة وطابت نفسه بما تأتىّ له من نجاح العمل

بيدَ أنهُ لم يخلُ من هاجس وقوع خمرة في ايدي الشرطة وعدم تمكنها من الفرار فيقع في المحذور الذي توقاه وطفق يفكر في الامر وقال في نفسه : اراني ابدًا في قلق من جهة اتباعي الذين اتخذتهم اعوانًا لادراك الارب لان حياتي لا تزال عرضة لاخطار اعمالهم واحوالهم فان افشى احدهم السر هلكت لا محالة . ثم خطر بباله ان يلتمس وجه التخلص منهم دفعة واحدة فهالهُ الامر لاول وهلة من تصوره فقال لزملائه : اني اراكم في نصب وتعب شديد واجدني مثلكم كثير العناء فلذلك انا ذاهب لاخذ قسطي من الراحة في غرفتي وامكثوا انتم هذه الليلة في منزلي اذ لا ينبغي ان تخرجوا منه مخافة ان تصادفكم الشرطة في خلال بحثها عن الفارّ من السجن فيحدث ما يسوءُنا ولكن اذا كنا من الغد نتسقط الاخبار عن المرأة خمرة . وها ان لكم في هذه الردهة ما تحتاجون اليه من الفرش والوسادات والحف فارقدوا آمنين . وكان التعب قد اخذ منهم ماخذه فرقدوا باجمعهم

اما الروسة فولج غرفته والهواجس تساوره لا يجد طمانينة ولا راحة كما كان يامل بعد اخفاء اثر الجريمة بقتل ميخائيل اللياوي فانه كان يخاف لحوق الدرك والتبعة وفيما هو يفكر اذ عاوده هاجس التماس التخلص من اتباعه بمرة واحدة ولكنه لم يخلُ من هول الامر . ثم ذكر النفق (السرداب) الذي اعدّه لاخفاء جثث القتلى وكان منذ حين طويل لم يدخله وتذكر ان بابه غير موصد ولبث على مثل هذه الحال من التفكير نحو ربع ساعة فخطر له ان يقفل باب النفق فاخذ شمعة موقدة من غرفته والمفتاح وجاز على باب مرقد اتباعه فرآه مفتوحًا وسمعهم كلهم يغطون غطيطًا وقد استثقلوا في نومهم كالاموات لشدة ما كابدوا ذلك الليل فحدثته نفسه : ها هم هؤلاء باجمعهم راقدون مطمئنون وانا لم ازل في ارق وقلق ! ... واذ بلغ باب الدهليز او النفق بصر بنقطة دم فحقق النظر فيها ومسها فوجدها طريّة فارتاع واضطرب لعدم علمه بان احدًا اتى المكان ورابه ما رآه من نقط الدم العبيط

وكان للروسة جنان كأنه من صوّان لا يخامره خوف ولا جزع فاقدم على طلب السبب ودخل السرداب غير هياب فالفى في اقصاه جثة امرأة طعين بمدية طعنة بكرًا فتفرس بها فاذا هي خمرة وليس عليها شيء من الحلى وليس لديها شيء من النقود فما شك ان ميروبا ورفاقه قد فتكوا بها طمعًا بكسب ما توهموا معها من المال اللائق على انه اوعز اليها ان تهجر منزلها . وعندئذٍ اطمأنَّ قلبه من جهة خمرة وتحقق ان رجاله لا يتحرجون من الاقدام على ايّ جريرة حبًا بالسحت والكسب فاوجس خيفة من ان ذلك يزين لهم الغدر به فيقتلونه عدا انه كان يشفق من انكشاف الستر واعتلان السر

لكثرة مستودعيه المؤتمنين عليه — وكل سر جاوز الاثنين شاع — فعاد الى غرفته وناجته نفسه: ان لا بد له من التخلص من القلق والحذر المستمر وانه قادر تلك الليلة ان يذيق اولئك الاشرار الاثمة وبال جنايتهم على خمرة وبذلك يصيب الاموال التي لديهم ويمكنه ان يعتاض عنهم بسواهم عند الحاجة ٠٠ فان له اعوانًا كثيرين في سبيل غير هذه المسالة يختار منهم من يوافق ٠٠ فلو فتك بهولاء الليلة لم يبق من الواقفين على داخلة امره في قصة غادة البقاع الا ذيب لكونه غائبًا لم يشترك في اعمال هذه الليلة الليلاء ٠ واما فريد وغادة البقاع فهما في وثاق شديد لا يستطيعان افشاء السر المكتوم ٠٠ وكان الروسة يتمشى في غرفته ذاهلاً متوزع القلب الى ان صمم العزم على اهلاكهم بيانًا وقال في نفسه اليس هم الالى اغتالوا خمرة فاحرى بهم ان يموتوا ٠٠ وقد مرّ ان الروسة ما كان ليتحرج من سفك الدم ولا يتقي الاثم ولكنه كان يخاف سطوة رجال الحكومة ونزول العقوبة به

فطفق يدبر على هلاكهم وبدا له ولم يطل الفكرة وجاء حيث كانوا نيامًا مستثقلين وملأ كانونًا من الفحم وجعل فيه بعض جمرات ثم استشعر ريح المنون تتصاعد من الكانون فتبسم تبسم الآثم المجرم واطبق باب المرقد عليهم وعاد الى غرفته يرعد من الخوف وتعاورته الهواجس والوساوس ولبث يكابد الليل ويتبرم باهواله بيد انه كان يهوّن البلاء على نفسه ويتلهى بامل التخلص من الذين يخشى عاقبة شرهم ولا يرجو منهم مزيد خير له وان فقدهم بغتةً لا يوجه عليه الظنة لان تعاملهم بحاجاته لم يكن مشهورًا فضلاً انهم من سفلة الناس قل من يسال عنهم ويعنى في شانهم فيغلب على الظن انهم هاجروا من الوطن الى بلاد بعيدة

ثم اخذ خنجرًا ويده ترتعش وفتح باب الغرفة حيث كانوا سبعتهم راقدين واسرع في تفتيح النوافذ تجديدًا للهواء الساكن خوفًا مما انتشر من غاز الفحم المتوقد هناك وتفقدهم أحادَ أحادَ فاذا بهم جميعهم قد صاروا الى حال النزع وربما كان بعضهم قد قضوا اختناقًا بريح وقود الفحم فاقبل يطعنهم بالخنجر كلاً في صدره الشمال غير مبقٍ على احد ولم يبدوا حركة على الاطلاق لانهم انتقلوا من سبات الرقاد الى سبات سمّ الفحم ومنه الى الردى التام وكذلك كان جزاء الظالمين الاشرار! ٠٠

اصبر على كيد البغاة م فانهم هدفُ العطب

والنار تاكل بعضها بعضًا اذا نفد الحطب

وابتدر الروسة نقل الجثث الى غرفة صغيرة داخل السرداب بعد اخذ الاسلاب وكانت مالاً كثيرًا من حلى ونقود كانت للمرأة خمرة وغير ذلك من الاموال التي

كانت معهم واوصد الباب على القتلى وعاد بمحو كل اثر لهم ولزم غرفته بقية ليلته الهائلة ولكنه لم يجد لنفسه راحة ولا طمانينة فكلما حاول النوم تمثلت نصب عينيه اشباح الهلكى فارتاع وما زال كذلك الى قبيل الفجر فذاق النوم تهويمًا وكان يتعاورُ فرقًا وقلقًا من روءيا ارواح القتلى نسيب وميخائيل اللباوي البربثين وخمرة وميروبا وذيو وحنوش وجلواد ودعبوس وسائر من مالاه على اتيان المعاصي وفعل المنكرات فكل هولاء كانوا يجلون اليه في الروءيا على صور مخيفة هائلة طالبين الانتقام منه على ان نسيبًا وميخائيل قد رآهما كملاكين بهيين مجردين سيف النقمة على هامته بخلاف الباقين فانهم ظهروا ثيا كالحيتان والتنانين غائصين فاغري الافواه مزبدي الاشداق منقلبي الاحداق تنقدح منها النار واظفارهم كمخالب السباع الضارية تهمُّ ان تنشب فيه . ثم تمثل له غيرهم ممن ذهبوا بمكايده وحبائله وكان الكل يصيحون عليه عن بواء واحد طلبًا للانتقام ! . . . الانتقام ! . . . الانتقام ! . . .

١٧

اتم الروسة كل هذه الجرائم المستفظعة في يوم وليل واحد — صرع اندراوس في مقصورة لوءلوءة زوجته عصر النهار واغتال ميخائيل اللباوي مساء واحتال لانقاذ القاتل من السجن وخطف جثة القتيل من الكرنتينة وفتك باتباعه ليلاً وقبيل الفجر فرغ من اعماله كلها

ولما جاء ذيب صاحب المرأة خمرة يسأل الروسة عنها قال له : فرّت خوفًا من ارباب الحكومة ولا يدرى اين ذهبت وانه انفذ ميروبا وذيبو ورفاقهما الى جزيرة بعيدة ابعادًا لهم عن اولي الامر . ثم اعطى ذيبًا خمسين ليرة يتلهى بها عن خمرة فاخذها ونفسه راضية تناجيه انه بمثل هذا المقدار من المال يجد عشر نساء خير من خمرة

وكان ان رجال الدرك لما عادوا من بيت خمرة الى دار الحكومة علموا ان المسجون قد هرب ورأوا السجان ملقى يئنُّ من شدة ما ناله من اذى المعتدين عليه فرقوا له ورفقوا به الى ان حدثهم بما وقع فايقنوا بان هناك خدعة وحيلة ساقتها اليهم المرأة الطارقة باب الشرطة فانقلبوا من فورهم الى منزلها فلم يجدوا احدًا وقنطوا من نتيجة البحث في جنح الظلام الدامس فسكنوا وبكروا في طلب جثة القتيل من الكرنتينة فاذا بابها مفتوح فطفقوا يدورون طلبًا للخفير فلم يثقفوه ودخل الضابط موضع الجثة فالفى الخفير موثقًا فحل وثاقه وسأله فاخبره بما جرى عليه في ذلك الليل وابلغ الخبر الى ادارة

الشرطة فبثت العيون والارصاد طلبًا لمن اقدموا على هذا العمل الحسيم واشكل الامر ولم يهتدِ الباحثون الى وجه الحقيقة فاعيد استيضاح السجان وخفير الجثة عما اذا كان عندهم ادلة على معرفة الفاعلين فلم يزيدا على ما افادا مما شاهدا اخبارًا مجردًا عن القرائن والادلة . وما كان للضابطة معرفة بهويَّة ميخائيل اللياوي الاَّ ما تبسط من تقريرات مرغريتا الخادمة في بيته انه هو القتيل نفسه ولكن ذلك لم يكن كافيًا ولا صالحًا لمدار الاتهام والحكم خصوصًا ان سائق العربة قد فرَّ من السجن وجثة القتيل قد سرقت واخفيت وكلاهما .ضيع لفائدة التحقيق

وقد علمت الخادمة مرغريتا من الشرطة ما كان وايقنت ان القتيل هو سيدها فقالت في نفسها : ان المصيبة تجرُّ المصيبة فصبر جميل !

ثم عادت الى البيت فوجدت اندراوس على حاله من فقد الحس وقد اشتدت به الحمى . واذ ذاك ورد بالتلغراف ان اخاه جورج اللياوي قادم البلدة صباح ١٢ ايار الحالي . واما عزيز فكان ذهب قبل حضورها لزيارة غادة البقاع واستخفى عند الدنف لهفان وشجعان وكان ان لؤلؤة اعياها الصبرُ والجلد على عدم مشاهدة اندراوس اذ لم يبلغها عزيز ما يخفف قلقها وخوفها وذكرت ان ليس عند العليل سوى الخادمة وانه لم يرد جواب اخيه الدكتور جورج الذي كان منذ ايام خرج من الديار الاجنبية وان والده ميخائيل قد خفي اثره فبرحت مكانها وهي تلوم نفسها من اجل ما صار اليه الشاب بسببها وآلت لتلزمنَّ خدمته لو مهما لاقت من الطرد والاهانة وحين وصولها الى بيت اللياوي صادفت عزيزًا يهمُّ بالذهاب الى منزل غادة البقاع بمرآها يدلُّ على لهفها وجزعها فرقَّ لها وقال : امكثي هنا وعسى ان يكون شفاء هذا الفتى على يدك . . . وهكذا خلتهم ثلاثتهم قائمين على تمريضه وكان قد صار موضع ثقة مرغريتا التامة بما اظهر من عواطف الحنو والحب في تمريض مولاها اندراوس حتى انها عادت تحبه مثله وكتب في استخلافه الرجلين والمرأة لرعاية الفتى وانطلق الى غادة البقاع كما مرَّ

وقد اسلفنا تفصيل زيارته الاولى لها وكيف انه سمع ووعى ما دار بينها وبين الامير فريد من المحاورة حيث خبأته في الغرفة الملاصقة لتصورتها بيانًا لفرط ادلالها وسطوة هواها على قلب فريد . وان فريدًا اعلمها بمقتل اللياوي وان قاتله — احد اتباعه — قد طُلب وأُدرك وانها بناء على مشورة فريد كانت قادرة ان تقول للشرطة كلمة واحدة تكفي في هلاك الروسة وذويه ذلك بتعريف اسم المسجون وتبيين هوية القتيل وما

امران تجهلها الحكومة وعلى هذا القصد فارقها عزيز وعاد الى بيت اندراوس لمزيد الاستعلام فالفى شجعان ينتظره لدى الباب وهو مضطرب كاسف البال فاوجس خيفةً وما لبث شجعان ان اخبره عما جرى من احياء جثة القتيل وفرار القاتل من السجن وكانت مرغريتا خبرته الخبر بعد رجوعها من ادارة الشرطة فعاد عزيز من فوره الى غادة البقاع فوجدها تتاهب للخروج مصممة العزم على مكاشفة رجال الحكومة ودفع الرسالة اليهم ليحيطوا علمًا بالحقيقة اذ لم تكن لتريد ان تفضح عن فريد وبما انه هو نفسه كان يهد وسائل الانتقام عمدت الى انزال العقوبة فيه جزاء ما قدمت يداه من الجرائم

و بعد ان لبست ثوب الصينة وامرت باعداد العربة للركوب وهمت بالخروج قصد دار الحكومة اتاها عزيز كما مرّ — وكان منذ قليل عندها — والحّ عليها في طلب التثبط فاجابته ودعته الى ردهة الاستقبال قلقة خائفة من وقوع خطب هائل فاعلمها بما كان وانصرف ولبثت في مذهلة متعوذة من مكر اولئك الاشرار

﴿ ١٨ ﴾

ثم ان غادة البقاع نادت الخادم فجاء فامرته ان ينظر هل سيده الامير فريد في مكتبه فانطلق وعاد مسرعًا وقال نعم هو في المكتب فدخلت عليه فالفته على كرسي كبير و يداه مقبضتان الى صدره لا يكتب ولا يقرأ وهو غائص في بحر الهواجس كمن به خبال او يتوقع امرًا ذا بال وكانت حاله اشبه شيء بالحال التي دارت فيها تلك المحاورة بينه و بين غادة البقاع بسمع من عزيز وكان ممتقع اللون اصفر ومع ذلك لم يعدم رباطة الجاش حتى قيل انه كان راضيًا بالنجاة من ثقل الهموم التي كانت تكتنفه بعد عزمه على الامر بزيد للتجلد والاقدام وانه اضحى يتوقع حدوث حادث ليتم ما نواه فعلاً وكان على ساحة الكتابة بين يديه طبنجة سداسية محشوة مضلوعة الاداة

ولما رأى فريد امرأته داخلة حاول القيام فلم يستطع لشدة ضعفه لانه بعد ان تحرك وتهيأ للقيام جمد دمه وبردت عظامه بيد ان حضور غادة البقاع أثر فيه شديدًا فاحمرت وجنتاه جدًا وبدت محاجره شديدة الاصفرار وجعل يحدق ببصره الى الطبنجة التي امامه كأنه يهمّ ان يعانقها كيلا تفارقه طرفة عين

واما غادة البقاع فقد تبين في عينيها ومحياها الغضب والغمّ والانذار فتقدمت اليه وخاطبته بصوت اجش متهدج : انك منذ ساعة مثلت لديّ دورًا من روايتك الذميمة

فاجابها بانذهال : انا ؟

— نعم انت ابديت لي آية التوبة والندم مع اضمارك الخلاف وانت غير جدير بهذا ولا ذاك . . . الا تذكر ما قلت لي ؟

— بلى اذكر !

— هل لك ان نعيده ؟

— هاكِ ما قلت : اني اكون سعيدًا . . آه ! ياغادة البقاع اني لفرط محبتك . . ارى من اقصى سعادتي ان اهلك لاجلكِ وبكِ وبكِ ! ياراحة الروح ياعزيزتي المحبوبة التي احببتها ولا ابرح احبها واكرم يديها واطمئن لديها ولو اتتني من قبلها الطعنة القاضية . . . دونك ما قلت ياغادة البقاع . . .

— بل زدت على ذلك انه يوجد وسيلة محققة تؤدي الى هلاكك وهلاك الروسة معًا وهي ان اذهب الى الضابطة وادفع الرسالة التي ضمنتها ما فعلتما من المظالم والجرائم واخبرها بان قاتل اللياوي هو ذبيبو تابع الروسه وان الجثة هي جثة ميخائيل اللياوي بعينه . ثم اجيءُ عند المستنطق واقول له : ان ميخائيل اللياوي قسيمي في تركة عطاية واوضح له المكيدة التي ذهب بها الرجل المذكور واقص عليه قصتي من ذي تبدئت وما لاقيت من الاهوال وشدة الوبال لاجل التركة

— صدقتِ اني قلت لك كل ذلك . . . وانكِ فاعلة كذلك الم يتمّ الامر ؟ . . . فانتِ ملاقية دوائر العدلية . . . واراني هالكًا لامحالة وهانذا متوقع القضاء . . . اذ اني عزمت عزمًا لا رجوع عنه . . . قال هذا وقبض على الطبنجة واشار اليها قائلاً : اعلمي ان من ياتون في طلبي الى دار الحكومة لا يجدونني حيًا !

وكانت غادة البقاع تنظر اليه بعين الازدراء والاحتقار متضاحكة هزءًا به وقالت : لاشك ان ما تصنع لهو رواية محزنة ! . . . حاولت ان تسترقني وتستعطفني باظهار الندامة ولا اثر لها في قلبك

— غادة البقاع ! . . .

— ولي ادلة قاطعة على ذلك . . . انك حين كنت تشير عليَّ بالتوجه الى دار الحكومة كنت عالمًا بفوات الفرصة الممكنة من الشكوى آمنًا كل الامن من المحذور

— انىّ ذلك ؟

— اواه منك انك لذو مكر ودهاء عجيب تحسن تمثيل نوبتك في الرواية بغاية الاتمام والاحكام

— اسألكِ مزيد البيان

— اني عرفت كل شيء

— اما انا فاقسم لكِ باني لا اعلم شيئاً

— اعلم انك « اذ كنت تقول لي اذا عرف القاتل كان بمعرفته بوارنا » كنت متحققاً ان جثة ميخائيل اللباوي قد سرقت من موضعها

— ماذا تقولين ؟ فرّ ذيبو من السجن وسرقت جثة اللباوي فما هذا النبأ الغريب الذي ترويته ؟

— انه الحق وانت ادرى به من كل انسان . . .

فنهض فريد ودنا الى غادة البقاع صامتاً واثقاً بصدقها وقال : ومن انبأكِ بذلك ؟

— لا يعنيك هذا كثيراً ! . . .

اما فريد فاطرق متاملاً ثم رفع راسه وقال : هكذا ظننت ياغادة البقاع اني مثلت دوراً من الرواية اوّاه ! فبالحق لو كنت فعلت كما تتوهمين لجئت بها رواية منكرة ولست انكر انها منكرة كل الانكار . . .

— وهل لك ان تنكر الآن ؟

— بشدة — نعم نعم . . . اقسم لكِ اني منذ خمس دقائق قبل دخولك عليّ كنت جاهلاً كل ما اعلمتني به . . . آه ! ياغادة البقاع صدقي وتحققي اني سئمت الحياة وثقل عليّ عبء ذنوبي او بالحري اوّاه انما ذلك عبء جناياتي . . . فلا اطيق ان تضيفي عليه عبء آثام اجهلها . . . اقسم لكِ ياغادة البقاع بحياتك عينها التي هي اعزّ شيء عندي واجلها غاية الاجلال اقسم لكِ باني لواجد سعادتي بضربة بكر من قبلكِ . . . اني مللت الحيوة . . . وقد نغصها غضبك اليّ كثيراً حتى لم يبق بي طاقة على احتمالها . . . اوّاه أتراكِ مصرة على عدم تصديق كلامي ؟ فماذا عسى ان اقول ؟ وماذا اصنع ؟ انكِ ما زلت متفردة عني غير مبالية بشدة حالي وبلبالي حتى جهلتِ ما انا عليه من الالم وما اصابني من السقم . . . كنت املت ان اطيب نفساً بادراك الوطر من الجاه والشرف وعلو القدر وطمعت ان ذلك ينسيني حبك ويحل محله فغامرت في مباشرة حسام الامور وتجشمت مواءمة اهل البيوتات المتشاغلين بالاعمال المالية فافلحت ونجح مسعاي في ذلك جميعه فعلت منزلتي ونفذت كلمتي وبلغت ارفع الدرجات وربحت مالاً جزيلاً على ان كل ذلك لم يبلغني المنى ولم يغن عن حبكِ شيئاً بل زادني حسرة لقد نلت كل مأرب وكأني لم انل شيئاً من الراحة لعدم اصابتي البغية بان

اسلو محبتكِ وأنسى ذلك الود الذي لم أكن اهلاً بان اجد مثله ... فاني كنت ازداد لكِ وجداً كلما حاولت السلوّ أفلم تلاحظي ذلك؟ كلما اردت البعد عنكِ وجدت هواكِ اعلق بقلبي .. اما انا اليوم يا غادة البقاع لو مهما كنت حقيراً ذليلا غير مستحق منك هذا الالتفات فلا اقنط .. فان النساء قد طبعن على الشفقة والحنو وحب الصفح الجميل ! .. واني تارك كل شيء اذ لم اجد مسلاةً عن محبتك وانما حياتي لاجل حبك ... وقد غادرت الاعمال المالية لمن هم اقل مني وسعاً ومعرفة وتادت الشواغل السياسية لا تهمني فقد كان في امكاني ان انال المناصب العالية ولم اردها لاني راغب عن كل امر من امور الدنيا وقفاً لنفسي في سبيل خدمتك . ولولا ان كنتِ يا غادة البقاع بعيدة عني لعرفتِ اني قلما ابرح هذه الغرفة معهد معدّات علمي وقد جعلتها مرقدي لاني كثيراً انام فيها وكلما نمت على هذا الكرسي ... استرحت بعض الشيء من احزاني اذ لم يبقَ لي من وجهٍ للتسلّي والتأسي ... اعلمي ايتها السيدة وليزايلكِ الشك في كوني مخاتلاً .. واعلمي ان ليس دأبي المكر والخداع

فلم تجبه بكلمة ولبثت عابسة . فتقدم اليها وقد هاج الدم في راسه كمن اصابه مسٌ او طرف من الجنون فقالت : هذا جزاء ما قدمته يداك من المساوىء المستفظعة . مطفق يمشي في قاعة الدار وبيده الغدارة وجعلها بين يدي الغادة وقال : اقتليني .. اقتليني ... فانجو من احزاني واكفى شرّ هذا العذاب . اما هي فانادت اليه الغدارة قائلة : كلاّ لا ارتكب جرماً .. واني لاعلم انك بذلك تجد مناصاً من العذاب وما كنت لاريد تخفيف عذابك لانك لم ترقّ لي وتشفق عليّ في نوبتك ..

فازداد ارتياباً وطارت نسمة شعاعاً وعدم الصبر والجلد لما تبين من كامن البغضاء له عند الفتاة حتى خيلَ اليه ان قلبها صار اقسى من الحجر الصلد لا يلين بالتذلل لها والاستعطاف . وما كانت قبل معرفته تعرف غير الحب الخالص لخطيبها عزيز على ان فريداً اشرب فؤادها الحقد والنقمة وحوّله من اللين الى القسوة الدائمة بما جرعها من غصص الحسرات وجشمها من المحن والبليات ـ ثم قال لها وصوته يتهدج : اتعلمي اني حملت هذه الغدارة في جيبي لتوقعي بين وقتٍ وآخر مجيء الشرطة للقبض عليّ بدءً على وشايتك ولكنها لا تجد الاّ قتيلاً . أتحسبين هذا ضرباً من الرواية ؟ ولما وصلت هذه الغرفة ظننتِ انك جئتِ لتقولي لي ان كل شيء قد تمّ وانكِ آتية لتشمتي بهلاكي ولكني لا اهلك يا غادة البقاع قبل ان اقول لكِ اني بذلت غاية جهدي لانقاذ هذه العائلة التعيسة عائلة ميخائيل الليماوي من شر مكايد الروسة الذي صرت افكره كما

اسعر تكرهينه بل اراني اشد منك له مقتاً ... على رجاء ان تصدقي قولي في تلك الدقيقة الاخيرة — فاني حين دريت بما اضمر الروسة من السوء سعيت لانجاء اندراوس ... وتوجهت الى بيته وانذرته ليعجل الهرب ولكن يااسفي ان الحب ران على قلبه فلم يبصر — اوّاه من لي ان يجيي اندراوس ليشهد لك بحسن قصدي ... ويحقق اني لم اكن مسيئاً اليه ولا مجرماً بل بالحري اني سعيت في انقاذه عند موآتاة الفرصة بيد انه لسوء الجد قد مات او هو مائت !

— ولذلك اراك تستشهده لك علماً بانه لايستطيع ان يكذبك ولست بخائف ان ينبعث الميت فينتصب لتكذيبك وتبين محالك وافكك ! ...

— ينبغي ان تعلمي ان الروسة قد اوعز بقتل رجل آخر وسارعت في انجائه على غير علم منه وهو يمكنه ان يخبرك مما صنعت اليه ولماذا فعلت ؟ ... انما كان ذلك حباً بك ... وكل يعلم ان هذا الرجل قد مات وانت نفسك تحسبينه في عالم الاموات مع الذين درجوا ... والحال انه باق حي متوار عن العيان ... وهو يحبك وانت تحبينه كثيراً ... هو انسان لا قوة له ولا حولا شيخ جليل جامع بين الضعف واللطف ... انك مديونة له في حياتك ... وعليه انت لا بسة ثياب الحداد وتذكريه باسم والدك !

— والدي والدي ! ... قالت هذا بصوت عال ثم امسكت وانتهرته بقولها : يالك من شقي يفتري على من ذهب من دار الفناء الى دار البقاء

— حاشى حاشى لي من الافتراء

فقالت في نفسها والدي ! ووضعت يدها على جبهتها مخافة ان تجن من شدة الجزع وناجت نفسها متساءلة ماذا يقول هذا الانسان ؟ وعلى من يتكلم عن ابي ؟

— ان اباك لم يزل حياً ياغادة البقاع ...

فجعلت تكرر قولها والدي والدي أليس هو الذي وجدت رداءه وسفينته على شاطيء البحر ؟ وهو راقد الآن بسلام في منازل الابرار ... لا اصدق ما تقول يارجل ... فانك تفتري عليه بذكرك اياه . انه من جملة من يسألون الديان القهار مجازاتك مما جنيت عليهم ... فدع محالك ... والاّ فانت ذو جنون

— خففي عليك واعلمي يقيناً اني لست مجنوناً وما قصدت بيشراك خداعك مرة اخرى لظهور الحقيقة فان والدك حي ياغادة البقاع ...

نعم ان الامركان قد صدر باهلاكه من قبل الروسة كما كان صدر باغتيال عائلة

اللياوي وقتلك انت ايضاً لان بلاء الروسه لايكاد ينجو منه احد .. . ولكني تلافيت اباكِ واخفيته بحيث لاتناله ايدي الاشرار . اما الرداء والقارب فاظهرتهما ايهاماً لكِ وللروسة معاً اني بطشت بابيكِ وبهذه الحيلة تمكنت من ان ابقي عليه واقي حياته من مكايد الروسه

— لا جرم ان ذاك الانسان هو اشبه شيء بوحش ضارٍ !

اما فريد فخفض راسه خجلاً لان هذه الغضاضة لاحقة به و بالروسه كليهما لاشتراكهما في الشر والشقاوة . وما كان من غادة البتاع الا ان دنت من فريد وتفرست فيه وقد عاوده بعض الهدء والسكون لخامرة فؤاده بعض الامل في انها تسامحه وتصفح عنه فتنهد فقالت له : هل انت تكرم وتحترم شيئاً في الدنيا لاسألك ان تقسم لي به على صدق كلامك ! فاومأ براسه موجباً وقال : لا مقسم لي الا بكِ ياغادة البتاع اذ لاشيء في الدنيا احبه واحترمه الا — انتِ ...

— انا لا اكذب قولك هذا . واطرقت برهة تتبصر في ذلك

— فقال ياعزيزتي غادة البتاع . وعلت وجهه شئة الاصفرار وارتعدت مفاصله انفعالا من التاثرات رجاء ان ترضى عنه وتغتفر سيئاته وجعل يده على فؤاده تسكيناً لخفقان قلبه الشديد . فقالت له : اقسم لي انك غير كاذب وان والدي حيٌّ يرجى ... وانك انقذته من الهلكة الماثلة اغتيالاً كاللياوي .. . اقسم لي على ذلك بجهاتي انا برحمة ابيك وامك اللذين احببتهما واحترمتهما مدة عمرك السالفة

— وماذا ينفع قسمي فهل يحملك على حسن الاعتقاد واليقين ؟

— ها انت هذا تأتي التأكيد . وقد اعلت صوتها وداخلها الارتياب فيه

— اعيد قولي وما الفائدة ؟... الم يكن ايسر واسهل ان تنطلقي الى حيث هو وانذك مقيم ؟ واذا وجدته أيبقى عندكِ شك وريب ؟

— ان رايته بعيني يصح يقيني وينتفي ريبي فاين ابي اين هو الآن ؟

— في دير قريب من جسر المعاملتين

— هل من شيء يمنعني الانطلاق اليه فاراه !...

— لا شيء مطلقاً

فانشأت تنظر الى فريد ودلائل الارتياب بادية في وجهها فتبين ذلك منها وقال بصوت حزين : كأني بك تحسبين وراء كلامي ضرباً من المكر والخديعة

أجل انا لست آمنة الخداع ... اني لاخشاك واخاف مكايدك ... فانا ما

زلت في هذا القصر استدوح الدفاع عن اسمي متعرضة لمختلف الاهانات . . ولكن من لي متى ذهبت بي الى تلك الجهة ان لاتكيد لي كيدًا حيث لا استطيع سبيلا الى الاستغاثة عليك على حين تكون اشد مني حولا

—آه ... ياغادة البقاع ان ذنبي لايطاوعني وهو غالب على ارادتي فلست بمستطيع الحصول عليك ما لم تسلميني انت نفسك ... فتباعدت منه . . . فاشار اليها ان اطمئني وقال : ياغادة البقاع بعد ان قلت لك ما قلت وقررت ما قررت وصنعت ما صنعت في هذه الايام الاخيرة هل انت مصرّة على مقتي وبغضي شانك من اول الامر ؟ اني ما اسأت الى احد سواكِ اذ خطفتك وغيبتكِ عن والدكِ وحرمتكِ الراحه والسعادة (وكان صوته يخنفض ويتهدج) الى ان قال : واما انا أينك عن حبكِ ! . . . جبر ان ذنبي لعظيم لاني كنت بادىء بدء عادمًا شناشة المحبة من قلبي ... فالحب آلة للذنب ولهذا ياغادة البقاع بت اقاسي اشد العذاب . أكابد الآمًا لا اقدر ان اصف لكِ عظمها ونفسي تناجيني الك لا تتقي ابدًا بهذ الحب . . . وما كنت لاظن ان عواطف الهيام تتملكني كل هذا التملك حتى انها تستغرق سائر ايام حياتي فانها جعلت فيّ انقلابًا شديدًا ومحت من قلبي عواطف حياتي السالفة ايام كانت نفسي تسمو الى طلب الجاه والمجد وعزّ المناصب والشرف والترف لاجرم ان سلطان الهوى والغرام سلبني جميع ذلك واصبحت اليوم ياغادة البقاع اودُّ لو انحول الى مكان بعيد خفي لا يدري بي احد ولا يسال عني انسان فاعيش معكِ منفردًا في عزلة و وحدة واقضي باقي ايامي محققًا لكِ حبي وبدمي . . فقولي هلاَّ يكون ذلك منكِ ابدا

اما هي فلبثت صامتة وحوّلت نظرها عنه فاستتمّ كلامه بصوت متقطع بالبكاء مستعطفًا اياها وقال : بما اني لم اذنب الاّ اليكِ فانتِ وحدك قادرة ان تسامحيني . ..

— لم يكن اذاك منحصرًا فيّ فكثيرون غيري نالهم شر جرائمك

— اني بريء من الاثام التي فعلها الروسه اني اقسم لكِ على صحة ذلك . . . اقول ولم تلطخ يدي بنقطة من تلك الدماء المراقة ! . . .

واذ رأته يهمُّ بالدنو منها تباعدت عنه فاستتبع كلامه وقد ظهرت امارات القنوط والبأس وقال ، اني احلف لك باعظم الايمان على براءتي من مقتل نسيب الذي سعى لانقاذكِ حين صرت في ايدي رجال الروسه عند خروجك من قصر مراد بك ... وانا وحق حبكِ بريء من الجناية على ميخائيل البلاوي . . . كما اني بريء من جريمة

مثل اندراوس السابق

ــ اي اراني مصدقة كلامك ...

ــ أواه ياغادة القناع مري بما تشائين ... وقد ظهر في وجهه السرور لرجائه ادراك المرام

ــ أجل اني معتقدة بانك لم تؤمر باتيان تلك الفظائع ولم تشترك في المقاتل المذكورة ... ولكنك انت زميل فاعلها وخليطه ... فان بينك وبين ذلك الظالم الشرير عهدًا وثيقًا لا يمكنك التخلص من ربقته لو مهما فعلت ... انك بالدم المهراق اصبت هذه الثروة ... فان تهالكك على حب الترف وتهافتك على طلب الغنى قد حركا يد الروسه الباطشة فهذان القتيلان يقيمان شكايتك يوم الدين يوم لاتجزي نفس عن نفس شيئًا يوم تظهر الخفيات ويوخذ كل امرء بما قدمت يداه وربما تكون الشكوى موجهة عليك اولاً ... لانك بتهورك في هذه الشرور والسيئات المحيطة بك لالتطاخك بالدماء قد اضعت شرفك التالد ومناقب بيتك السامية وبهاءه المصحل ... قل ما الذي دعا الى مقتل نسيب وميخائيل اللياوي والى محاولة اهلاك اندراوس الاّ حب ادراك الثروة ولمن هذه الثروة ؟ ... فانما هي لك وللروسه وانت نفسك اخبرتني بذلك من قبل الم تتذكر ذلك ؟ فما عسى ان تكون النتيجة من كلامي فاحكم انت في الامر واعدل

اما فريد فخفض راسه وكانت شفتاه تحركان ناطقتين بما لا يفهم من اللفظ — وقد تشنج وكان ما لفظه : احق ما تقولين ! ... اما هي فهمّت بالانصراف فناداها : غادة القناع لاتبرحي هذا المكان مهلاً .. فما عليَّ ان افعل .. لارهن عن حي لكِ ! ... مري فاني رهن امرك بكل ما ترومين

— أعد حياة من ماتوا

— آه ! ... اواه ! ...

ــ اذن لا تسالني مشورة بل اعمل ما يامرك به ندمك ان كانت الندامة خامرت قلبك

وما لبثت ان مشت نحو الباب وبدالها فوقفت والتفتت ارادة ان تساله عن امر يهمها كثيرًا فعرف سبب وقوفها والتفاتها وقال . ما شانك وعمَّ ترومين بالسؤال ؟

— امر واحد

ــ وما هو ؟

— ما سبب طول كتمانك عني الاخبار ان والدي باقٍ حي ؟ . . وعلى مَ لوكنت حاولت بالحقيقة ان تنقذ اندراوس لجعلت محاولتك طي السر ؟

فزفر وتنهد وقال : ما كنت لاودّ ان اخفي عنكِ هذه الامور زمناً طويلاً . . الا فلو تعلمين انه لو ارتاب بي الروسه واحسّ مني بكره آثامه ومقت اعماله وهذه الثروة المكتسبة على اثر هذه الفظائع والمساوىء او لو درى ان اباكِ بولس البقاعي هو حيّ يرجى واني حاولت ابقاذ اندراوس لاصبح ولا شك عدوي الالدّ ؟

— أوانت تخاف هذا الانسان كما زعمت ؟

— نعم اني لاخافه كل الخوف آه ! لاتنكري قولي ولا تحتقري بي فانا لست اخافه واشفق منه على نفسي وانما ارتعد وارتاع من هوله عليكِ . . .

— عليّ !

— نعم لانه اذا احسّ منا بالخيانة لايؤمن ان يبادرنا كلينا بالانتقام . . . وفي الوسع ان يقاوم ما دمت اخالف مساعيه الشريرة ومقاصده الخبيثة مخالفة سرية . . . ولكن اذا جاهرت بمناصبته ومناوأته كما اني عازم ان افعل الآن لزم عن ذلك اثارة غضبه وايقاظ شره ولا يذهب عنكِ ما يبلغ بقوة غضبه من الامور . . . فيحتمل انه لا يكتفي بايذائي بل ينالكِ انت ايضاً بسوء وضرّ . . . ولكنك قلتِ لي ايتها السيدة ان اقتصر في الاستشارة على ندمي . . . فقولي لي بافادة البقاع اذا مضى ايام طويلة ورأيتِ ما فعلتِ بي . . . اذا كان يرجى ان تسقط من فيك كلمة تؤذن بالصفح . . . ولا اسالكِ الآن الاّ بعض الامل في ذلك . . . واودّ الاّ تمنعيني ان يلج فوادي رجاء ضعيف في ان يشرق شيء من النور على الليل الدامس الذي صارت اليه حياتي منذ بليت بحبكِ

وكان فريد يتكلم وصوته يرتجف وقلبه يخفق وجسمه متفانٍ حتى خيل انه مغشي عليه عند ختام حديثه وكان يواصل استعطافها . اما هي فمرت في مخيلتها صور الاعمال السالفة وما قاست في السنتين الاخيرتين منذ عرفت فريدًا من ضروب العنف والعذاب وانه جاء منزلها الاول وحملها على شدة كرهها له بما توسل به واحتال لاختطافها وسجنها وما تبع ذلك من الفظائع والمنكرات ثم ما كان من اكراهها على الاقتران به ولواحق ذلك المؤلمة وكيف انه لم يرقّ لها ولم يشفق عليها وغير مراعٍ شدة حبها لعزيز . ورأت انها لا تستطيع ان تصبر على البقاء مع مثله غاشما آثما ونظرت الى حالِ فريد وما صار اليه من ضعف المنة وقلة الحول وقلق البال وسأم الحياة وملها

وايضًا فان فريدًا درى بما كانت تفكر فيه فقال لها وصوته كصوت المخنوق او المحشرج : ياغادة البقاع ... اصغي لي واسمعي ... بيدأنها خرجت من الغرفة قبل ان يتمّ حديثه وهي صامتة لم تفه بكلمة

اما هو فوضع يده على راسهِ وتنهد تنهدًا خافتًا ومال على الكرسي حتى سقط راسه على المائدة وعدم الحركة بالاطلاق ... وكان قد أُغمي عليه

١٩

وجاء الليل ولم يفق فريد من غشيته المستمرّة او ان الاغماء افضى به الى الاستغراق في النوم المشبه السبات لشدة تعبه وكثرة غمه ؟

وكان ان خادمه الخاص قد استبطأ نداء مولاه اياه فقلق واشتد قلقه ودخل عليه الغرفة مسرعًا فوجده على الحال الموصوف وظن ان سيده الامير راقد رقاد الرحة فاحترز من ازعاجه بان خفف وطأته وخرج . اما فريد فلم يكن يسمع ولا يبصر شيئًا . ثم بعد ساعة دخل الخادم ثانية فالفى مولاه كما كان فانكر حاله وخيل اليه ان مصيبة المت به فصاح مضطربًا : مولاي ... مولاي ... فلم يجبه فجعل يده على كتف فريد فلم يستفق فهزّه بشدة فتحرك وفتح عينيه . وكان في الغرفة مصباحان موقدان فرأى الخادم وعرفه وفاق وعلم ان نوبة سبات ادركته من جرّاء ذهاب غادة البقاع زوجته فاشار الى الخادم بالانصراف قائلاً له : لاتدع احدًا يدخل عليَّ فينبغي ان آخذ قسطي من الراحة

— مولاي الا تامر باعداد الطعام ؟

— اني احب ان آكل في مرقدي هنا فهيّا بما تهيّأ وجيء من الطعام

وما مرّ غير خمس دقائق حتى اعدت المائدة في تلك الغرفة وما درى فريد الا ان الخادم يدعوه للاكل فامره بالخروج عنه ريثما يدعوه اليه

وكان فريد لم يزل مرتكسًا في تيهور الهواجس غائصًا في لجة الهموم والغموم وانما امر باحضار الطعام تلبيةً لدعوة الخادم لا لقصد الاكل لانه عدم القابلية بالكلية وما لبث ان جلس على كرسي كبير واخذته نوبة السبات وطفق يفكر في حالهِ وقد وهنت قواه ونحل بدنه وعاودته الهواجس والوساوس وتمثلت له صورة حياته السالفة وجراحة والة في قلبه وكأن آكلة تاكل جميع قواه وعلم عاقبة تفريطه وتهوره في مهاوي الغواية والضلال واقدامه على موارد بذل شرفهِ في سبيل المطامع السافلة الدنيئة حتى رضي

نفسه الاختلاط مع الاشرار ومشاركتهم في مساوئهم وجرائهم المستفظعة ... تهافت على حب الثروة فاصاب منها مغنمًا باردًا وكاد له ان يستاثر بالنصيب الاوفر منه وصار ذا مجدٍ مزوّق الظاهر ممزق الباطن في ظل عزٍ باطل زائل وعيش واسع بيد انه لم ينل بذلك الراحة وصار اشقى وانحس مما قبلاً بمئات من المرات واضحت حياته تنصرم وعمره ينقضي وجسمه ينحل مذ ران على لبه حب غادة البقاع وملكت قياده وقد طالما دافع هواها وحاول التخلص من رباقه واشراكه ولم يقدر وما زال حتى بات اسير الغرام ! ...

ولما كان عاجزًا عن انتقاء اسباب الهوى وغادة البقاع كالشمس الطالعة في قصره تتلألأ حسنًا وبهاء في ابان الفتاء عاد عادمًا الصبر والجلد يتقلب على قتاد الالم ويندم حيث لا ينفعه الندم ...

وبدا له فاراد ان يخليها وما شاءت او ان يبرح هو نفسه القصر قاصدًا العزلة والانقطاع عن الناس توبةً وتكفيرًا عن ذنوبه على ان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس زين له العدول عن هذا القصد الحميد واصبح لم يستفد من النعمة شيئًا ولم يكن ذا عزم على اتمام هذه المقاصد بل اتبع هواه واختار ان يلزم جانب معذبه وان يعاني لاجلها الاحزان والاشجان وقد شعر ان ايامه صارت قصيرة لتحول جسمه المدني من الرمس . وقال لغادة البقاع وقوله صدق ان سيرته قد تغيرت وتحولت ... فعزم ان يلزم منزله ابدًا منقطعًا عن مشاغل السياسة وامور الدنيا لا يحفل بالصيت الطائر والمجد الظاهر ... حتى قيل انه عليل ... حتى انه مريض — بداء لا دواء له ...

ولبث يقضي اوقاته في حجرة عمله المقيم بها في الحال وقد اجتمع بامرأته منذ هنيهة ... وهو مفكر فيها وفي احوالها متذكرًا هيئتها مراقبًا حركاتها وسكناتها كلما ظهرت ومرت وسط الدار ويجد بمرآها مصحاة من سكر الغم وكانت على تمادي الايام تزداد جمالاً وكمالاً مع ان على وجهها صبغة من صفرة التألم والعذاب اذ كانت كئيبة لا تبرح مقصورتها الا في الندرة .

وكان فريد يوم لا يرى غادة البقاع مجتازة في الدار وليس له ان يستاذن في مشاهدتها يشعر بشيء من نفسه شبيه بالجنون ... ويثور الدم في رأسه فيطبق عينيه ويجعل راسه في اناء الماء البارد تخفيفًا لشدة الحرارة ويستتب اليه روعه الى ان يسكن اضطرابه لا جرم ان هذا الرجل كان يعاني اشد العذابات مع ما طبع عليه من القسوة

والتنزع الى الشر والانبعاث في المساوىء وقد اختنق الشفقة بما داخله من التوبة والندامة التي لم يستطع انفاذ موثراتها ودواعيها ... واظلم الليل فنهض فريد عن كرسيه وكاد ان يعييه النهوض فيسقط وهنًا وضعفًا و بدت في جبهته غضون الكهولة قبل أوانها اذ انه لم يزل في شرخ الشبيبة وانما ذلك لكثرة الهموم والغموم وايضًا فقد تقوس ظهره وتغضن جلده ووخطه الشيب

وخطا بعض خطوات في الغرفة معتمدًا على ما هناك من الامتعة كيلا يسقط من شدة الضعف وجعل راسه بين يديه وتنفس الصعداء متنهدًا من صميم فؤاده وعيناه متجهتان الى غرفة غادة البقاع يراقب حركاتها و يلاحظ كونها حزينة كئيبة لما تبين من ارقها وانحنابها على انفراد في حجرتها وكانت دموعها الذارفة كأنها رشاش رصاص تنفذ فؤاده علمًا باشتداد كربها وغمها ولبثت آمنة في مقصورتها تقيها حرمتها ومابرح يراقبها ويتطلع اليها حتى در الباب وقد مضى هزيع من الليل فنامت

اما هو فلم يستطع رقادًا ولم يدمث لجنبه وسادًا بل بات كالمزول به تثور حركة خاطره هلعًا وتنتفض افلاذ فؤاده جزعًا يتخيل انه عين الهدف ونهزة التالف فصار كمن لايعرف من الامر سدادًا ولا ممن احرزوا في نهام رشادًا . ومع ذلك فكان يردد وهو جائش البال ما يدل عليه لسان الحال

الا ياليتها تسلو جناحي وتخلص لي بدنياها الودادا
فيصفو موردٌ قد كدرتهُ جرائم اتعبت مني الفؤادا

فطال ليله وعوامل اللوعة توثر في فؤادهِ وتيار الهواجس يثور في ضميرهِ اذا آثر السهاد . فرقة من الاوهام نزعات . وان تخير الرقاد . ارقة من الاحلام نزغات . فاستمر على ذلك الليل كلهُ الى ان تبلجت غرة الصباح فابتكرت اليه وصيفة غادة البقاع وفي يدها رقعة مآل ما فيها «انني غاديةٌ لاتفتقد شوءون ابي » فاجابها من فوره : لا انثني لك عن ذلك زماما . ولا اصد لك عنه مرامًا لكنما الاخاق بك ان تحتنفظي عليه خشية ان يسري شرُّ الروسة اليه قال ذلك ولبث يترصد طلوعها ترصد البدر في ليلة القدر الى ان زايلت غرفتها وامتطت العربة ونفسهُ تطاير ورآها شعاعًا . بودّ لوصار دمعة بحرًا تحول من فوقه العربة فلكنا يجعل له قلبهُ شراعًا . فخط في اثرها بعد إذلم يتمكن منها وداعًا

وما نزحت للعينِ بعدكِ عبرةٌ اذا انحدرت قادت لها اخواتِ
واسترزق الرحمن للعين نظرةً اليكِ تداويها من العبراتِ

فان مت بالشوق الذي بي اليكم فتلك لعمري حسرة الحسراتِ

واما هي فانها اقلتها العربة الى ابيها والعيون عنها غوافل . آمنةً من غدرات الزمان وسالمة من شراك العواذل فاقامت في مثابةٍ لايعتاد الطارقون مزارها . ولا يخرق العاذلون ستارها وان تلك لمرة اولى وثقت فيها بكلام فريد مع انها لم تكن ذريعةً الى ان تنسيها ذكرى المساوىء التي اقترفها بمفارقته للروسه ومامثله الأ على حدّ ما قيل

عن المرء لاتسال فسل عن قرينهِ فكل قرين بالمقارنِ يقتدي

وان تسأل عن امرءٍ بعد نزوعها الى أبيها فاحدثك ولا حرج : انهُ سار الى منزل الروسة في الرميلة لا يلوي على شيء في طريقهِ يغوص في لجٍ من الهواجس وعبابٍ من الاضطراب وقال في نفسه وهو سائر لامندوحة لي ان اجعل لهذا الشأن حدًا يكون فصل الخطاب ! . . .

فقابلهُ على غرة منه وهو في مطعمهِ قاضيًا غذاءهُ واما الروسة فلما رأى ان فريدًا ممن يلقي مقاليدهُ اليهِ ويحك ذراعه بذراعهِ ايقن انهُ في مامن من التثريب والمؤاخذة ان استقبله وهو في مكان غذائه فتلبث ثمة وبسط اليه يدهُ بسطةً تدل على ابداء التحية واوعز اليهِ ان اقعد قائلاً انا والحمد لله تملصنا من ربقة الهوان واستد رجعت الينا مراقي الغبطة والسعادة

بيد ان فريدًا تشطي في مكانهِ غير نابسٍ ببنت شفة ولا باسطٍ اليهِ يدًا . . . . فقال لهُ الروسة وقد كسر في ذرعهِ ما بالك ؟ . . . ارى ان رويتك اياي وحدي خليَّ الذهن من البلبال بعثتك على الدهش والحيرة فاني نجوت ممن كان القلب يستطار بهم فرقًا . واحاذر من سطواتهم ذلاً ورهقًا . ألا تعقل ان في وسعي تاليب انفار يسترسلون اليّ واستنيم اليهم وقت الخطب يخضدون شوكة المقاومين ويقمعون من يضربون بيننا وبين النجاحِ حجابًا مستورًا . وبايجاز القول ابث لديك انهُ لم يبقَ من الحشم الاوائل سوى ذئاب وان الدكتور سلبينا والخادم سمعان قد صمما في ممالأتنا على كل ما لست بجاهلٍ سعادة عقباه . اما الاعمال التي نهضت باعبائها فلا بد من ان تكون قد عرفت نتيجتها بما ذاع من فرار القاتل وخطف المقتول وها انذا أبسط لك عن كل ذلك حديثًا واسعًا

—لا ارغب في استماع ما يعود عليّ غائلة الضر . ولا في الجنوح الى رجلٍ قلبه مبركُ الشر . فقد فاض الاناء وبلغت النفس الحز

—ما هذا الكلام ؟... ما طمعَ على ذهنك ! ... ألست مثلي غرضاً للوازع والقوارع وشريكي في المطارب والمصائب انني والله لقد كنت اترقب منك شكراً عميا ومدحاً صميا . فقابلتني بنظرةٍ جرحت الفؤادَ جرحاً اليما . قل لي ابيتَ اللعن أذهب عن نيرتك اني اتيت اموراً يعجز عنها ابو العجائب ويتخلف عن الانبعاث فيها كتائب من ذوات البراثن والمخالب أيسهل على المرء ان يتلاقف من ظهراء القضاء جثةً ويخلص من بين ظهرانيهم سجينا فذلك امرٌ تصفرُّ المشافر قبل الدنو منه ويجعل للناظر اليه الشكَّ يقينا ولست بذاهل عن معرفتي الضابطه ومايتأتى على من يهتك حجابهم فكل هذه الامور هيات لي حجة دامغة تقضي بشدة صريمتي وصعوبة مراسي وبأ ن الاعمال الجليلة قلما يزاولها مقتحم ويكون له بها فوزٌ كفوزي فالك لاتجهل ان لاسمي رنةً لاينصرم من الجرائد صداها وان لجراءة قلبي ذكرى حية تكاد لاترى جلاً ما رواها . فهذه الحادثة احدثت ببيروت شغلاً شاغلاً تنسيها قيلاً وقالاً ترسم على لسان كل من ذويها ذكر رجلٍ

تخشى الخطوب الدهم من سطواته اذ فرط حيلته يهيلُ الهائلا

ثم حدق في وجه الامير فرآهُ لا يزال كالحاً عبوسا . فقال له ما بالك فدتك نفسي لاتكون بي انيسا أحالك عني امرٌ فادح يطر عليا ويلاتٍ وبثوسا . أم خفرت ذمة لاينقضها الاَّ من كان في الناس خسيسا . تذكر وحياتك من آخاك وآساك واطال على الارض اهداب غناك وانت مقرٌّ ابك

لما سمعت به سمعت بواحدٍ ورأيته فرأيت منه خميسا
ولحظت أنملة فسلنَ مواهباً ولمست منصلةً فسال نفوسا

انقابلني بوجهٍ تعلوهُ الجهامه . بدلاً من ان تهش بي وتهنئني بنوال السلامة . فهذا لعمرك امر هون عليَّ حلول الحين وجعلني

اذم زماني واساءهُ فمنهُ ومنهم انتني السآمه

وكان الروسه في غضون ذلك الحديث يخطر ذهاباً وإياباً وبيده سيكاره فتزلف الى فريد وقرب اليه مثلها وقال له اتود ان تدخن

—لااريد ذلك ...

—ويحك ما تريد ؟ .. وعلامَ انت ممتقع الوجه !... اخدش خاطرك نبأ مشئوم انبئت الآن تنبئهُ لدي ؟ ... بدارِ ! ... فان الانباء السارة يحسن ارجاؤها . واما الانباء الضاره فيتحتم ابداؤها . فنأجيل الاخبار وان خمس دقائق .

قد يكون سبباً لوقوع الخطب ومانعاً من ملافاة البوائق

اما فريد فهزّ راسهُ اشارة الى ان الروسة حل في وادٍ غير ذي زرع وان الامر ليس على ما رجمهُ ... ثم صمت الرجلان برهة من الحين واخذ كل يرشق رفيقهُ بسهامٍ من اللحظ احد من شبا السهام ويقذف عليهِ من مقلتهِ شرراً ابين من فصيح الكلام . واستأنف الروسة بعد ذلك كلامه قائلاً ما تريد وما بعثك على المجيء اليّ . فاجابهُ فريد وهو ساكن الجاش ومهجة من غيرهِ لا اريد امراً فريّاً . ولا اتحدّى ما ليس ماتياً . بل اودّ ان القيك على الارض رمياً . اسيل من اوصالك دماء تري الارضين سيلاً اتيا ! ...

فارتعدت فرائص الروسه من ذلك وبادره بالقول اتقتلني ؟ ...

— نعم

فاوجس منه خيفة وتنكب عنهُ الى خلف المائدة لتكون بينهما حصناً دافعاً واخذ يسرق مشاجب المكان بنظره علهُ يرى عليها سلاحاً نافعاً . فكان احباط مسعاه يشخص لدى عينيهِ حماماً رائعاً . فانتقع لونه الى درجة جعلت فريداً يحسبه لديه خاضعاً

وقد كان فريد في ابان ذلك يرمو اليهِ وهو باسم الثغر تلوح عليه سمات الرصانة والوقار ولو لم يفه بما فاه لما داخل الروسه انهُ يود لهُ امراً وبيلاً فخطا اليهِ خطوتين وهو اعزل من السلاح وقال لهُ لاتخف ...

فاجابه الفاسد السريرة والشكس الخليقة وهو شاخص اليهِ ومن موّه عليك اني اخاف ؟

— اتيت لقتالك لالاغتيالك

فتبسم الروسه وقد سكن روعهُ وقال لهُ نشدتك الله ان تزحزح عني عب هذا الحديث وتصرف الى موضوع ايسر عليّ من هذه المداعبه

— ليس من دأبي أن اداعبك

— أبيّني غير مامورٍ ايُّ امر يسوقك على قتلي !

— شؤم نقيبتك وخبثة قلبك اللذان احرجا صدري وذهبا بصبري وصرفاني من الدأب في استهجاج سبيلك ومن التمادي في مجاورة فحتك وشرك فانيت لأخرج من آثامك الذريعه واحمل حينك حبّاً للقبائح ولكل اعمالٍ شنيعه

— قد كنت احسب ذلك وما اخلق الحسبان ان يكون يقينا

— انك اصبت الهدف واتيت بحسبانك ما يواري قبيح مذهبك وصنني من

الاسهاب في حديث يكون لما اضمرت مبينا

— لالا . . . اني اسالك بيانًا لما دعاك لهذا الامر وعهدي بك رجلاً يفرش لي دخلته لا يكون عليَّ بذاكِ ضنينا

وما لبث الروسه ان فاه بذلك حتى قعد على كرسيه واعتمد على المائدة امامهُ واوقد سيكارة اخرى فقال لفريد مزدريًا وخذ ماخذي بان نتلهى بسيكارة مثلي فتخفف عنك برحاء الاثقال فان الحديث اذا كان في اثناء التدخين يجعل قائلهُ في مهادٍ من الخفض ولا سيما اذا كان يمتص دخانًا في اجود التبغ واحسنهِ . . فان الدخان يمهد لك الصبر على الموجدة ويبيت فيك الضغينة لانهُ يرافقك بالسلوان ابان ترحل او تحل ويجعل فيك الحدة مثل دخان يتعالى قليلاً ثم يضمحل

وكثيرًا ما احتدمت نيران النزاع بين الخصمين وقت نجوم اول ذرة من الدخان فما تعالت قليلاً حتى نزعت من قلبيهما الموجدة فاخلص كلٌّ لرفيقهِ فبناء عليهِ فاقعد . . . .

اما فريد فلم يبد جوابًا بل لبث صامتًا مجتزئًا بهز راسه فقال له الروسة وهو باسر الوجه اشعر من ملامح وجهك ان من شانك الوقيعة

— اود اجل منها ! . . اود انصرامًا لاجلِ احد المخاطبين

— اتضيع يا ايها الامير حرمة العهد وتصرم اسباب الود وتجعل اخاءك العابر نسيًا منسيًا . فما دار في خلدي ان اراك عتيًا بعد ان رايت منك خلاً وفيًا . تذكر رعاك الله يومًا وقع فيه طائر نظريَ على روض محياك . وقد كانت يد الدهر تعبث بتالد غناك تتناهبهُ من حادثاتٍ صيرتك فقيرًا شقيًا . اغاب عن ذهنك ان الدلال كان بالامس يبيع متاع بيتك جزافًا بالوكس وانت تدور حوله منكس البصر كئيب النفس . تندب على مسمع مني يالآ رخيًا وعيشًا هنيًا . تذكر كيف عطفت عليك لارفع ناظرك وحننت اليك لافرح خاطرك وسكنت اليَّ نعهدك رجاء ان تعود غنيًا

— لاانكر اني اتخذتك رفيقًا صفيًا . ومجنًا وقت نزول الطوارىء قويًا ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟ . . مواثقتك اياي تقضي عليك بان تواصل ركونك اليَّ وان يستمر ديدنك مقارنًا لديدني الى ان ينقضي العمل الذي اقدمنا عليه

— العمل ذميم والمقدم عليه اثيم .

— ليس ذلك من اهتمامك ولا من استيثارك واعتزامك فانه منصور على عزمتي وموكول لهمتي وان رجالي لهم اضطلاع بما يكلفون . فليس عليك الآن تمتاز إلينا

بالاراده فان ذلك حسبما واما بولقادعون وان كنت جزوءًا من انك لم تنغمس الى الآن في غضارة النعيم فان سلوكك منهاجي واستضاءك بمشكاة سراجي سيبان بهما يناط يسارك ورياشك . وامران يتوقف عليهما انجبارك وانتعاشك فوالله لم يكن يقدّر في صدق مودتك ولا يظن في جميل مذهبك وسماحة اخلاقك انك تخيس بالوعد وتنقض الشرط وتكافئني على الجميل بالقتل عمدًا وهل يكون جزاء الاحسان الاَّ الاحسان فهذا امر ما اضطربت به حاستي ولا هجس في ضميري فان كان وجودي يطأطئ من اشرافك ويقبض رجاءك

فيا نفس فيضي في هوى من وددته . فان فضت رغاضت منه غمرة حزنه

واما انا فلا ارضى يا ايها الامير الاَّ بان يكون حبل عمرك مربوطًا باوتاد الدوام وهامة مجدك ناطحةً روق الغمام وارى ان حياتك عزيزة عندي . اذود عنها كل طاقتي وجهدي فان بيني وبينك محلةً نازحة ومسافة بعيده فان دأبت في عزمك ترى بضاعة من تكون الرابحه ونفس من تكون السعيده

— اتيت لاحد امرين هو قتل واحد من الاثنين

— معاذ الله ان يكون ذلك او ان اواطئك على ركوب المهالك

— يلوح لي انك لا ترغب في البراز

— أعرني يا فريد آذانًا صاغية واذهانًا واعيه ولا تكن كولد افكاره بسفاسف الامور لاهيه . الا تدري اننا تحالفنا منذ سنتين على ان نركب طريقةً تؤدينا الى نوال اليسر بعد العسر وها اننا على وشك الوصول الى الوطر المطلوب فلا تدع الفرصة تذهب ضياعًا ولقد آليت لك نفسي اني ادنيك من المسيرة وليان العيش وعما قريب ترى اني ابرُّ في يميني فدنك ستصير ضجيع الدعة ومستمهد الراحة اذا واصلت توخي موافقتي والتماس مبرتي فتدبر اعزّك الله امرك وسرّح طائر نظرك على المآثر الخطيرة التي نهضت بباهظ اثقالها فان غاية الاوطار قريبة ولقد باشرت امرًا لا تستوعر عندي مسالكه ولا يتعسر عليَّ اجتيازه

— يبدو لديَّ انك مقدم على اقتراف جريرة جديدة

— سبحان من طبع على فؤادك حتى غدوت لا توفَّق لخير ولا تعي ارشادًا فاني أكرّر القول عليك ان الامر لا يعرض لك ولا يهمك فلا تبحث عن اسباب البسطة والغبطة بل تأهب لان تصير رافهًا موسعًا بعد ذلك الاملاق والخصاصة ! ...

— واني اعيد القول عليك اني اود ان تخلي الوقيعة عن قتل احد الاثنين

— لقد اضنت ذرعي وفتنت في ساعدي ولم اكن اعهد انك تكثر من الاصرار على مخالفة الحق أليس لك من نفسك زاجرٌ ينهاك عن الهجوم في الورطة المهلكة · اما حفظت في ذهنك ما عرضته على مسمعيك قبل عقد زيجتك فان كان برح حافظتك فانا اعيده عليك بالحرف الواحد وهو: « ان الابنة جميلة حسناء ولكن اياك ان تهواها وتهيم بها هيامًا ربما يوهول بنا على احباط مساعينا وتخيب امالنا واماننا . احذر احذر من غلبة هواها على قلبك فان في ذلك خطرًا عليك يعز التملص منه » وها انك قد ارتكبت هذا الشطط المبين فانها قبضت على قيادك وتحكمت في فؤادك · واما فريد فلم يكن يصيخ له لانه كان موطدًا عزمه على انشاء امر لم يرَ من انجازه بدًا فقال له تفهم اني مزمع على قتلك فما عليك الاَّ ان تويد بصيرتك وترى غفلتك ولا يتم لك ذلك الاَّ ان تهبط الى حلبة البراز حيث يمسي احدنا جديلاً

— ان انتظاري لنوال كل رغيبة ومغنم يحبسني عن مساهمتك على هذا الامر المشئوم لان حياتك اصل ثروتي ومتوسّد راحتي فان قتلتك اضعت اموالاً ليس الى مردها من سبيل

— لا مناص من القتال رضيت ام لم ترضَ

— وما هي الذرائع التي تمكنك من الاستيلاء على ارادتي والقبض على عنان حريتي الا تفقه اني لا اود القتال

— اذا لم تقدم على ما أنا مقدم عليه هجنتك وتنقصتك

— ذلك لا يخفض من حالي ولا يحط عن خطري فبيني وبينك تطوى الاهانة

— لا انتقصك الاَّ على مشهد السواد الاعظم من الناس

— آه ! . . اتقدم على ارتكاب ذلك

— اي نعم فاني في حشد غفير من الحي · وجه عليك سهام الامتهان والنضاضة

— الظاهر انك مزمعٌ امرًا لا ابراح منه

— ليس في ذلك ريب

— فتجهم وجه الروسه وفار فائره وتالق القبس من مقلتيه وفريد ساكن الجاش متاهب لتضحية حيوة يراها مرةً وصعبة لديه فقال له الروسه فبما انك متعمد امرًا لاتود الاَّ ركوبه فقد الجأتني الضرورة الى ان اقول

اذا لم يكن الاّ الاسنة مركب فلا خير المضطرّ الاّ ركوبها

ثم قال فلبدر بحثنا الى ما به نتقاتل فاني ارى انك مسدد الرمي بالرصاص مثلي وبناء عليه فلا يسوغ ان نتقاتل بالفرد لاننا بذلك نستهدف للموت فان الرصاصة اذا صابت راس احدنا قضى صاحبه لامحالة

ــ فلنقترع على نوع السلاح

ــ لا يفوتك ان الاقتراع اعمى فلا اوافقك على ان يكون نوع السلاح فرداً

ــ فلنقتتل بالسيف اقتتالاً ينتهي بقتل الواحد منا الآخر

ــ رضيت بالسيف فانهُ اعدل من الرصاص لان ضربته لا تخلف بيمين صاحبه

ــ لا بد من موت احدنا على اثر النزاع

ــ مت انت . . . فاي خناس وسوس في صدرك فزين لك الموت . وحدّق فريد في الروسة وقد امتلاء موجدة وحقداً ففهم الروسة معنى ذلك وان فريداً كارهٌ له كل الكراهية فاعمل الروية برهةً ثم ادار وجهه اليه فقال : قلت لك مراراً جمة ليس من ارادتي ان اقتلك فان بطول بقائك كل خفضي وراحتي وبحياتك كل جدتي وثروتي واعلم ان عدم ممالأتي لك على البراز ليس موقوفاً على وهن مني فان لي عزمة راسخة وهمة باذخة ليستا في بشرٍ وكدت اساهمك عليه في بادي الامر فتطنت ان ذلك حاجز لتقدم يساري ومنعٌ من استمرار تمتعي باقسومك اللطيف فارى ان في برازك خسارتين عظيمتين تطرآن عليّ فلذلك اجتنب عن البراز ولا اوافقك عليه ابداً

ــ انني الجئك اليه

ــ اتجنب الاقدام عليه بقدر امكاني

ومن البين ان الروسة حاول مراراً ان يتملص من ربقة البراز وكان يخشى ان فريداً يلجئه اليه فيذاع الامر في ارجاء المدينة وربما طرق النبأُ مسامع الشرطة العسكرية فتهرع اليهما فتنقب عن السبب فتقف على دخيلته فيكون ذلك عليه وبلاً وسبوراً فاخذ يسعى في ايجاد سبيل يمكنه من التفلت من تلك الحبائل الرائعة بيدَ ان مسعاه لنوال ذلك ذهب ادراج الرياح فان فريداً لم يكن ليقلع عن عزمه ويتوانى عن مراده فلذلك اظهر ميلهُ الى البراز خائفاً ان اباءهُ لهُ يسوقه الى مالم يكن يستهوب وقال في نفسه ان فريداً لم يزوق لهُ ذلك الاّ شر السماء ! فرنا اليه وقال اذا لبثت مصرّاً على طلبك وغير قانع بالاسباب التي تؤيد غائلة هذا الامر الذميم

فاني اوافقك عليه فان حملني على الامور الموبقه اقدر في نفسي انك اوقعت عليَّ ضروب الخزي والمهانة ولكنك ستفيق وتندب قبيح فعلك يقين انك جمحت في العمايه ومرحت في الغوايه. والحق يقال ان الروسه كان في طوقه ان يبطش بفريد ويذيقه نكالاً مراً غيران ما يترتب على حياته من جر الذخائر والمغانم رغبه في الحرص عليها ولم يحمله النزوع الى البراز سوى فرط لجاجه والخشية من استفحال الامر ومع هذا فلم يكن من نيته ان يوقع به

فقال له الروسه انكفئ الان الى بيتك واعد سلاحك ان طلب البراز موكول اليَّ لاني المهان وبناء عليه سأنفذ اليك رسالة تشعرك برغبتي فيه غيراني آسف على غصن شبيبتك اذ سينهصر وهو في ابان لواذه والويل لامراتك من بعدك ان كانت سبباً لانقطاع غضارة ترفي وعلة لهبوط مجدي وشرفي

— انني استنظر طلبك وهاندا انصرف

فلبث الروسة زماناً ثم بعث الى فريد بكتاب فيه ما مآله: يحق لي اختيار السلاح ولذلك فاني اتخير ان يكون قتالنا بالسيف فوافني الى الحانوت الذي هو حد فاصل بين الجبل وبيروت واشترط عليك ان لا يكون معنا سوى الطبيب خشية من ذيوع الخبر وعليه فليس من لازب الامر ان يكون معنا شهود ولدن وصولك الى الحانوت نتوغل في غابة الصنوبر الى ان نصل الى مكان لاترانا فيه عين ولاتسمع بنا اذن فتقلد حسامك وسر لدن وصول كتابي اليك

ولم يمض المديد من الزمن حتى ورد من الامير فريد جواب هذا مآله «الغد موعد اللقاء»

٣٠

وقد وفد في ذلك الليل على منزل الروسه سابينا الطبيب وبمعيته سمعان الذي اقامه الروسه وقف خدمته. ورهن اشارته وبعد اذ تبادلا كلمات التحية اطلع الروسه الطبيب على ما عقد النية ان يفعله في الغد ونقدم اليه ان يصحبه ليكون لذلك البراز المدوي شاهداً

ثم ان سمعان انباء الروسه ان جورج اللياوي الطبيب وصل الثغر غداة ذلك النهار وانه تمكن من الاستخدام لديه بصفة اجير في غرفته الخاصة وذلك لما ان قوته لاهون عنه لاعتنائهم باخيه اندراوس التي تمكنت العله منه فاشرف على الهلاك ولم يبق من شموس الامل بشفائه الا اشعة ضئيله وان لولوة تعتني بالعليل عناية يبثها الاخلاص وتدفعها المروءة والحنان فاشار اليه الروسه بلزوم متابعة العمل حتى المنتهى على الطريقة

لتي ارتأها والشكل الذي رسمه . ثم اوضح ان البراز المؤدي لا ينجم عنه موت او خطر اموت لما انه عازف عن قصد الفتك بخصمه وقتله على انه سيقف موقف المدافع عن نفسه بمعنى انه يتمكن ايضاً من جرح الخصم جرحاً لاتشوم عاقبته

وفجر الغد سارت عربات ثلاث تقل كلاً من الروسه وفريد والطبيب وبموجب اشارتهم اوقفت تلك العربات عن المسير وظلت امام القهوة القائمة بجوار مخزق الجبل وأمر سائقوها بالانتظار ثم نزل الثلاثة من مركباتهم فاستقبلهم خادم العماطوري بالبشاشة والهشاشة واذ كان لفريد سابق معرفة به استدعاه على انفراد وخاطبه بما ياتي من الكلام

— انظر الى هذا الريال الابيض فانه لك ان خدمتني بامرٍ اعهد به اليك

— وما الامر يامولاي الملك تريد ان اقدم للجناب قهوة تركيه

— ليست من غرضي الان على اني مزمع ان اسلمك رسالة فيكون من همك ايصالها لمحلها

— ولمن الرسالة

— لحليلتي غادة البقاع

— على الراس ثم العين

— على اني اودّ ان تسير بها الساعه

— مثلك من يامر ومثلي من يتبع اوامرك بتدقيق

وعندها اخذ فريد ورقاً وكتب لغادته رسالة وجيزة العبادة كثيرة الاشاره ودفعها للعماطوري الذي تظاهر بداءة ذي بدء بعدم رغبته في اخذ الريال مع انه كان يودّ من صميم فؤاده لو انه يتمكن من استحصال ضعف تلك الاجرة على الاقل ثم سار بالرسالة المذكورة واليك مآلها

« ياغادتي الكريمة»

«ان كشاف الغيوب والعالم بمكنونات القلوب يشهد اني اود لكِ رغيد العيش وطول البقاء واني منذ امد جعلت نفسي وقفَ سعادتك وحياتي فداً مرضاتك . . . وحالما تصل سطوري هذه اليك اكون قد اقتتلت والروسه . . . ياغادة البقاع نغيتي ان اقتل خصمي ثم اقتل لان بموت كلانا تنالين ما اتمناه لكِ من سعادة الحال وحسن المآل فامنيتي ان تكوني اسعد الناس . ورجاءي ان تصفحي عما اسات به اليك . وبغيتي الاّ تذكريني بسوء ومنيتي ان تثني ايتها الغادة الكريمة اني احببتك متُّ او حييت»

وكان الروسه والطبيب تقدما فريداً بالمسير فمضى على اثرهما (فريد) وكان ينظر نظرة الوداع الى جمال الطبيعة وكان كل مامرت به نسمات الصباح النقية يودعها

نفثات الحزن والاكتئاب وكان قلبه يخفق وفؤاده يضطرب كلما تذكر ابراز العتيد ليس لانه كان يأسف على فقد الحياة بل لتصوره ان موته يفصله عن غادة تملك حبها قلبه واخذ بمجامع لبه

انا ابكي على فراق حبيبي لست ابكي على زوال حياتي

وما كان يزيده كدرًا انه مزمع ان يجرع كاس الحمام من يد الظالم والجور من يد الاثم والشر نريد من يد الروسه خلاصة الصفات الذميمه وكانت هذه التخيلات والتصورات ترد على خاطره وتؤثر في عواطفه حتى انه لم يتمالك من ان يفوه مرارًا عن غير قصد بهذه الكلمات مخاطبًا نفسه : انني لعمر الحق مستحق هذا الكدر فقد سلمت قيادي لالروسه ووافقته على مبدأه الذميم وكنت آلة الشريده فلا بدع ان ذقت ما اذوقه من كروس المحن اذ ان هذه النتيجة المرتبة لكل من يخالط الاشرار ويقاسمهم اعمالهم القبيحة ولما شذت الشمس نصف الفلا الاخير وصل الثلاثة مرجًا نضيرًا تكتنفه الاشجار من جهاته الاربع فوقفوا في منتصفه واجتمعت كلمتهم على انه المحل الانسب للمبارزة وعندها ابرز الطبيب آلة الجراحة ولفائف من نسيج الكتان معدة لتضميد الجراح وبسط كل ذلك على العشب الاخضر واذ رآه فريد قائمًا بهذه المهام قال له بتبسم ينم عن عدم الاكتراث

ـ ارى من العبث اهتمامك بهذه المعدات ياجناب الدكتور

ـ لا ارى من العبث اهتمامي بما يبعد الخطر عمن سوف يجرح منكما ويخفض من الامه

ـ عرفت ولا ريب من خصمي ان هذا النزال سينتهي بقتل احدنا وموته وليس بتخديش بدنه وجرحه وما اظن الاطباء يحاولون ارجاع الروح للبدن واحياء العظام الرميمه

فتماسك الطبيب عن الجواب وبقي مهتمًا فيما كان ابتداء به ثم انه ارسل في الهواء ريالاً للاقتراع على من يحق له القبض على الحسام اولاً مباشرة للنزال وكان فريد قال « الطغراء » والروسه « النقشة » واذ هبط الريال على الارض ظهر وجه الطغراء فتناول فريد السيف الاحد وخلع كل من الخصمين دثاره وصدريته تسهيلاً للحركة وابدى كل منهما آية العزم والشدة والجاش والاقدام والبطش وبعد ان تناظرا وتبارزا وتدافعا وتقاربا مدة من الزمن خاطب الروسه فريدًا بقوله

اعرني يافريد اذنًا صاغيه وارعو عن غيك ما زال الوقت ياذن لك بذلك اليك اليك عن هذا البراز

اما فريد فلم يفه ببنت شفة بل امال سيفه ذات اليمين وذات الشمال وكاد ان

ينفذهُ في صدر الروسه لو لا ان هذا ابتعد عنه وصاح به قائلاً

ـ ادفع الويل عنك

ـ لابد ان ينتهي هذه الخصام بالموت !

وظل كل من الخصمين يمتحن قوى مناظره و يراقب حركاته وكنت تسمع صلصلة السيفين بدون ان ترى لهما اثر جراح ولما راى فريد ان الوقت قد طال ولم يفز المرام انتض على خصمه انقضاض النسر وحاول تكراراً ان ينفذ الحسام في صدره لكنه خاب املاً اذ ان الروسه كان ثابت الجاش مهتمًا في اسر [illegible] بس غير معرضاً عن الفتك بفريد الذي عرضته الحدة مرارًا للخطر الجلل

وقد تدبر فريد غرضَ الروسه وانتبه لمقاصده على انهُ لم ينثنِ عن عزمه الا وهو ان يقتل وخصمه بوقت واحد وتمنى لو ان يكون البراز باعمال السلاح الناري بمعنى ان يطلق الرصاص من الجانبين ويخلي الامر عن قتيلين ولما وهى جلدهُ وفرغ صبره من هذا المطل تجددت الهمة في فؤاده وسار دمُ الاقدام والعزم في عروقه بشدة مزيده وقوه شديده حتى انه صار يقاتل قتال الابطال الصناديد وكاد ان يبطش بخصمه على ان حكمة الروسه ابعدت عنه الخطر ولم تؤثر ضربات فريد في بدنه شيئاً بل كانت نتيجتها انها مزقت طرفًا من قميصه . ولما رأى الروسه ان فريدًا لم يزل ثائرًا اراد ان يخنض عليه فاوخز السيف في كتفه وجرحه جرحاً خفيفاً سالت منه قطرات دم قليله ثم ترك السيف وقال لهُ: انت تعلم يافريد اني لا اود قتلك وما سفكت هذه القطرات من دمك الاّ رغبة مني في انهاء البراز وفصل الخصام بيد ان فريدًا ابى موافقة الخصم وقال لهُ . لايكون ذلك بتًا اذ اني لم ازل قادرًا على القتال ثم هجم عليه وتلاطم السيفان مرارًا عديدة وكان في امكان الروسه ان يقتل فريدًا بالنظر لعدم خبرته وقلة احتراسه و بينما كان الروسه يوجه حسامه نحو صدره تقدم فريد ولم يهب الموت وارسل السيف لجهة صدر الخصم بمعنى ان ينفذ سيف كل منهما في صدر الاخر والغرض من هذه الحركة ان يرتمي كلٌ من المتبارزين جريحاً او جديلاً ولم يدرك الروسه هذه الغاية الاّ بعد فوات الوقت وشعر ان راس سيفه نفذ في صدر فريد فترك السيف ثم احس ان جسمًا باردًا يخرق كتفه فارتد الى الوراء ونجا بذلك من الضربة المهلكة وكان من نصيبه انه جرح فقط بكتفه جرحًا طفيفًا . اما فريد فبقي قائمًا بازاء خصمه لكنه كان يتمايل ذات اليمين وذات الشمال وكان سيف الروسه داخلاً في صدره فاخذه

بيده واراد ان ينفذهُ حتى القبضة على ان الطبيب استدرك الامر واسرع نحو فريد ونزع السيف من صدرهِ ورماهُ بعيدًا وعدها سقط فريد على البسيطة مغشيًا عليهِ والدم ينفجر من كلمه انفجار الماء من الينبوع

فقال الروسه لقد انقذتني التقادير من التهلكه اذ كان من قصد هذا الاحمق قتلي لامحالة على اني اسالك ايها الطبيب ان تباشر معالجته لعالك تقوى على شفائه واحب ان تعلم ان حياته ثمينة جدًّا لديَّ وان بها سرَّ نجاحي وسعادتي فبادر الطبيب لتضميد الكلوم وبعد ان انعم النظر واطال الفكرة في امرها قال للروسة ان جرحك ليس ذي بال اما جرح الامير ...

ـ خفض عليَّ وجد لي بكلمة الاطمئنان

ـ لا اطمع كثيراً في سلامته او ان يستفيق من غيبوبته

ـ هلم ننقله الى العربة ثم يكون من همك ان تسير الى قصره وبعد ذلك تبنئني عاجلاً بما يكون من نهاية امره واياك وافشاء السر ثم حملا الامير وسارا به نحو العربة وبينا كانوا سائرين استفاق الامير ونظر الى خصمه نظرة الغضب وصاح به قائلا ما اسعدني لو كانت ضربتي الك الضربة القاضية حقًا لكنت اموت بسلام ولكن ثق ان الله سينتزل بك القصاص يومًا وما يوم الله باليوم البعيد . واني وفاء بالوعد وقيامًا بالعهد لا ارفع الشكوى عليك لمجلس الحكومة لاني منذ تخلي عنك وكرهي لمبادئك صرت اندر الشرف قدره وارعى الزمام على ان الله عادل وهو يقتصُّ منك ويلقي على عاتقك اثقال ما اقترفته من المعاصي والمظالم. ان يد الله شديدة على الظالمين

واذ ذاك وصلوا الى مقر العربات فاجلس الطبيب فريدًا في مركبته واظهر رغبته في الجلوس بجانبه ومرافقته حتى القصر فابى الامير ذلك واشار اليه ان اغرب ورفيقك الشرير من امام وحي فخير لي ان اموت من ان تساعدني يد المكر والخداع

اما الروسه فكان فرحًا جذلاً لاستفاقة الامير على رجاء انه يكون من رجال الحياة وصاحب الارث الوحيد فيقاسمه الثروة التي ارتكب في سبيل الحصول عليها صنوف المنكرات وضروب المحرمات وقد تضاعف سرور الروسه على اثر وعد فريد له انه لا يذيع امر البراز ولا يرفع عليه الدعوى لدى الحكام على انه كان يخشى مقاومة الامير مشفقًا ان ينتهك سرهُ . وينهتك ستره

وظل فريد يتألم من كلمه الامًا هائلة وكاد يغشى عليه مراراً ولم يزل كذلك حتى وصلت به العربة باب القصر فصعد الدرج مستندًا على كتف سائق العربة وحالما

انطرح على فراشه استدعى اليه غادة البقاع وبعد اذ صرف الخدم من غرفته خاطبها بما ياتي من الكلام

الهي ايتها الغادة مرٌّ شديد وموتي لامراء قريب اكيد ان صوت ضميري يبكتني اني اسأت اليك كثيرًا واذقتك علقمًا مريرا خالفت وصايا الهي بما اقترفته من الشرور والمآثم . والحقت بالقريب اضرارًا عظائم من اجل هذا احتمل بصبر ما اعانيه من العذاب . فذلك عدل وهل جزاء الاثام غير العقاب . على الهي اسئل الله ان ينظر اليَّ بعين المرحمة وليس بعين العدل . ويغفر زلاتي الكثيرة بقوة ما للثة [illegible] الفضيلة والفضل . ورجائي عظيم انه يتوب عليَّ والله تواب رحيم . وعهدي بك ان تصفحي عما سببته لك من الاكدار والالام . وترويدني قبيل مماتي كلمة العفو فانطلق بسلام . واسألك الان ان تستدعي لي الطبيب والكاهن اذ ان بغيتي القلبية . ان اكفر عن اثامي السالفة بالندامة الحقيقية

فدمعت غادة البقاع وخامرها الذهول من هذا الانقلاب العجيب واتمت للحال ما رغب الامير فيه

—اما فريد فقد اصابته على اثر هذا الكلام نوبة من الحمى شديد بعد اذ كان احس براحة موقته واذ وصل الكاهن والطبيب وجداهُ فاقد الحس والرشد اما الطبيب فضمد الجرح ثانية واشار بالعلاج المناسب وبعد اذ فحص حالة المريض الصحيه تنهد وهزَّ راسه ثم قال بصوت منخفض لا ارى املا بشفائه ولا مطمعًا في نجاته اذ ان الجرح في موضع يوذن بالخطر القريب وان لم يمت الامير من جراء الكلم وما سببه له من من فقد الدم فلا ريب انه يموت بذات الرئة المتاثرة من الجرح تأثرًا لاتحمد عاقبته

وعند ما سمعت غادة البقاع كلام الطبيب رفعت الحاظها نحو السماء ثم تنهدت وقالت : الهي انك بعدل تصدر احكامك وبرافة تعامل مخلوقاتك ياقاهر الطغاة يل اا ابا التائبين ان كانت مشيئك ان تنزل بفريد قصاصك العادل مجازة لما اتاهُ من لمنكرات فرد يارب الامه في هذه الحياة واصفح عنه فينال الراحة الدائمة في الاخرى. الهي استجب تضرعي وجد له بماء مراحمك . ياارحم الراحمين

(تم الفصل الثاني في محن الزمن وبلايا الحياة)

(ويليه الفصل الثالث في ولاء الشفيقين والشقيقتين)

الفصل الثالث

(في ولاء الشقيقين والدفينتين)

١

انه في صباح النهار الذي تقرر ان يجرى فيه البراز بين الروسة وفريد اقبلت الباخرة الفرنساوية على مرفاء بيروت تقل عدداً من المسافرين وكان بينهم شاب تعلو وجهه صفرة القسك والعناء وتلوح على محياه سيماء التجعر والاضطراب واذ وصل البر على احد القوارب ركب عربة وسار توا لجهة مينا الحصن . وهذا الشاب كان جرجي الليماوي الطبيب شقيق اندراوس وخطيب فريدة شقيقة مراد بك وهو الذي من عهد عام خط بيده قرارا يذكره القاريء وهذه حرفيته « مساء اليوم في الخامس والعشرين من شهر ايار .... سئمت نفسي الحياة لعدم نجاح عملي وخيبة املي .... فعزمت على الانتحار .... فلا يتهم احد بقتلي الصادر مني عن عمد ومطلق ارادة ... » ويذكر المطالع اللبيب ان اندراوس كان قد انباء لوءلوءة بالاسباب التي الجات جرجي الى تحرير ذلك الصك وكيف ان الروسه اطلع في اثناء تلك المكاشفات على اسرار العائلة الليماويه وقد اخبر اندراوس كيف ان مراد بك اذ علم بما بين جرجي الطبيب وشقيقته فريده من علائق الحب ولواعج الغرام قرف جرجي الموما اليه وابى مصاهرته عازيا اليه الدناءة والخساسة حاسباً انه مدفوع اليها بامل الحصول على ثروتها الوافرة ليس الا وان جرجي قد اجابه بلهجة اليأس والقنوط : لا يقضي عام على هذا العهد الا واستنزل ريّ الثروة والفخار من در سحاب النجاح بقوة ما سيوفقني الله الى اكتشافه واختراعه في عالم الوجود وبذلك سارقى رقيّ ذوي السعادة والمجد فلا اكون بعد حقيرا لديك ومنهماً في عينيك وان قهرني الزمان واغلق بوجهي باب التوفيق ساهجر ابد الدهر ربوعاً لا ارى فيها غير الذل . واتجرع بتمام الرضى كؤوس الموت الزؤام . وان فريدة ودعته في ذلك الحين مودعةً في اذنه كلمات هي غاية الايجاز على انها ملأى بعواطف حفظ الود والولاء وهي قولها له : « سر على الطائر الميمون وانا اسأل الله ان ياخذ بيدك ويكون لك نصيرا . اتقِ الله وثق ان فريدة لاتنساك . وانها تصون النفس حباً بك منتظرة لقياك

ذلك ما يذكره القاريء اللبيب على اننا نلمع اليه عملاً بمثل العامة « ان بالاعادة

بعض الافادة »

وقد كادت السنة تنقضي على عهد سفر جرج ولم يعلم عنه اثر ولا خبر كانما هو غائب عن عالم الوجود وسنعلم فيما يلي ما اذا كان افلح سعياً او خاب مسعى والان لنرى ما كان من امره آن ايابه من السفر

قلنا انه حين وصل بيروت كانت سيماء المتاعب والمشقة تلوح على وجهه ويخال من صفرة بشرته ونحول جسمه انه اعمل فكرته وتوغل في المطالعة والدرس هذه ما كانت تدل هيئته عليه في نظر طلبة العلم وانصار المعارف اما اهل الحب فكانوا يرون انه قضى الليالي في ذكر من كان يحسبها خطيبته وشريكة عمره في مستقبل الزمن وربما كان يقراء البعض على جبينه

قد بتُّ اهتف بالشكوى واشرب من دمعي واستق ريا ذكركِ العطرِ

وكان كلما اتجه نحو البيت تأخذه الشواغل ويزعجه مزيد الاضطراب مشفقاً من عدم مبادرة والده وشقيقه اندراوس لملاقاته وقد زينت له المخيلة ان مكروهاً اصاب آله فخف مسرعاً وما آن من لمحة البصر تمكن من الوصول الى البيت وعندما قرع الباب استقبلته الخادمة فقط وحيته بالسلام بيد ان الفاظها كانت تشف عن انقباض في القلب واكتئاب في النفس اما هو فاشفق من سلامها المؤيد هواجسه وبادرها بالسؤال عن حال والدهِ وشقيقه اما الخادمة فلم تتناول الامر على الكلام بلسانها وشفتيها بل كانت دموعها المتكلمة والمبيئة بالمصاب وبعد اذ بارحتها الغصة الاولى شرعت في ان تقص عليه ما كان من امر والدهِ ثم انها اخبرته ان شقيقه اندراوس في حالة من المرض تؤذن بالخطر وانه منذ يومين اصيب بنوبة من الحمى شديدة انذر الاطباء ان عاقبتها الموت الاكيد ثم انها علقت بعض الامل بشفائه قائلة لجرج : لعلَّ الله ياسيدي يمن عليه بالعافية بقوة ما وهبك من سعة الاطلاع وغزارة المعرفة وفضل التجارب فتكون انت علة نجاته من الحالة السيئة التي صار اليها . ثم انها سارت به الى الغرفة التي كان فيها اخوه متوسداً على فراش الالام . ومن بعدها ذهبت لاعداد الطعام

اما جرجس فدخل الغرفة مسرعاً . وكانت هناك امرأة تصور الحزن على وجهها وتمثل الحنان والانكسار بكل اقنومها وكانت جاثية قرب رأس المريض تضرع لله من اجله وكان تلهفها ولهجتها والفاظها تشير الى انها متحققة ان الله وحده هو القادر على شفائه بقوة فائقة الطبيعة اذ ان المساعي البشريه قد ذهبت ادراج الرياح

وهذه المرأة كانت لوءلوءة

ولم يكن لجرج سابق معرفة بها على انه لم ينظر اليها لما انه كان ثائر البال ومشغول الخاطر بل ظل يسير نحو شقيقه فاخذ رأسه بيديه وضمه الى صدره بحركة هي نهاية اللطف وخلاصة الحنان · اما اندراوس فكانت انظاره شاخصة نحو اخيه عن غير قصد اذ انه كان فاقد الحس والرشد والادراك فاثر بجرج هذا المشهد المحزن وخاطب اخاهُ بصوتٍ خنقته العبرات قائلاً : اخي ! · شقيقي ! · · حبيبي ! · · الم تعرف اخاك · · · ليتني اموت فداك · اما اندراوس فلم يكن ليعي هذا الكلام بل كان محافظاً على سكوت يشبه سكوت من لاروح فيه

وكانت لوءلوءة قد ابتعدت عن الشقيقين قليلاً تذرف سخين الدموع ويتدلع في احشائها الولوع

ثم ان جرج سعى جهده في اخماد ثورة اضطرابه وتناسى عواطفه الطبيعية ونظر لاندراوس نظر النطاسي الضليع واخذ يفحص حالة العليل فحصاً طبياً في نهاية التدقيق · فوجد ان ضربات نبضه متكاثرة تشير الى ارتفاع درجة الحمى وسرعة حركة القلب وان عينيه غائرتان وشفتيه ناشفتان يحاول العليل ان يرطبها بلعابه ثم انه شرع يتفقد حركات النفس وحالة الرئتين جاعلا اذنه على صدر المريض وعلى ظهره قارعاً باصابعه على الاضلاع · وكان اندراوس لا يعي شيئاً من سائر هذه الحركات الطبية · اما جرج فبعد اذ اتم هذه المهام احنى راسه اشارة الاكتئاب وقال يالله ما هذا الضعف الشديد وكيف حل به هذا الوهن الذي ما عليه من مزيد اسفاه · · · لا ارى رجاء بشفائه ! ولا الاّ في صحته ما جرى له من الاسباب التي اوجبت هذا السقام ؟ وكيف صار لهذه الدرجة من فقد العزم والقوى ما جرى له ياترى ! · · · · من عساهُ ان يطلعني على جلية الامر وحقيقة الخبر · فاجابه صوتٌ ضعيف ممازجة رنةُ الحزن : انا انبئك ايها المولى الكريم بالامر الذي ترغب فيه

وكان جرج يظن ان لا احد سواه في غرفة العليل ولما سمع ذلك الصوت ارتد الى الوراء مبهوتاً ثم التفت فرأى امرأة لم يكن قد انتبه لوجودها بادىء ذي بدء نظرًا لا هتمامه بالمريض · و يعلم القارىء ان هذه الامرأة انما هي لوءلوءة التي خامرَ عقلها الذهول واخذ الاضطراب من اعصابها كل مأخذ · · · · فمن ذهب مخوق ذهب براحتها وخاطر ثائر جعلها في قلقٍ مستمر

كريشةٍ في مهب الريح طائرة لا تستقر على حالٍ من القلقِ

وكانت لاتودُّ ان تطلع الطبيب على حقيقة الحال ولا تباشئه بالاسباب التي

اضرت بأندراوس واوصلته الى ذلك الخطر المبين · على انها تست الى القصر والتأكد اعتقاداً ان اقرارها بالامر وكشفها نقاب الستر يساعد الطبيب على دفع العلة المهلكة ويعيد اندراوس الى عدد الاحياء

اما الطبيب فقال وهو ناظر الى لولوة نظر المذهول المتعجب : انت ايتها السيدة تدرين بالامر ···· وكان مغزى مقاله : « من انت · ومن اتى بك لها وما الغرض من وجودك قرب سرير اندراوس » ففهمت مراده واطرقت بنظرها الى الارض خجلاً ثم قالت بصوت يدل على الانكسار : امن لازم الامر ان اوقفك على ما كان وهل يؤثر ذلك في كيفية المعالجة

— لا ريب

— سانبئك بذلك اذاً ولكن كن على علم اني سانص عليك رواية جامعة غرائب الاحزان والمصائب وعجائب الاهوال والنوائب ومنها يتضح لك المكائد التي نصبت لاهلاك هذا الانسان والمخاطر المحدقة بك من كل صوب

— بي ···· انا ···· واي خطر تعنين

— اعني نفس المصاب الذي الم بهذه النضرة التي تراها امامك (وقد اشارت الى اندراوس) ونفس الخطر الذي ذهب بحياة والدك ! ···

— وقد تعاقبت الالوان في وجهه من جراء شدة التأثيرات المختلفة — تكلمي ايتها السيدة زيحي النقاب عن وجه الحقيقة فما اراني صابراً على الحالة التي ترين ··· وانا منقلب على شوك القتاد

— نعم ساطلعك على كل شيء ···· اذ انني وثقت على جلية الامر وانجلت حقيقة الحال على اني اسالك ان ترفق بي وتجعلني في مأمن من مقاطعة حديثي مهما يؤثر بك

مولاي ساقص عليك اموراً مريعة وساطلعك على اثام وفظائع ما سمعت بها اذن ولا نطق بها لسان فلا تنفر مني اذا ما استفظعت الامر ولا تعاملني بالامتهان تطردك اياي من هذا البيت ···· جد لي بوعد الكريم انك تعاملني بالرفق وتتغاضى عما تسمعه مني والاّ فلا اقدم على مكاشفتك بالامر ولا انوي على تتمة الحديث حتى النهاية ! ···

فتردد يحرج لاول وهلة في الامر اعتقاداً ان المرأة التي تكلمه هي خليلة نيا كان سبباً لعياء اخيه وبينما كان على تلك الحالة التفت الى اخيه فرأى ان العلة تتقدم

بسرعة حينئذٍ عزم على اخفاء الطرف عن تلك المرأة مهما يكن من امرها فقال لها على الفور: ثقي تشرفي ايتها السيدة اني لا اوبك على شيء ولا اتاطع لحديثك فرجائي ان تتكلمي مبينة اياي بالامر ... عجلي بالكلام لان الزمن قصير وكل دقيقة تمر تذهب باشعة امالي من شعاع اندراوس ... فجلست لولوة على كرسي واطبقت عينيها لكي لا ترى ما يكون من تأثير مفاعيل كلامها على وجه جرج الجالس على كرسي اخر امامها. ثم قصت عليه وقائع الروسه وما اقترفه من الفظائع على ما كان رواهُ لها عريز ولم تدر في جانب طي الكتمان سوى ذكر انتشال غادة القاع وكيف انه طمعاً في نول ما تركه اعتسف محجة العدل وهان عليه ارتكاب تلك الجرائم هذا ولم تبق لولوة اثامها في طي الخفاء بل صرحت لجرج بما ارتكبته بمباشرة الروسه ... ثم سردت الحوادث الاخيرة واسامت ما يكنه فؤادها من المودة لاندراوس مودة بعيدة عن كل اثم وانها تحن اليه حنين الشقيقة الشفوقة بل الام الرؤوفة نادمة على ما فرط منها بحكم القضاء والقدر ثم احرنه تباسا المكيدة التي نصبها الروسه قريبها لاندراوس و باختفاء مخائل الجاوي .. والنبهة المفارقة التأكيد وهي ان الجثة التي سرقت من المنزل (الكريما) كانت جثته وخلاصة القول ان جميع تلك الحوادث كانت منطبعة في ذهنها فلم تنسَ منها شيئاً البتة وانت مراراً في سياق الحديث على ذكر اسم مراد لك

اما جرج فكان على ما وجد صاغياً منتبهاً لكلامها لا يفوه ببنت شفة على ان الوان وجهه كانت تشف عن انفعاله وتأثيره و بعد اذ اتمت حديثها قالت له مولاي انت تعلم الان كل شيء وتعقل مغزى ما انبأتك به وهو ان الخطر محدق بك

فتماسك جرج عن الجواب وظل يطفر الى شقيقه نظر الاشفاق والحزن. فدار في خلد لولوة ان جرج اعرض عنها امتهاناً لها واستعظاماً لجريرتها لذلك جثت امامه وتوسلت اليه الا يطردها من البيت بل يأذن لها ان تخدم اندراوس ثم قالت: ان اخاك الان في الحاجة الكبرى لمساعدتي اذ انني على ما ترى دائبة متفانية في سبيل خدمته وساكثر البرار والسهر اذا لي وانما لا سبيل لي رجاء من يشفيني. فهز جرج براسه اشارة اليأس وكرر بلهجة الحزن عبارة لولوة — رجاء ان يشفى ! — كانما هو يقول:

— لا رجاء بشفائه

— اسفاه ياسيدي ان اخذتني المنون يجب ان يعد نعدان لانني لا اطيق الحياة بعده ولا اصبر على فراقه بل انني سالحق به لا محالة

— رجاي بك ايتها السيدة ان تبقي ههنا لان مروتك تشددني في اضطرابي ومودتك الصادقة تعزيني في مصابي . واما اصلح عنك اعتقاد انك لم تغفري الخدر ولم تقصدي الضر ومؤكد لدي ان اخي المسكين يسامحك ايضاً . ان تمكن من الاطلاع على ما يكمه فوادك من العواطف الكريمة ! فاثر هذا الجواب في قلب لولوءة وودت ان تبث شكرها لجرج على انها لم تنوِ على الكلام وخنقتها العبرات وظلت جاثية امامه ثم نظرت لاندراوس فرات يده بارزة فوق الغطاء وهي صفراء كالشمع فاخذتها وضمتها ليد جرج وقبلتهما عبارة عن شكرها واشارة الى امتنانها

٣

وعلى اثر ذلك شرع جرج يهتم بامر مداواة شقيقه على انه بالنظر الى حبه الاخوي كان مشفقاً من اجراء ما كان يخطر له اجراؤه وكثيراً ما كانت تضطرب افكاره مع انه آن مداواته الغير قد عرف واشتهر بالاقدام وثبوت الجاش وصفاء الذهن مهما كانت العلة متمكنة من المريض ولما ادرك حقيقة اضطرابه جعل راسه بين يديه وحاول ان يجمع تصوراته ثم رفع عينيه نحو السماء وقال: الهي انك اخذت بيدي مرارا فانقذت كثيرين من خطر الموت وبقوة الحكمة التي اوليتني والمساعدة التي وهبتني تمكنت من تجديد عناصر الحياة لعدد عديد من البشر فهبني اللهمّ ان اتمكن من شفاء شقيقي كن لي معيناً جد لي بشعاع من حكمتك الالهية . ربي اني مباشر امر علاجه فان وفقت لشفائه فمعونتك هي الشافية وان اخفق مسعاي فارادتك هي القاضية . الهي لك الحمد في الامرين الموت او الشفاء ولك الشكر في الحالتين الضراء او السراء

وعلى اثر هذه الاستغاثة فطن جرج لامر فاجراه وهو انه استدعى للحال اثنين من زملائه الاطباء النابغين كي يعاوناه بالعمل وبعد ما راٰهما فحصرا وبعد اذ فحصا حالة العليل فحصاً دقيقاً تبادلا الراي في شانه ثم قررا معلنين لجرج ان الامل بشفائه من رابع المستحيلات وانه من المحتمل ان يستفيق العليل في الليل المقبل من غيبوبته لكنه سيقضي عليه في الغد لا محالة ومن ثم فمن العبث ان يصفا له علاجاً لان الانحلال قد اخذ من جسمه ماخذاً عظيماً والدم قد قل في عروقه وقواه قد وهنت تماماً وان هذه الحالة انما هي نتيجة الانفعالات والتاثيرات التي استحوذت عليه والتي ستكون سبباً لموته وخلاصة القول ان قرار الطبيبين كان عبارة عن قطع الرجاء من

ولم يكن جرج ليجهل ذلك بل كان عالماً بجلية الامر واقفاً على كنه الحقيقة وجاء تشخيص الطبيبين منطبقاً على تشخيصه على ان حبه الشديد لاخيه جعله ان يتبحر في امره فطفق يخاطب ذاته قائلاً: واو لم يكن من امل ظاهر أيسوغ ان اترك العلة تسري في البدن دون ان احاول توقيفها بما اظنه ملائماً من الادوية—أأترك المريض وشانه — ومن يعلم ان كان الله لا يساعدني على شفائه بذريعة من الذرائع — والآن اذ قطع الرجاء من استعمال العلاجات العادية افلا اقدر ان اجري عملية خارقة العادة لعلي اتي بالصواب .... وان اخفقت العملية افلا اكون سبباً لموته — افلا اكون قتلته بيدي ...... وان لم اجرِ شيئاً على وجه الاطلاق افلا يموت العليل بدون اشكال؟

وبينما كان جرج غائصاً في بحور الافكار وقد بارحه الطبيبان بعد اعطاء القرار صاحت به لولوة وقد فاضت الدموع من مقلتيها واختنقت تحسراً وتلهفاً:

— الم يبق رجاء؟

فاجابها والدمع يقطر من مقلته الحمراء

— لا مطمع ولا رجاء والطبيبان قررا ان موته قريب

— او انت ايضاً اصابك الذهول ونقطت من اجراء التدابير المودية لانقاذه

— انيت بعد فوات الزمن الملائم

ثم تماسك عن الكلام بغتة وبعد دقيقتين قال بصوت منخفض كانما هو يخاطب نفسه:

— وصلت بعد فوات الزمن ... ومع كل ذلك ... اه لو اتجرّاه ....

فاجابته لولوة

— لو تتجرّاه ... واي شيء يقعدك عن مباشرة اي الاعمال طالما حيوة ادراوس تطلب منك الجرأة والاقدام. ما يعوزك واي شيء ينقصك .. قل

— يقتضي لمعاونتي شخص صحيح الجسم قوي البنية غضّ الشباب

— وما حاجتك اليه؟

— اه لو اني اجد الشخص الذي ذكرت لكنت اخاطبه بما يأتي من الكلام « الست ترى اخي هذا الضئيل المشرف على الموت لما ان دمه القليل غير كافٍ لتغذية جسمه وانت يدور الدم في عروقك بغزارة والحياة تتدفق من محياك فما ضرك لو املك تجهيد

لهذا المائت بنفضلات دمك والزائد من قوتك .... دعني استنزف شيئا من شريان يدك وانقله الى شريان هذا المائت نتعاوده الحياة وتتجدد فيه القوة ويبارحه الوهن وبهذه الوتيرة تكون قد انقذت من الموت رجلاً يشكر لك جميلك طول العمر ويذكره ابد الدهر يعيش بك ومنك ويغتذي بدمك ويحيى بقوتك ان شاء الله تعالى » ذلك ما كنت اقوله لذلك الانسان ....ولكن من ذا الذي تدفعه المروءة والشهامة لمثل هذا الجود والانقياد .... اسماه ان ما اطلبه وترغب نفسي فيه هو رابع المستحيلات

فاجابت لوئوة — وقد لاح على محياها نور الامل والرجاء —

— او تظن ان هذه العملية تتكفل بنجاته من الخطر؟

— ذلك في حيز الامكان بل العملية التي اشرت اليها قد اتت مرارًا متعددة بالغاية المقصودة وقد رأيت مرأى العين في بعض المستشفيات اناسًا كادوا اشرفوا على الموت فكانت لهم النجاة بالواسطة التي ذكرتها ... على اني ارى اخي بحالة من الضعف الشديد لا اتمكن معها من اجراء الامر ولعله يموت ابان مباشرة العملية بيد اني اباشرها لو امكن وانا بين المخافة والرجاء اذ لا ارى ذريعة اخرى تنال منها الامال

— سيدي ايلزم لتجديد دم اندراوس ان يكون الشخص المحكي عنه رجلاً وبعمر اندراوس

— كلا لا فرق ان كان رجلاً او امرأة فالدم الذي يرسل الى شريان المريض لا يغير دمه الخاص بل يقوي الدورة ويمكن الطبيب من اصلاح جوهر الدم العام. فالدم هو المادة الحيوية والجوهر الاهم في الجسم فان امكن تجديده وتقويته سهل على الطبيب ان يصلح نوعه ومادته من الفساد الطاريء عليها والسر في هذه العملية ايجاد طريقة تسهل حركة نقل الدم من شريان الانسان الصحيح الى شريان العليل بما يمكن من السرعة اما هذه الصعوبة فقد ذللها جراح شهير في مدينة باريس باختراعه اسطوانتين لهذه الغاية بواسطتها تتيسر الاتصالية بين الشرايين وذلك ان يشعر الطبيب احدى الاسطوانتين بيد رجل والاسطوانة الاخرى بيد الاخر

— وهل انت على يقين من انك تنقذ اندراوس من الهلاك اذا ما تمكنت من وجود امرأة تود ان تجود بدمها لهذه الغاية وتكون رهين امرك وتقف اشارتك بكلما يعوزك لتحقيق امانيك ونجاح مسعاك هذا؟

— لا براح ان الله يشفيه اذا اجريت هذه العملية . على شريطة أن تكون المرأة في صحة الجسم ووفرة الدم . وقد ذكرت لك ان لا خلاف بالنظر الى الجنس لان كثيرًا ما شاهدت في المستشفى اطباء يدفعون مبالغ جزيلة لرجال اقوياء يجودون بنزر من دمهم قصد ان ينقذوا من خطر الموت نساء اضعفتهن بعض العمليات الجراحية الكبيرة

فصمتت لوئزة برهة وقد بدت على محياها سيماء السرور والانتعاش وزالت عن وجهها صفرة الخوف وتبدلت بنضرة الامال ولاح في عينيها ضياء الرجاء فكان الفرح افعم فؤادها واخذتها هزة الطرب ثم انها تقدمت نحو جرج وقبضت على يده قائلة

— سيدي ان الشخص الذي تطلبه والذي ترجو منه فائدة . لي هو بالقرب منك اجل اني مستعدة لاتمام ما تأمر به واعلم ان قوة بنيتي وصحة مزاجي تتكفلان بغرضك فخذ ما شئت من دمي . . . بل خذ دمي كله وتصرف بحياتي كما تريد وترد على شريطة ان يعود ذلك بالفائدة على صحة اندراوس . آه لو كنت تعلم ما يخمله فؤادي من عواطف الاسف والحزن كلما نظرت الى اندراوس ورأيته على ما هو عليه من الوهن والضعف بينا ارى ذاتي متمتعة بتمام العافية وكمال القوة وكنت اخاطب نفسي قائلة : «أأستحق هذه الصحة البالغة معها انا عليه من الذنوب والنقائص بينما ارى الضعف والنحول يلازمان اشخاصًا كاندراوس يسيرون في سبل الصلاح والبر» فاتقدم اليك ياسيدي برغبة ولهف ما عليهما من مزيد الاّ ترفض طلبي . خذ من دمي . . . ! خذ من دمي . . . تصرف بحياتي ولا تحرمني من هذه السعادة العظيمة التي بها اتمكن من ان اخلص اندراوس من الموت . . . نعم نعم ان تقضي على احيك فاكون انا سبب موته !

سيدي ان اجريت العملية التي ذكرت فالامل معقود بشفاء اندراوس ولا ريب انه متى عادت اليه العافية سيعاودني من بونه ويكثر من استجلاب الذمة . لي على انه سبقى لي تعزية واحدة وهي ان دمي ازال عنه الالم والخطر وحسبي ذلك وكفى . لا تحرمني يا سيدي هذه التعزية وهذا الرجاء وانه سعادة تماثل سعادتي عندما اتصور ان دمي يجري في عروقه ويدفع من قلبه . . . سيدي هذا ذراعي فبادر باجراء العملية . . . الامر سهل واجد في اجرائه لذة تفوق كل سرور . . . سيدي استحلفك بالله وبمن تحب ان لا ترفض طلبي . . . آه اراك لا تفوه ببنت شفة . . . كأنه بامساكك عن

الجواب دليلاً على عدم رضاك نعم نعم . . . انت تأبى اجابة طلبي لما اني زوجة رجل شقي . . . لما انني ملطخة بدنس الاوزار والذنوب وتخشى من أن دمي يدنس دم اسيك الطاهر اذا ما مزج به ! . . . نعم ارى في عينيك آية الاباءة وإشارة الاذدال كأنما انت تقول ان طلبي إن هو الا خلاصة الافتراء والجنون واني اطلب السعادة على حين لا استحق الا الشقاء واطلب الشرف والاكرام على حين توجب لي ذنوبي الامتهان والاذلال

فاجابها جرج بقوله

— انك لعمر الحق غير مصيبة بما تدعين لاني اقبل طلبك واثني على مروتك ابد الدهر واشكر لك جميلك ما شاء الشكر

— اتقبل حقاً رجائي وتستجيب ملتمسي . . . عفواً سيدي اكاد لا اصدق ما تقول

— ايتها السيدة انك اطلعتني على اسرار فؤادك وارضحت لي مكنونات نفسك فأحسب اثيماً ان عاملتك بالجفاء نعم لقد اقترفت ذنباً عظيماً في ماضي حياتك ولكن قد لاح لي ان توبتك صادقة والله تواب رحيم . فانا اغض الطرف عما اقترفته من الذنوب ولا انظر الآن الا لاخلاصك وشهامتك وصدق خدمتك

— الهي احمدك ما شاء الحمد واشكر لك كل الشكر لانك اوليتني نعماً لا استحقها واوجدت لي آمالاً ما كنت لانتظرها . الظر لا تأبى سيدي ان اجابتك سؤلي لدليل واضح عما بقلبك من الشفقة والحنان واني اطلب اليه تعالى ان يكافئك عني خيراً لو انك استقطرت آخر نقطة من دمي بغية شفاء اخيك

— كلا لاني ان فعلت ذلك . فاسبب لك الموت الاكيد دون ان اخلص اخي من الخطر بل ما يلزمني اليوم فعله هو ان اعطيه من دمك قوة كافية ليعود من غيبوبته وتتناقص درجة هذه الحمى التي تضطرم في احشائه

— افعل ياسيدي ما تشاء اني رهينة امرك ووقف اشارتك وخذ من دمي ما تريد . . .

قالت هذه ورفعت كم ثوبها ثم قدمت ذراعها لجرج الذي كان يود ان تكون لديه الادوات اللازمة لمباشرة العمل فذهب للحال الى احد اصدقائه وزملائه واستجلب سائر ما يلزمه وعاد للبيت على جناح السرعة فوجد هناك عزيزاً جالساً بالقرب من سرير اخيه وقد عرفه جرج لان لؤلؤة كانت انبأته بما ابداه عزيز من الاثر الجميل

يحق اندراوس فما كان من جرج الا انه شكر لعزيز واجب ما له من عظيم تضحياته ما
ابداه نحو اخيه الا ان عينيه كانتا ملتهبتين اثناء الكلام لما انه كان يفكر بأمر ابيه
وباختفائه الغريب ثم ان جرج وعزيزًا تصافحا مصافحة صديقين حميمين فعاد واحد
وضمنها غاية الاخوة الا وهي معاونة رجل في مالكو خائن مخادع ولا انتفاع به انتقامًا
منه لما اقترفه تجاه الشيبة من الآثام الشنيعة والشرور المضرة

ثم ان جرج اطلع عزيزًا على ما عقد النية عليه من اجراء العملية الطبية الآنفة الذكر
وانباءه بما ابدته لولوة من كرم الاخلاق والنفوس الميتة للمروءة عن الشهامة . وكيف انه
لولا ذلك لكان بحسب عادة ايجاد من يقوم بالغرض المقصود فشكر عزيز شهامتها
وقدم نفسه عوضًا عنها بقوله : اني بعمر اندراوس وصحتي بحمد الله بالغة ولعل دمي
يكون اكثر موافقة ... فصاحت لولوة ويداها على صدرها قائلة لعزيز : لم تود
ان تحرمني ما بي سعادتي ونجاتي من الم اضطرابي وقد شهدت لك العباد والارض بحسن
الطوية والاخلاص والشهامة وانت بحمد الله صحيح نحيف عن ان تؤيد صفاتك الكريمة
بالادلة والبراهين ... اما جرج فصل الخطاب معلنًا انه يوافق لولوة على طلبها
لما في الامر من استرجاع شرفها وتعويض حرمتها فضلًا عما فيه ايضًا من غريب التبادل
بين عناصر الروح الذي يقصد ان يذهب بحياة اندراوس ومروءة لولوة التي
تود ان تفديه بحياتها

. . . . . .

اما اندراوس فكان لم يزل على حالة فاقد الرشاد لا يعي شيئًا مما جرى وحدث
بالقرب منه على ان عينيه كانتا شاخصتين متنقلتين على غير هدى تارة بعزيز
وطورًا بلولوة دون ان يعرف احدًا منهما وكلما توجهت الحاظه نحو لولوة كانت
تحول مرتعشة : « يا اخي الا تصفح عني »

. . . . . .

ثم ان جرج بعد اعداد ما يلزم شرع في العملية فقصد الشريان الايسر من
ذراع لولوة والشريان الايمن من ذراع اخيه بحكم وضع الانبوبة بموجب الفنون
الطبية فاخذ الدم يتدفق قطرة قطرة من ذراع المرأة الصحيحة الى ذراع الرجل
المدنف

اما لولوة فكانت صبية نحيلة بادىء ذي بدء ثم اخذ الاصفرار لون يبدو
على وجهها وشعرت بثقل في رأسها وخال لها ان مرضًا اسود يخيم ابصارها ثم احست
بدوار وشعرت تمايل كانما هي سكرى ثم مالت براسها على المخدة وتجمعت ثم قالت
بصوت خفيف (وقد ظننت انها تموت) يا اخي ! ...

وبعد ان قضى جرج ضحاء من الليل يرعى اخاه ويراقب سير العلة انطلق الى بيته ودخل غرفة المكتبة توًّا وشرع في ترتيبها واعداد ما يلزم للعمل المنوي . على ان التعب كان لحقًا منه كل مأخذ لما عاناه ذلك النهار من المشقة على اثر وصوله من السفر واذ لم يتمكن من الكتابة ذلك المساء قصد غرفة المنامة وانطرح على السرير مسلمًا قياده لسلطان الكرى . . .

اما سمعان فلما تحقق ان سيده قد رقد دخل مسرعًا غرفة المكتبة فوجد على المائدة اوراقًا منتشرة وكتبًا متفرقة فنظر الى كل ذلك بمنتهى التدقيق على انه لم يجد شيئًا مكتوبًا على تلك الاوراق ليلاحظه على ما كان آمرًا به فانثنى راجعًا ذلك المساء بصفقة المغبون

❊ ٣ ❊

ولما اصبح الصباح وهو اليوم الذي يجري فيه البراز بين فرند والمركيس انطلق جرج لعيادة اخيه فوجد لوءلوءة تسهر على خدمته ولكن ادوارس لم يزل في سبات عميق فاوضح جرج ان المريض يحتاج لتكرار العملية على انه يشفق من استئنافها مخافة ان يحل الوهن بلوءلوءة بيد ان هذه المرأة الودودة توسلت اليه الا يشفق عليها وبرهنت له عن قوة جسمها وغزارة دمها حتى اقنعته فانقاد اليها واستأنف العمل واندفع الدم النقي جديدًا في عروق الشاب المدنف ولما كان المساء بدت على وجه العليل ملامح التقدم نحو العافية فسكن روع جرج وعاوده الاطمئنان ثم قصد غرفته وشرع يحرر الفصول الطوال من الاختراع الذي وقف عليه .

اما لوءلوءة فمكثت في غرفة ادوارس تحرسه وتزعاه على ضوء نور ضئيل وكان في الغرفة المذكورة سكون تام لا يقاطعه سوى حركة النسيم الذي كان يوسوس اوراق الاشجار من الخارج واذ كان قد انهكها السهر وفقد الدم استوت على كرسي بالقرب من سرير المريض ثم غفلت غفلة من الليل وبعد ساعة استفاقت وذهبت نحو السرير فوجدته نائمًا نوم راحة وكانت ملامح الصحة ظاهرة على وجهه لان الدم الجديد اعاد له نوء الحياة فتبسمت ورفعت عينيها الى السماء وقالت احمدك اللهم فانك استجبت سوءلي وانقذته من الخطر المبين احمدك لانك جعلتني ان اخلصه بدمي وجعلتني ذريعة حياته ثم عادت الى المتكاء لتستريح وكان الفرح يسطع في عينيها وملامح السرور تبدو على محياها وما لبثت لحظة حتى احست بحركة في سرير المريض فتحولت

نظرها اليه والحال انغمضت جفنيها واحنت راسها وحاولت اخفاءه بين كفيها لانها رأت اندراوس جالساً على السرير وهو على تمام الرشد والانتباه ثم جعلت تنظر اليه من خلال اصابع يديها مشفقة من ان يعرفها وتمنت لو انها كانت فاقدة الحس وكانت تقول في نفسها ماذا يحلّ به أن عرف من انا ولاي العلل بسبب وجودي بازاءه في مثل هذه الساعة من الليل وبعد الحوادث التي جرت .

اما اندراوس فبعد اذ استفاق من غيبوبته وجلس على سريره اخذ يتفرس في غرفته وبينما كان يتفقد ما فيها من الاثاث نظر بغتةً امرأة جالسة على كرسي بالقرب منه فقلق باله وقال بنفسه : « من هي هذه يا ترى من وجودها هنا ولمَ اراها على هذه الحالة من التستر ثم حاول النهوض قصد استجلاء الامر فلم يقوَ على القيام فسقط على السرير وتنهد .

فاشفقت لوءلوءة من ان يكون قد وقع له واقع فنهضت للحال متقدمة اليه وكان نور الضوء الضئيل منعكساً على وجهها فعرفها اندراوس وبسط ذراعيه نحو الامام كانما هو يروم ابعادها عنه وصدها عن الدنوّ منه ثم صاح مدهوشاً بالفاظ لم يفهم منها غير هذه : « لوءلوءة لوءلوءة . . . أأنتِ لوءلوءة ! نعم نعم . . . أنتِ لوءلوءة ! . . . يا للشر ! » . . . .

لا ريب ان الغضب والتأثر يصوران المرء الخاضع لسطوتهما في صورة يعجز القلم عن وصفها ويقصر اللسان عن بيانها وكنا نود لو تكون لدينا الوسائط اللازمة لنضع امام عيني القارىء رسماً يصور له هيئة اندراوس في الحالة التي ذكرنا على اننا نقتصر على القول ان حركاته والفاظه وهيئته كانت تعرف عن تعاقب تاثيرات الغضب والاحتقار والازدراء والحزن والكآبة والانتقام . . . ولو كانت شدة التاثير مما يجلب الموت في كل الاحوال لكان قضي على لوءلوءة من جراء ما اصابها عندئذٍ على انها لبثت صامتة خامدة الانفاس لا تجسر ان ترفع بصرها اليه وكان اندراوس مطروحاً على سريره شاخصاً لا يبدي حراكاً ويداه منبسطتان كما كانتا حالما عرف لوءلوءة بعد غيبوبته وبقي الاثنان دقائق متوالية على هذه الحالة سكون وصمت تامين كانهما جثتان لا روح فيهما وبقي اندراوس يتساءل عما اذا كان ما يراه حقيقةً او رؤيا تصورها المخيلة المضطربة بفاعيل الحمى ثم استوى جالساً وقال بنفسه ما انا في حلم بل انا في ذاتي بتمام الانتباه ثم شعر بان قد عادت بعض قواه فانتصب واقفاً وتقدم نحو لوءلوءة ولما دنى منها تفرس في وجهها ملياً ليتأكد ما اذا كان ما يراه خيالاً او جسماً حقيقياً اما

في غرفته قليلاً الى الوراء واغمضت عينيها واخذت تتنفس اما هو فجلس بجانبها اذ انجلت الحقيقة لديه تماماً فصاح بغضب قائلاً :

— لولوة ! ... لولوة ! لقد عرفتك ... أأنت هنا ؟ ما غرضك ؟ أتبعين اثري حتى ابواب القبر لاما كان جلبه على شقي السابق لك من البلاء والشرور ؟ احببتك يالولوة حب الاخاء وكنت انظر اليك نظرة الصديق المخلص فساء ظني وجارت الظروف على بجور الدهر وغدرتني شماتة القدر وهزتني على لما اراد القهر ! ... على ان الزمان قد اطلعني على مساوئك يالولوة اغلق في الحنادس والآلام وكانت الامراض تذهب بجمالي ... فاي شيء تقصدين بمصائبنا الغرض من مجيئك الي أاشفقت من ان تعاودني الصحة فاتيت تجردين علي يد المكر وتلقيني بذوي العظام الرميمة ؟ .

فجمد لسان لولوة في فيها وتماسكت عن الكلام واندفع الدمع عن عينيها يجيب اندراوس معرباً له عن عواطف اخلاصها ثم حاولت ان تتكلم فخالفت وكانت الصهيل يمازج حديثها

— اندراوس ! ... نعم ... انا لولوة ... فلا تطردني الان ... فقد جئت بعتك على حين كانت العلة متمكنة منك ايما تمكن ... على حين كانت حياتك في خطر مبين ... على حين لم يكن لديك من يعولك او يتعهدك ... وربما كان قضي عليك لو لم تبذل العناية تلك التي تدعوها خائنة وغادرة ...

اما الشاب فظل يفتكر دون ان يتدبر مقالها وكان يحاول ان يستحضر صورتها السابقة ويمثل تجاه ذاكرته تلك الواقعة المهولة بسائر ظروفها اذ انبأه الرونه بسيرة لولوة ومزق فؤاده بسرد تلك القصص المريعة . ثم قال بنفسه : اجل ان ما انبأني به الرجل حقيقي واقعي ... أصدقيني هل انت بالامر كما اخبروني ؟ ...

اما لولوة فقد ادركت كنه سؤاله تماماً لانها رأت الى حوارية رغبة منها في ان تصرف خاطره عن ذكر تلك الواقعة التي اثرت فيه وكانت علة علته فاكتفت بان اجابت قايلة :

— من المخبر ؟ ...

— اتجهلين من المخبر ؟ ... انما هو حليلك الرونه !

فاحنت لولوة رأسها ولم تقو على الكلام ولبثت صامتة . اما هو فاستتلى كلامه

قائلاً :

— نعم نعم ان كنت ما قصصته علي واقعي لا ريب فيه وقرأته على محياك بأجلى آيات البيان والتصريح فعلام اخفيت عني الحقيقة ؟

— اشفقت من ان يكون اطلاعي اياك على جلية الامر داعية لتصرم عرى المودة التي كانت موثقة بها . او ما تدري اني كنت اود ان اكتم عنك الحقيقة تأييداً وتعزيزاً لما بيننا من عهود الصداقة وعواطف الحب الطاهر

— فاستأنف اندراوس الكلام بمزيد الحنق والغيظ قائلاً

— وخلاصة ما تعنيك ان اقترانك بالروسه كان عقداً ثانياً للزواج ؟

— اجل اقترنت به .

— فانت اذاً بالحقيقة زوجة ذلك الرجل الذي باغتنا ذلك اليوم .

— نعم .

— هو بعلك الثاني .

— اجل وكان صوتها يختلج بالبكاء .

— لو ملأت هذا الانسان على الشر وارغمتني على اقتراف اعظم المآثم والذنوب اجبني ولا تواربي .

— اقر اني اقترفت ذنباً عظيماً وجريرة كبرى على اني ارجو ان يتوب الله علي والله تواب غفور .

— يا لشقاء حالك ! . . . تباً لك من امرأة اثيمة ! . . .

ثم ان ثورة الغضب استولت عليه فزاغ عن الرشد وتقدم اليها بدون ترو وقبض على عنقها ضاغطاً عليه بيديه اشد ضغط حتى انه كاد يخنقها ويذهب بحياتها

اما هي فابتسمت مطلقة ما شاء اللطف وقالت له بصوت يشف عن الخضوع والانقياد : اقتلني فاني اموت سعيدة كفارة عن ذنبي . خذ حياتي فكأس المنون من يديك شهي لدي . امتني وانا اباركك وثق ان لا شيء ينزع ودادك من فؤادي .

على ان اندراوس لم يقوَ على الايقاع بها لما كان عليه من الضعف والوهن فتركها ثم استوى على المتكاء وقد ابهظه الانفعال حتى انه غاب عن الرشد وغشي عليه ، ما لوثة فاسرعت ورشت وجهه بالماء البارد ثم انشقته ارجة منعشة فعاد اليه روعه فقال لها

— اتطمعين في عفوي عنك بعد اذ ظهرت مساوئك كالشمس في رائعة النهار

واتكأت على كرسي وراء احد الجبوف موهمة انها تريد ان تنام وقد حاولت ان تبكي بيد ان الدمع كان قد جفّ من مآقيها فمدت يمينها الى يسراها ورفعت كمّ رداها وكانت تعمل بحيث لايشعر اندراوس بما كانت عقدت النية عليه ثم انها حلت اللفائف التي كان ضمد جرج بها فصادة ساعدها واخذت من خلال شعرها دبوساً كبيراً وادنته من محل الفصادة ثم قالت بصوت منخفض

— اندراوس الا تصفح عن ذنبي ؟ ...

— ابداً وقد قلت لكِ ان ذلك فوق امكاني

— اذاً اني استودعك الله واغيب عنك . يا ايها الصديق العزيز والاخ الحبيب ! ....

— على الطائر الميمون . بحراسة الله

قال هذا وغاص في بحار التصور غير ناظر اليها

اما هي فانفذت الدبوس في محل الفصادة وفتحت الجرح ثم ردت الكم واغمضت عينيها فاخذ الدم يتدفق على ثيابها . وقد احست بداءة ذي بدء بسائل فاتر يسيل بغزارة من ساعدها وبما ان يدها كانت منسدلة على ركبتها امتلت ثيابها ورجليها واحست بالضعف الذي استولى عليها عندما فصدها جرج قصد تجديد دم اندراوس ثم علت عينيها غشاوة واحست بثقل في راسها وكان يخال لها ان الغرفة تدور بها مع ما فيها من الاثاث ثم ازداد وهنها وكانت تقترب من الموت وقبل ان تغيب عن الهدى تماماً قالت ايضاً لاندراوس

— امصرٌ انت على ان لاتسامحني

— قلت لكِ اني لا استطيع ذلك ابداً !

ثم عقب ذلك سكوت تام وكان اندراوس لم يزل غائصاً في لجج التبصر والتصور ...

اما لولؤة فكانت فاقدة الحس وغائبة عن الرشد وظل الدم يسيل من عروقها والموت يدنو منها

اما جرج فبعد اذ صرف مدة من الليل في منزله يحرر الفصول الطوال في اختراعه خطر له ان يعود اخاه قبل ان ينام واذ وصل صحن الدار سمع محادثةً في الغرفة واذ دخل اقترب من سرير اندراوس وقال له

— كيف انتَ الآن

— اراني متجهاً نحو العافية فاحمد الله على ذلك

— لاح لي انك كنت تتكلم

— نعم تكلمت ولوءلوءة برهةً من الزمن

فنظر سجرج الى الامرأة والحال استولت عليه الدهشة والذهول اذ رآها بحالة تحاكي حالة المائتين وبعد اذ تفرس فيها وجد وجهها مكفهرًا وملابسها مبللة بالدماء فقدر الامر للحال وعظم اضطرابه مشفقًا من موقف العفى ووخيم المغبة فرفع للكم واذ رأى الدم المنهمل ادرك ما كان الباعث لفتح الجرح وبادر لتضميده بما امكن من السرعة ثم قال يا للاسف ويا للمصيبة انها قد حاولت الانتحار !

فصاح ادراوس للحال :

— أي ذلك ... ما تقول ؟ ...

— لا بد ان تكون جرت بينكما حادثة عنيفه ... ولا ريب انك احتدت عليها بالتعنيف وبكتها تبكيتا مرًا ... ومن اجل ذلك انها تموت ! ..

— تموت ! ... وما السبب في موتها !

— اجل ان لوءلوءة تموت ! ...

— كيف ذلك واية ذريعة اتخذت لقتل نفسها ؟

— الم تنبئك بشيء عن ذلك

— لا لعمر الحق

— اعلم ياشقيقي العزيز ان حياتك كانت في خطر مبين وكنت مشرفًا على الموت لامحالة على ان الخطر قد بارحك والموت قد انثنى عنك باخلاص هذه الامرأة المسكينة . نعم ان الدم الذي يسير الآن في عروقك الذي به عاودتك قواك وتجددت عناصر حياتك انما هو دم لوءلوءة ! فانت الان حيٌّ بها ومنها بعد ارادة الله . او ما سمعت بالاختراع الجديد الموءدن بارسال الدم من جسمٍ الى جسم اخر

— اجل أشت بذلك

— فالان لا يستطر الّمك روعًا ولا ترتعد فرائصك فرقًا . خشية ان يوءثر ذلك بصحتك واحمد الله لاني اتيت في الزمن المناسب لادفع عن لوءلوءة الضرر والموت . اما انت فقد ابللت والحمد لله من الداء وعاودتك العافية وكانت لوءلوءة ذريعة الى هذه البغية وسلمًا الى هذا الملتمس بمعنى ان الخطر قد ذهب عنك تمامًا على اثر اجراء العمليه التي بها تمكنت من ارسال شيء من دمها الى عروقك ودليل

ذلك ما تشعر انت به من القوى التي تنمو فيك بمله سريعًا وان مكثت في ريبة من الامر فعليك ان تكشف عن ساعدك الايمن فترى اللفائف التي بها ضمدت الفصادة وكذلك ترى ساعد لوءلوءة الايسر معصوبًا لاني على ما ذكرته لك قد مالت مياهه وياما لهذه المسكينة فقد سمست الحيوة ... فقد رفعت هذه اللفائف والضماد الجريح والمسكات لخيافيها كان دم الدم ميدانق بغزارة من عروق هذه المرأة التي لها عليك الفضل العظيم وأكرم نعمة . . . .

— سألهاه اجزني . . . والقدها من عاقبة ماسببته لها . . . . لاخي . . . مبهوج . . . اشني مسرعًا هل انها ماتت ! لو لم يبق امل بحياتها ؟ —

وكان جرج قد شرع منذ رأى لوءلوءة تضميد الجرح منعًا للوهنة سيلان الدم وقد جس نبضها فوجد حركة القلب والعروق بطيئة وعندما استنبس اندراوس عن حالها قال له لا تجزع فهي لم تزل حية ولا ارى الآن ان الخطر محدق بها واحمد الله اني اتيت على حين ! لم تفت الظروف التي تمكني من معالجتها اما الآن فلا يداخلك القنوط والجزع ولا تنزعج نفسك ولا يضطرب ضميرك من هذا القبيل . . ان لوءلوءة قد اجترحت ولا ريب ذنوبًا عظيمة في ماضي ايامها وهو امر لا ريب فيه على انها غسلت اساءتها وعفت ما كان مهد على جرمها بتوبة صادقة فان كنت لا تغمد ذنبها ولا تصفح عنها فانك تسبب لها الموت لا محالة وتكون باصرارك على عيك قاتلاً متعمدًا . وما يمر في خاطري انه قد دار الحديث بينكما واليها سألتك لتتجاوز عن زلتها فرديتها بالخيبة وصرفتها عن مرادها فحملها اليأس والموت على قصد الانتحار وما عليه يترتب فعليك يا اخي الحبيب ان تخص جاهك وتسكن روعك وتجمع معي معلوماتها وتهبها كلمة الرضى وعبارة السماح فتزيل بذلك قنوطها وترغب في الحياة على ان حياتها تكون حيوة توبة وندامة وصلاح وتكون انت ذريعة لدخولها في طور جديد من الكمال والفضائل

— لا ريب ان كلامك كلام صواب ورشاد

— والان اما ترى ان تسامحها

— سافعل بعون الله

وفي اثناء مكالمة الاخوين كانت لوءلوءة استفاقت من غيبوبتها لان جرج كان قد انشقها الروح منعشة . فسمعت وفهمت ثم قالت بصوت يدل على الوهن وانحطاط القوى سانهض بواجب شكرك يا اندراوس وساذيع فضلك يا جرج فانما كريما العنصر

والمغرس ولا ارى ان ما بقي لي من الحياة بكافية للقيام بحق ساعة الطيك لي وهي منه

٩٤

وبقي جرج بعد ايوماً على معالجة الصراوس والموقة حتى ظهرت بعض فلعال من لحين فتيحة عنايته واما العليلان فشفيا تقوى بصر معا خاطرات بالي جرج من هذا القبيل ولم يبق له شاغل سوى شرح الاختراع الطبي الذي وفق للاكتشاف عليه واخذ على نفسه اشهاره ولم يكن باقياً من موعد بشرع سوى ايام قليلة اذ لم يبق للقول يومان لجرج كان اقسم لشرفه انه يتحرر لا محالة ان لم ينل شهوة علية فاخذ بالعمل وهي بالولد الايام على ابو لم يلق ظهرياً امر البحث عن والده وسأل رجال البوليس مرارة عما كان من امر الجثة التي وجدت فلم يدولوا له ما اتصلت معرفتهم اليه ولكن ما نقلوه له وجيباً للظن ان الجثة المحكي عنها انما هي جثته والدليل على ان ذلك كان تصورا متوهين اذ لم يكن ثمة ما يزيل الريبة ويؤيد الزعم ويجلي الحقيقة وكان البوليس ورجاله لذلك لم ينكصوا عن البحث والتفتيش سعياً في الوقوف على كنه الامر وبعد انهم اعتقلوا سعياً لانهم لم يهتدوا بان يأتوا بالجثة ولا بمن يقع عليه الشبهة فيتهم بجريمة القتل ٠٠

وكان مولد بك وورجاله مع عزيز وذويه قد تقاعدوا عن متابعة العمل بسرعة واهتمام بناء على بعض آراء مرّت بخاطرهم عدا ان الروسة انقطع مدة عن اعماله لما انه ادرك بان الافكار متنبهة اليه والانظار موجهة الى حركاته فظن اخصامه انهم امنوا آمنين من مكايده وفاتهم ان ذلك الشيطان كان يستغويهم بسكوته وتقاعده على حين هو يبغيهم الغوائل ويحفر الحفائر ويبث المصايد وينصب المكايد .

ومعلوم ان الروسة كان ذا ثروة واسعة ونشب كثير وكان المتعارف بين الناس ان فريداً من اعز اصدقائه وغرس من غرس يده لان البرابر لم يكن قد شاع ذكره وعرف امره وعليه كان من الحكمة ان يتشبث المتصاعبون بالصبر والجلد .

- اذا كان في صدر ابن عمك احنة فلا تستثرها سوف يبدو دفينها

وكان الروسة على اعتزاله وانفراده لا يعوته امر من الامور لان حب المطامع كثيرة كانت تزين له انه يقوى على ادلال تلك المشاكل الطارئة مهما تكون صعبة المرام وبعيدة المتناول لما انه كان قد قوي على اعظم منها . . . .

اما جرج فكان عالماً بالمكائد التي كان ينصبها له الروسة لان عزيزاً ولوء ابوه كانا اطلعاه عليها واقنعاه ان لابد من ازال الويل والتدمير بذلك الانسان والاقتصاص

ينقل كتابي الى سائر اللغات ويتحدث فيه الرفيع والوضيع ويثني الجميع علي ثناء
طيبًا وارتقي الى ذروة المجد [illegible] على بعد صيت بعيد وشهرة طائرة فانقل رجلي فوق
[illegible] رافع الرأس [illegible] من الحال المتواضعة [illegible] ليس
[illegible] لناظر ولا [illegible] ولو كان على الجهد [illegible]
[illegible] وهكذا يا اخي الحبيب اكون مضطرًا لان احضر في الموعد الذي [illegible]
لاني آمن من سقوط الشان وواثق بنيل المرام

[illegible] وانا الآن مشتغل بتنسيق التأليف وتبويبه وترتيبه على ما لدي من المعلومات وما
اتصلت معرفتي اليه بقوة التجارب والاختبار —

وكان جرجس يخلو في مكتبه ساعات متوالية جالسًا قبالة مائدة عليها الالواح
ومحررات تحوي تعليلات علمية وادلة طبية وكان يصنع تآليفه بتأنٍ واجتهادٍ ومشقة
قصده ان يبلغ نهاية التأليف في الوقت المعين والاجل المضروب مدفوعًا الى النهوض باعبائه
بعوامل شتى اخصها طلب المجد والرفعة وحبه لفريدة [illegible]

وكان الخادم سمعان يساعده احيانًا في اجراء بعض العمليات الكيماوية التي يوجبها
الاختبار صحيحًا ولما كان جرجس يومًا في غرفة الكتابة يشتغل بتأليفه مر بخاطره ذكر
فريدة فتاق الى رؤيتها ولعبت بفؤاده لواعج الحنين والنزاع فاستدعى خادمه
سمعان ولما امتثل بحضرته تفرس جرجس فيه فرأى ان سيماء الفكر والتدبر ظاهرة على
محياه على انه لم يطل اعمال الفكرة بذلك لانه كان لا يهتم بغيره فساله عما اذا
كان يعرف بيت مراد بك فاجاب الخادم انه يعرف المنزل المذكور وانه متأهب
لقضاء ما يأمره به سيده فعند ذلك دفع له جرجس رسالة امره ان يسلمها لفريدة وهذا
نص الرسالة المذكورة

ايتها السيدة الكريمة المعززة

وصلت الى بيروت منذ عهد قريب وتركني المجرع غصة بالقهر لاحتجابك عني
ولا انتظر سوى الموعد الذي تعلمينه لكي افد عليك واتمثل بين يديك ·
ولطالما كان هذا الموعد نقطة تصوري والمحور الذي تدور عليه افكاري في السنة
التي انقضت — وهي ايام سوداء [illegible] قضيتها بعيدًا عنك — وكنت
اهتز اضطرابًا عند ذكرى ذلك الموعد مخافة ان يمضي قبل ان ادرك الوطر اما
الآن وقد ظفرت بحاجتي وجئت تائبًا عما فات فارى موعدنا يقرب بتمام السرور بل

ارقبه رقبة هلال العيد بزيد الفرح اذ به يتأتى لي ان اقبل عليكم عزيز النفس مرتفع الرتبة والجاه واتمكن من ان اخطبك واحبك دون ان يتصور احد ان ذلك يحط من قدره ويتنزل من شانه اذ لا يلحق بك او بذويك غضاضة!! اذا ما اصبحت حليلة طبيب عالم قد سبق من جاراه وعلا من ساماه فغدا لا يدرك شأوه ولا ترام مساماته وعلى هذه الوتيرة لا يمنعنا مانع ولا يعارضنا معارض »

(جرجي اللباوي)

اما سمعان فاخذ الكتاب ثم سار ولما خلا به الجو فض غلافه بزيد الدقة وبدون خشية فقرأه ثم طواه والصقه على ما كان وضحك ضحك المستهزيء قائلا في نفسه : ان مولاي الروسه قد ابرم بالسداد اموره فلم يخطىء المرمى وقد اصاب ظنه بغان الموعد فان بعد الغد يكون اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار فيجب مزيد الانتباه لما يجري من الحركات

وظل سمعان سائراً الى قصر مراد بك فدفع الكتاب وقفل الى بيت سيده ووجد جرج معكفاً على الكتابة وكان قد اقبل الليل فاشعل سمعان قنديلين في غرفة المكتبة وظل ينتظر

وبقي الطبيب منقطعاً الى العمل تارة يكتب ومرة يقلب صفحات الكتب الى ان انقضت الساعة الثانية من الليل وعندها ذهب جرج الى منزل اخيه يتفقد حاله وصحة لولوة وانبأ الخادم سمعان انه لايعود الاّ نحو نصف الليل وامره ان ينتظر اياه عسى ان يكون ثم حاجة يقضيها او امر يجريه

وبعد ذهابه اغتنم سمعان فرصة غياب سيده واخذ يفحص من غرفة الى اخرى متفقداً اثاث المنزل فوجد ان الخزانة مفتوحة بيد ان الصندوق الصغير الذي كان يضع جرج فيه اوراقه وملخص اكتشافاته كان مقفلاً فاخذ يبحث على المفتاح لكنه لم يجده لان جرج كان يحمل دائماً هذا المفتاح ولا يفارقه ابداً على ان عدم وجود المفتاح لم يكن ليهم سمعان وبدلاً من ان يقنط ظهرت على محياه سيما الاستهزاء والسخريه وهز براسه وكتفيه كانما هو كان يقول : لاباس من عدم وجوده اذ لايلزمني اكثر من خمس دقائق لكسر القفل واستلام ما يحويه

ثم تقدم نحو المائدة فوجد عليها كثيراً من الاوراق المتفرقة بعضها ملآى بالكتابة وبعضها لاتحوي سوى سطر او سطرين وهذه الاوراق كانت متضمنة خلاصة اكتشافات الطبيب جرج اللباوي المزمع ان يقدمها للجمعية العلمية . ثم تأمل تلك الاوراق

فوجد ان بعضها مبيضاً ومعداً للطبع ونظر الى اول ورقة فكان عنوانها كما يأتي:

« ميكروب السل وكيفية اهلاكو »

اما سمعان فلم يأخذ شيئاً من هذه الاوراق ولم يحدث ادنى تغيير في كيفية وضعها لان ذلك ما ينبه افكار سيده اليه وعندئذٍ يطرده من البيت لامحالة. فاطفأ المصباح وذهب الى احدى الغرف وظل ينتظر سيده بفروغ صبر

اما جرج فسار الى منزله عند منتصف الليل بعد اذ كان قد عاد اخاهُ فوجدهُ يتجه دائماً نحو الصحة والعافية اسوة لويزة فكان لم يزل الضعف مستحوذاً عليها وبالكاد كان لها المستطاعة ان تتكلم على انها لم تكن مضطرة لملازمة الفراش وهذا ما كان يلقي الطمأنينة في قلب الطبيب

على ان حسن حالة المريضين لم تكن لتذهب بكل ما كان يشعر به جرج من الامتعاض والحزن فهو كان قلق الحال مضطرب البال لما انه لم ينتهِ اليه شيءٌ من اخبار والده بل ظلت مستحجبة عليه مع انه كان يحسسها ويتجسسها وكان يبكي بكاء مرّاً ويودُّ لو انه يخسر كلما تملكه يدهُ دون الاطلاع على حقيقة الحال. بيد انه اجهد النفس على الصبر والتجلد وبقدر الامكان جمع تصوراته المشتتة وعاد لغرفة المكتبة واستانف العمل قاصداً ان يحيي الليل برمته رغبة منه في انجاز ما بقي من التاليف على ان العياء اخذ منه كل ماخذ واستولى عليه سلطان النوم فسار الى سريره ونام وكان قد انقضى القسم الاكبر من الليل وقبل ان ينام امر سمعان ان ينبهه من الرقاد في اليوم المقبل غلساً

اما سمعان فلم ينم بل بقي ينتظر خمس دقائق ثم فتح بهدوء ولطف باب غرفة سيده ومدَّ عنقه الى الامام واصغى برهة

فكان تنفس الشاب الطبيب هادياً متتابعاً فاطمأن بال سمعان وقفل عن الباب بعد اذ غلقه ثم ذهب الى غرفة الشغل فوجد بابها مقفلاً على انه تذكر بان سيدهُ كان قد وضع المفتاح في خزانة الطعام فاستحضره للحال ودخل الغرفة واشعل فيها قنديلاً صغيراً كان معه ونظر بسرعة الى المائدة فلم يجد شيئاً من جميع تلك الاوراق التي كان رآها من قبل متفرقة فهز برأسه وضحك بهزء وسخرية ثم قال: لقد اخفى صاحبنا كل اوراقو في صندوقو . . . ياله من رجل قليل التدبير فلو كان لديَّ اوراق يتوقف على وجودها وجودي وسعادة حياتي لما كنت ارتكب مثل هذه الحماقة بان اخبأها في هذه الصندوقة الصغيرة ثم انه اخرج من جيبه حلقة

حديدية على دائرها عدة مفاتيح وجعل يعالج بها واحداً فواحداً، ففتح تلك الصندوقة ولما انتهى الى المفتاح السادس فتح العالل فسر سمعان وشرع ينظر الى تلك الاوراق فوجد بينها رزمة كان جرج قد كتب على احد جانبيها بقلم رصاص احمر : «المسل»

فقال اللص بدهشة : هذا ما ابحث عليه وكانت هذه الرزمة حاوية سائر لوائح جرج ومفكراته حتى الاوراق المبيضة الحاوية خطابه المزمع ان يرفعه للجمعية العلمية الطبية فعظم سرور سمعان وجلس على كرسي قبالة ملشة سيده . ونسخ ذلك الخطاب بالحرف الواحد وبعد اذ اتم العمل وكان قد انقضى هدأة طويلة من الليل ، ارجع الاوراق الى ما كانت عليه من قبل ثم قفل الصندوق وذهب يلتمس الراحة فنهض ولديه نسخة من خطاب جرج على ما تقدم بيانه .

ولما تنفس الصبح وانجلى الليل هبَّ سمعان من الرقاد ثم ايقظ سيده . على ما كان امره بالامس اما جرج فاسرع في لبس ثيابه ثم دخل غرفة الكتابة وشرع في متابعة عمله دون ان يلحظ اقل تغير يشير الى خيانة خادمه وزيارته الليلية وبقي يشتغل حتى الظهيرة فتناول الغذاء . واذ رأى ان سمعان يخدمه بمظاهر الامانة والنشاط سرَّ منه وشكر له اخلاصه ووعدهُ بان يكافئه في مستقبل الحين

اما سمعان فاجابه :

ما يهمك ياسيدي باماتي وارفع ناظرك بصدق خدمتي وسوف تعلم يوم تقف على حقيقة امري اني انيت بخدمتك ما يضاهي ثقتك بي و يوافق تقديرك فيَّ

وبعد الظهيرة سار جرج يتفقد حال اندراوس ولولوَّة واذ عاد عصر النهار وجد سمعان بباب الدار ينتظر قدومه وحين رآه خفَّ للقائه بغاية الدقة . سمة الاجلال وقال له :

—ان امرأةً تنتظر سيدي في ردهة الاستقبال

—امرأة . . . تنتظرني . . . وهل انبأتك باسمها

كلّا يامولاي بل ابت عليَّ ذلك على اني اصف لك بعض مظاهرها لعلّك تعلم بمن هي فان ملابسها على الزي التركي وعلى وجهها نقاب كثيف لم ارَ ما وراءه سوى عينيها . . . وما اخالها عينين بل هما جوهرتان لامعتان . . . بل كوكبان يتقدان يرسلان الى القلوب شهباً نارية تكويها او حبائل تصطادها . . .

فلم يصبر جرج الى تتمة الوصف كانما هو ادرك من الموصوف وظل سائراً تواً نحو الردهة فدخلها ثم . . . ذراعيه نحو السماء وصاح . . . ر بها وجه الاندهال وعمل

الدمع من عينيه قائلاً ولم يزد

فريدة ! فريدة ! أرى فريدة عندي ... آه ... (لا نعلم ثمة هذه الكلمة فان الغصة اخذت من جرجي كل ماخذ وتهدج صوته منفصلاً بما كان يذرفه من دموع الابتهاج والتأثر فانقطع عن الكلام و بقيت عيناه شاخصة اليها ومنهما تترقرق قطرات من الدموع اشبه بالعقد النضيد بل هي فيضة الملان ونفثة المصدور)

ونبكم منا السن حين نلتقي   وتنطق فينا اعين وقلوبُ

وقد صدق ظن جرجي فان المرأة التي اشار اليها سمعان الخادم كانت بالواقع فريدة اتت تجيب جرجي مشافهةً على مآل كتابه لها المرسل اليها بالامس واذ دخل الردهة انتصبت واقفةً و بسطت يمينها وظلت تنتظر دنوه منها والبرقع منسدل على وجهها غير ظاهر منه سوى عينيها تذرفان الرنين وتشفّان عن الحنين

ثم ان جرجي تقدم اليها والقى يمينه على يمينها مصالحةً و بقيا دقائق متوالية ينظران الى بعضهما ويجهشان بالبكاء ثم استويا على المقعد وسقط البرقع عن وجه الفتاة فاسفر سفوره عن وجهٍ هو البدر بل اجمل من البدر لانه يضاهيه حياةً ومعنى ولم يكن احد من البشر تمتع بالنظر اليه سوى مراد بك شقيقها وجرجي اللبلاوي فان فريدة كانت دائماً متحجبة تصوناً ووجهها كان ابداً مستتراً بقناعٍ عملاً بعادة بلادها حتى ان جرجي ذاته لم يكن يتمتع بالنظر الى محياها الا متى كان يدخل غرفتها بغتةً

اما فريدة فبعد ان زالت غصتها ابتسمت بوجه حبيبها ونظرت اليه نظرةً تشف عن الانعطاف والحنان كانما هي تقول له بالحاظها : « كيف انت وكيف كانت حياتك من يوم شط المزار وبعدت بيننا الدار ؟ »

اما هو فاجابها

ما اسعدني الان يافريدة اذ ظفرت بلقياك ... وما اعظم حبي لك ! ... وما اشد حنيني اليك !

— ثق ياجرجي اني احنى الناس ضلوعاً عليك واني كدت مدة غربتك اذوب وجداً وافنى شوقاً واحن اليك حنيناً لا تبرده الدموع وانا وحنك عاجزة عن تبيان مسرتي بلقياك وابتهاجي بالاجتماع بك ... على ان رسالتك ياصاح قد اوجبت لي الكدر والامتعاض

— ولِمَ ؟ ... افدتك نفسي

— لانك بها تلمع الى حادثة جرت بينك و بين شقيقي منذ سنة وكنت احسب ان الزمان ازالها من ذهنك ومحا اثرها من مخيلتك ... اما اخي فيعلم جليًا ما بلغ الله

بك من المنزلة التي ليس ورأها مطلع لناظر وهو موقن بصدقك واستقامتك وحسن مبادئك وعزة نفسك وسمو مداركك وسعة اطلاعك وهو لايشاء مطلقاً ان يقع بينكما واقع بشان ما جرى بينكما من العهود منذ عام او زهاء عام ..

وعندها تماسكت عن الكلام برهة تتفكر بذاتها ثم قالت له بالهجة لانستطيع ان فعبر عنها لكننا نقول انها كانت تشف عن التعجب والاشفاق والحب والحزن والغضب والرضى والجد والمزاح وبصوت يشير الى الضحك والبكاء معاً

— احقيق ما بلغني من انك لم تزل مقيماً على العهد الذي اخذته على نفسك منذ سنة في الخامس والعشرين من شهر ايار؟

فعندها بدت على محيا جرج ملامح الرزانة والتأني ثم اجابها بصوت لا يخدعه المتاثر

— نعم اني عازم على القيام بعهدي فان ذلك من مقتضيات شرفي

— وما كنت تفعل لو ان الظروف صدتك عن اتمام بغيتك والزمان خانك فاخفقت في حاجتك ومطلبك مما انت عليه من الذكاء وسعة الاطلاع

— لكنت قتلت نفسي لا محالة

— او بدون ان تراني وتزودني نظرة الوداع !

— نعم بدون ان اراكِ يافريده !

— اتصدق فيما تقول

— اقسم لكِ بالمغلظة والموكدة ... او يخالجك شك فيما اقول

— بل اصدق كلامك كل التصديق لاني موقنة بانك لا تحبني ! ... حقاً انت تكرهني وتتمنى لي الضر والشر والقهر والذل والحزن والامتعاض بانت تود ان اذوق مرير الحياة واموت من جراء الالم .... نعم نعم انت تؤثر المجد والشرف على محبتي ...

فاجابها جرج بلهجة تشف عن الكآبة والحدة :

— تقولين اني لا احبك يافريدة ! مع ان حبكِ ايتها العزيزة هو الذي شددني وقواني لاحتمال مصاعب الدهر وبلايا الحياة مدة العام المنقضي . — كيف تتصورين اني لا احبكِ مع اني ان كنت رغبت في الموت فما ذلك الا ضناً على حرمتك من ان تنتهك وصوناً لشرفكِ من ان يمس .. آثرت كرامتكِ على حياتي وتسألين بعد هذا عما اذا كنت اودك ؟ نعم اودك بكل عواطف الوداد . نعم

احبك ما شاء الحب ... ولما كانت مشاعري قاصرة عن ادراك حبك فقد جمعت به يا فريدة جنوناً لا دواء له الا متى اجتمعت بك وامتزجت عواطفي بعواطفك فنعدل. انه منذ خلق الله الانسان الى هذا العهد لم تحب امرأة كما احببتك
— اذاً كيف هجرتني حولاً كاملاً دون ان تحرر لي كلمة تطلعني على احوالك ؟ ...
فتبسم جرج تبسماً يشف عن الكآبة والحزن ثم قال :
— كان ذلك لاني رمت ان تكوني حرة .... غير مقيدة الميثاق ..
لاني لم اشاء ان اتسلط على ارادتك لاسيما مدة غيابي ... لانني اثرت عذابي على نفسك بعيد رجل ربما لا تعتقدين انك تقضين العمر معه سعيدة
اما فريدة فلم تجب على هذا الكلام بل اكتفت بهز رأسها اشارةً الى عدم اليقين . فقال لها جرج :
— او تجردين فيما اقول ؟
— اجل
وعند ذلك نهض وسار مسرعاً نحو خزانة ففتحها واخذ منها رزمة تحارير وقدمها للفتاة قائلاً لها : ايتها الحبيبة المشككة خذي واقرأي ! ...
اما هي فلبثت صامتة ولم تتدبر مراده فزادها ايضاحاً بان قال
— كنت اكتب لك كل يوم مدة سنة تماماً ... كل مساء قبل الرقاد ..
وهذه تحاريري كلها باسمك .... وعوضاً عن ان ابعث بها اليك حفظتها لدني قصد ان اعطيكها آن ايابي اذا ما وجدتك على ما عهدتك يوم جلائي عن الوطن العزيز. اما هي فتناولت التحارير وامرت النظر على بعضها ثم قبلتها وضمتها الى صدرها وكان الدمع ينهمل من مآقيها تأثراً وغروراً ولما رآها جرج على تلك الحال قال لها :
ان كتابة هذه الرسائل كانت الذريعة الوحيدة لتعزيتي في العام المنقضي ومهاد الخفض الوحيد الذي كنت ارتاح اليه آن تفرق شملنا اجل اني بعد ان كنت اقاسي في النهار اتعاباً ومشقات وكداً ولغوباً لم يعلم بها غير الله كنت والليل يغبس ويسبل ستره امثل اقنومك اذاء بصيرتي واناجيك بكتابة هذه الرسائل وعندها كنت اشعر بزوال العناء وخفض العيش اذ اني كنت اخالك حذوتي ابث لديك افكاري واقاسمك عواطفي . اسألك وتجيبيني كانما انا اسمع لهجتك المحبوبة ... لى

كنت مراراً والدماغ مشتبه بمفاعيل العناء والهواجس — اطلبك قائمة بالقرب مني الحاظك واحدثك وعندها كنت اشعر فعلا بتجدد قوتي ونماء اماني وذهاب اتعابي

هذا وان الكلمة الاخيرة التي خاطبتني بها يوم الوداع كانت تقوي عزمي وتزيد اقدامي ولذلك قد ذللتُ المصاعب ودست المتاعب ولم يداخلني القنوط ولم يعظم عليّ الامر الذي شرعت فيه ولم اعباء بالوهن والخوف اللذين يستوليان على قلب المرء مهما كان ثابت الجاش وذلك عندما يقدم على امر خطير . اجل انه عندما كانت تجمع عليّ المصاعب وتقوم باذاءي الموانع والمتاعب كنت اذكر وصيتك الاخيرة وكلماتك الوداعية الا وهي « افتكر بي حين يقربك القنوط والوهن . . . اذكر انك تكد وتتعب وتشقى من اجلي . . . لا تنسَ اني احبك واني مقيمة على العهد . . . سر على الطائر الميمون وانا انتظر قدومك . . . »

فاغرورقت عينا فريدة بالدموع على اثر هذا الكلام ثم قالت له

— حقًا ياجرج انني كنت اقول لك ذلك كلما مرّ ذكرك بخاطري . اجل كنت اخاطبك واناجيك على حين لم اعلم اين كان مقرك لخلوي من اخبارك على اني كنت اتبعك بالفكر وارافقك بالقلب وكنت انظر اليك بعين المخيلة — جرج ايها الحبيب انني كنت اراك مشتغلاً بكدٍ منكبًا على الدرس والمطالعة بكل نشاط حتى تبلغ يومًا ما مبلغ العلماء الافاضل لتكون يومًا قدوة الهيئة البشرية بآدابك وفضائلك وسعة معارفك . وكنت اسر وازدهي وافتخر واتباهى علمًا مني انك تعاني ماتعانيه حبًا بي وسعيًا وراء المجد والشرف ورغبة في نفع البشرية . ولكن اصدقني ياجرج اما ان الحب اسمى من المجد والشرف او ما كنت وانت ساعٍ وراء الشهرة والعلى تشعر بعاطفة تجدد بك القوى وتزيد في همتك ونشاطك . او ما كان يمرّ بخاطرك امرٌ يخفق منه قلبك ويستطير لبك كانما هو يستولي على كل جوارحك ؟

— اجل يافريدة ان حبك قد تملك فؤادي وتمكن فيه واني اوثرهُ على المجد الاثيل والشرف الباذخ وحبذا العيش اذا ما انقضى معكِ اجل ان النفوس الابية تسعى ابد الدهر وراء ما هو اطيب في النشر واحسن في الذكر على ان المجد لا يبيد نكبات الدهر ولا يصرف بوائق الاحزان اما الحب فيجلي مرارة العيش ويلطف ثقل النوازل والشدائد . اه يافريدتي العزيزة انني عندما انجزت اعمالي ووضح لديّ اني ادركت الوطر من النجاح بالاكتشاف الذي سعيت وراءه متقلبًا على شوك القتاد

شعرت بفوز داخلي وحدثت نفسي اليف الخفض وحليف الراحة بمعنى انني كنت ارى ذاتي في ذروة العز والمجد وكنت اكرر اسمك تيمنًا وتفاولاً وبينا كنت فارغ البال خالي الذرع اركن الى الدعة واخلد الى الراحة احسب النفس في بحبوحة الرغد والسرور وصلت الوطن العزيز فوجدت ما ذهب باوهامي واراني ان السعادة في هذا الوجود اما هي اضغاث احلام . نزلت بي النوازل يافريدتي وانقضت على عائلتي صواعق النوائب على حين كنت اظن الدهر عبدي والسعد وقف اشارتي واحب ان تعلمي باني اهب حنوًا كلما تملكه يدي واود ان افقد ما بذلت في سبيل تعلمه عرق الجبين ودم القلب واتمنى ان افقد احوالي ذاتها بغية ان اخلّص اخي واجد ابي ! . . .

لا براح ان الملمات التي نزلت بي من شأنها ان تضعف امالي وتجعلني ان انصرف عن اماني باليأس والقنوط على ان ذكراك يشددني في وهني وحبك يكسبني قوة وشجاعة ان تحدث عليّ الحوادث وتنزل بي النوازل والان اذ اراني مكتنفًا بالمحن والمصائب ادركت نهاية الادراك مقدار محبتي لكِ . اجل انني اذ شاهدت اخي مريضًا مدنفًا وانبئيت بفقد والدي غريبًا كرهت الوجود ووددت ان اقتل نفسي واتملص من اثقال الحياة على ان حبك لطف احزاني وابت الانتحار على امل ان اقضي معكِ ما بقي من العمر اه يافريدة لو تدبرتِ المكاره التي تحف بي ونظرت الى المتاعب التي احمل اثقالها لكنتِ تصورين كرهي للحياة وتحملني على الانتحار . . . على انك اذا نظرتِ الى عمق فوادي وفحصت جوارحي لحكمتِ ان عيشي معكِ يصرف همومي ويزيل غمومي ويحبب اليّ الحياة على مرارتها ونوائبها . . اجل يافريدة انتِ تعزيتي . . . لكِ قوتي . . . . ولكِ (غذاء حياتي) وما جمالك بالداعي الوحيد الى شغفي بكِ . احبكِ يافريدة واحب فضائلكِ واثاركِ الحميدة وعواطفك الكريمة وذكاءك النادر المثيل فاحب ثباتكِ على المبادىء الصحيحة بانعطافك لذوي الفاقة والعوز بمدك يد المساعدة للمحتاج . بميلك لكل ما هو مفيد وجميل بصرفك النظر عن مساوىء الغير باشارتكِ اللطيفة للاصلاح بلطافكِ برقتكِ . . . قد علمتني كيف يجب ان يكون الانسان فانا احبك يافريدة واحمد الله انه قد متع الوجود بك . . .

اما فريدة فاحنت رأسها احتشامًا عندما كان يردد ذكر صفاتها الكريمة ثم سألته متاثرة

— وكيف حال ابيكَ واخيكَ

— ان اخي قد ابل من الداء ... اما والدي ...

ثم امسك عن الكلام وبدت على محياه سياء الحزن والكآبة اذ فكر بفقد والده المفجع اما هي فاذ نظرت الى عينيهِ الدامعتين ادركت ما كان يمرُّ بخاطره ويختلج في صدره فودت ان تصرفه عما يسبب له الامتعاض والانقباض ورأت ان تفكهه باحاديث الحب فقالت له:

— ثق ايها العزيز ان حبي لك لا ينقص عن حبك لي فان ذكرك كان يمرُّ دائمًا بخاطري وكثيرًا ما كنت اتكلم عنك ...

— او كنتِ تتكلمين عني وحدك ... مثلي ... على انفراد ؟ ...

— بل كان لي من اكاشفهُ بامري واطلعه على مكنونات صدري

— ومَن الانسان

— شقيقتي فاطمة ... ان فاطمة كنفسي فهي كانت تقاسمني حزني وكآبتي تتألم لآلمي وتسرُّ لسروري ... كانما نحن ذات واحدة وزد عليه بمعنى ان الواحدة منا تتنباه بما سيحدث للاخرى بعد حين ومن قبيل ذلك انني انبأت فاطمة منذ امدٍ انهُ سيعتريها مرض عضال وكان كما قلت . على انها بالامس قبل ان تصلني رسالتك بدقائق قليلة قد قالت لي : حذارِ حذارِ يا فريدة لانكِ سوف تتألمين من جراء داء يحل بكِ ...

فبسم جرج لهذا الكلام وعزاهُ للاوهام القديمة التي كانت متسلطة على عقول السواد الاعظم من سكان هذه البلاد لاسيما ربات الجنس اللطيف لان فريدة كانت تندفق صحةً وحياة وقوة وكانت ملامحها تشير الى ان حياتها تكون مديدةً رغيدة فاخذ يهزاه من خوفها ثم قال لها :

ما كنت لاظنك مع ما انت عليهِ من الذكاء انك تؤمنين بالخرافة

— فاجابته انك اخطأت ايها الحبيب اذ لم تصدق ما انبأتني شقيقتي به وما اظنك تجهل ما ذهب اليه بعض العلماء من قبيل قرأة الافكار وتنبه العواطف الى امور قبل حدوثها واعلم انَّ افكارنا بهذا الشان كانت تصيب المرمي ابدًا فثق اذًا انني ساكون مريضةً على اني لااخشى العذاب الاليم لانك حاضر وستذهب اليَّ وتقوم حولي ساهرًا على حالتي معتنيًا بامر صحتي دافعًا عني كل ما تسيء عاقبته ومثلك من يدفع الاذى ويداوي العلل ويبريء من الاسقام وانا لا اشفق من ان يستأثر الله بي فان فاطمة لم تنبئني بحلول الاجل في اثر الداء

ثم عقب هذا الحديث سكوت وبقي الحبيبان دقائق متوالية ينظر كل منهما الى وجه الآخر وترسل عيونهما شهبًا تشف عما يستكنه الفؤاد . ثم قالت فريدة :

— ما اعظم السرور المعد لنا يا جرج ... انا بعد اذ يجمعنا عقد القران سوف ناخذ منزلاً في ناحية منفردة من المدينة ونبعد بهك الذريعة عما يسبب القلق والانزعاج ونرضى بما يقسم لنا الزمان من ان يعيش الواحد منا في لوذ الآخر ويتفيأه ظلة وتبقى انت مزاولاً اعمالك واشغالك

— ما حيلة الطبيب بالحياة الرغودة يافريدة وما مواردها بالموارد الصافية كما تقدرين

— ساتعودها يا جرج ... وساكون سعيدة اذا ما رايتك حليف السرور خميع الخمص خالي الذرع . متمتعًا بما تحب من السعادة والرغد

— سنسعد بسعادة الغير ياعزيزتي فريدة من حيث ان حالتنا تمكننا من بسط كف المساعدة للفقير سنسرُّ بدفع المكاره عن الحزانى الاولى نأسوهم وتخفيف الالم عن المرضى الاولى نداويهم واعلمي ان الدهر وفقني الى التمكن من الاحسان الى الفقراء المعوزين لاني لمست مالاً وافرًا بحق الارث لم اكن مؤملاً ان اظفر به وهك الثروة تقابل ثروتك على التقريب

فابدت فريدة اشارة عدم المبالاة ثم قالت :

— نحن والحمد لله في سعة ويسار تامين دون حصولك على هذه الثروة لا بل قد اكثرنا من فضل الله واود لو ان قسمًا من ثروتنا يبذل للمساكين وذوي الفاقة ويستعمل في سبيل انشاء الاندية والجامع والصروح التي من شانها نشر المبادي الصحيحة وتعميم ما يعود على الطائفة الانسانية بالخير والفلاح لاني اعتقد بان

قيمة الانسان ما يحسنه اكثر الانسان منه او اقل

والثروة الحقيقية تقوم بعمل المبرات وليس بجمع المال في الخزائن دون فائدة

وكلُّ فتى وإن اثرى وامشى ستخليه عن الدنيا المنونُ

وبعد اذ انقضت على الحبيبين ساعات تجاذبا باثنائها اطراف الحديث تاهبت فريدة للانصراف فانتصبت واقفة وقالت :

الا تزورنا في القصر ياجرج ؟ ان اخي قد علم بايابك وهو بانتظارك

فابتسم جرج واجابها بلهجة تشف عن عزة النفس والابتهاج :

رجاءي به ان ينتظر قدومي اليه في الخامس والعشرين من هذا الشهر .. وانت تذكرين اني لا اقابله قبل هذه الموعد قياماً بعهدي ..

— يالك من منقطع في رأيك ... لاباس ساعود لزيارتك مرة ثانية ثم خرجت من الغرفة فشيعها جرج الى باب المنزل . اما سمعان الخادم فكان اثناء الحديث كله شاخصاً وراء باب الغرفة يستمع اليهما خفيةً ولدى خروج فريدة خف مسرعاً نحو احدى نوافذ الدار وتطلع منها فظن جرج ان خادمه قصد بذلك الاَّ ينظر لوجه فريدة احتشاماً فسرَّ وهنأ نفسه بهذا الخادم (العفيف) اما فريدة فوقفت متفرسة ملياً بوجه سمعان ثم قالت لجرج:

— انني متطيرة من خادمك متشائمة به وكلما تفرست في عينيه وملامحه اشعر بانقباض في صدري كانما ارى فيها شيئاً يشير الى انه نحس من النحوس واشأم من البسوس

— اراكِ كالسواد الاعظم من نساء البلاد تميلين الى تصديق الخرافات

— امن زمن مديد هو في خدمتك ... لا بد انك اختبرته في كثير من الحوادث والظروف فرجحت لديك امانته

— بل لم اعرفه الاَّ منذ يومين وهي مدة لا تكفي لاختباره على اني اسلم معك ان سيماء الخيانة والغدر تلوح على وجهه بصورةٍ واضحة بينة بيد اني راضٍ عن ذكائه ونشاطهِ وحسن قيامه بما اعهد به اليه من الخدم ... وبما ان لا مندوحة لي عن خادم يقوم بقضاء بعض الحاجات لم يمكني الزمان من استقصاء اموره والاطلاع على ما خفي من اخلاقه

— اراهُ انسان السوء والمكاره وقائد النكد والشؤم . فحذارِ منه

قالت هذا ثم ارخت اللثام التركي على وجهها فلم يبن منه سوى عينيها الساحرتين ثم احنت رأسها امام جرج اشارة للوداع ودخلت عربة مخجبة كانت بانتظارها على مقربة من المنزل فنقلتها شاخصة نحو القصر وغادرت جرج كلفاً شغفاً كانما قد تجلت امامه رؤيا ملايكية ثم غابت عن انظاره . فعاد الى غرفة الكتابة وجلس على كرسيه امام الطاولة وجعل راسهُ بين كفيه وغاص في بحر التامل والتصور على اثر تلك المقابلة . ثم انهُ اجهد النفس بان يصرف فكرهُ عن ذكر تلك المقابلة التي اخذت بمجامع لبه فاخذ لوائحه ومفكراته وبعد اذ امرَّ عليها النظر شرع في تتمة ما كان بدأ به ولم يمضِ عليه خمس دقائق حتى عاد لايفكر الاَّ بشغله ..

ولما وصلت فريدة قصر اخيها مراد بك دخلت غرفتها مسرعةً وبيدها تلك الرسائل التي كان كتبها لها جرج مدة غيابهِ عن الوطن فاستحضرت لديها للحال احدى خادماتها وامرتها أن تستدعي لها شقيقتها فاطمة التي جاءتها بعد مضي القليل من الزمن وكانت الشقيقتان متشابهتين هيئة وجمالاً ولطفاً وذكاء وبهجة وذوقاً ورقةً وظرفاً ولما تقابلتا تبادلتا كلمات التحية المألوفة ثم جلستا متعانقتين على مقعد تركي حتى ان شعرهما الطويل اشتبك ببعضهِ وبعد دقائق قليلة شرعتا بتلاوة تلك الرسائل المحبوبة المؤثرة

وكان جرج قد كتبها بنهاية البلاغة وبعبارة صريحة واضحة تالفها الاسماع وهي تعرب عما بفؤاده من الحب الخالص والعواطف الكريمة . وقد مرت بهما ساعات طويلة تتاملان تلك المعاني الرقيقة والمباني الدقيقة بمنتهى الجذل ومزيد الارتياح

اما فريدة فكانت تترقرق الدموع من ماقيها وتؤثر في خدها لشدة تأثيرها وما كانت تفيض دموعها حزناً وكآبة بل ان صورة السعادة الكاملة كانت قائمةً باذائها فطفح فؤادها سروراً ولذلك كانت تبكي

اما فاطمة فكانت غائصة في بحور التامل والتصور اثر تلاوة تلك الرسائل وكانت الصفرة والحمرة تتناوبان على محياها . وكانت ابصارها شاخصة الى الرسائل وكانت من وقتٍ الى اخر تتنهد ويندفع من عينيها الرنين . والرنين استراحة المنكوب ونفثة المصدور . اجل ان فاطمة كانت تغبط شقيقتها وتتمنى حالاً سعيدة كحالها وحظاً كحظها

ولم يكن الحسد باعثاً لاحزانها وعلةً لكآبتها على انها كانت متبلبلة البال قلقة الحال مضطربة اللب ثائرة القلب تتساءل عما هو « الحب »

وكانت تخاطب ذاتها وتناجي نفسها قائلةً :

« انا وشقيقتي مثلان صفةً وصورة كانما نحن من اديمٍ واحد حتى اننا لو ارتدينا باثوابٍ متشابهة الشكل يصعب على شقيقنا مراد ان يميز الواحدة عن الاخرى وان يدرك فوراً مَن منا فريدة واينا فاطمة وقد جاء هذا الاجنبي جرج اللياوي فعلقها وعلقته وكان ذلك قسمتها ونصيبها ... فلِمَ لم يكن من نصيبي ؟ بل لِمَ لم اظفر بحبه واتملك فؤادهُ ... او ما هو الحب ياترى ... »

لو ان العواطف البشرية تتخذ شكلاً هيولياً ولوكان جسم فاطمة شفافاً ولو ارسلنا النظر الى ذلك الفؤاد لرأيناه خالياً من عواطف الحسد نحو شقيقتها على انها كانت كاسفة البال لما ان دم الصبا كان يتدفق من قلبها وعواطف الحب تتخلج في

صدرها دون ان يكون لها مصرفًا تنفذ منهُ او نقطةً تتجه اليها وبعبارة اخرى ان نفسها كانت ملأًى تتدفق منها ميازيب الحب وليس لديها من محبٌ

❊ ٥ ❊

وفي تلك الليلة نفسها دخل جرج غرفة الكتابة وانكبَّ على تتمة تاليفهِ في الاختراع الجديد وكان قد عقد النية على ان يمثلهُ بالطبع صباح اليوم التالي فيبرزهُ مجلةً صغيرة الحجم كثيرة الفائدة تتضمن الادلة العلمية والحوادث الاختبارية المؤيدة مذهبه الجديد في فن الطب وكان من قصدهِ ان يذيع مقالتهُ المومأ اليها في الجرائد وينقلها الى اللغات الاجنبية ويعرضها على المجمع العلمي الطبي والغرض من كل ذلك ان ينال حسن الصيت والشهرة الطائرة . وكان من نيتهِ ان يقدم النسخة الاولى الى مراد بك تحفةً تشير الى اهليتهِ وفضلهِ وسعة معارفه وكانت هذه الافكار تمرُّ بخاطرهِ وتسر فؤادهُ وترفع ناظرهُ

وعند انقضاء وقت السهر امسك عن الكتابة التماس الراحة وكان قد انتهى من كتابة المقالة ثم انه انطلق لعيادة لوءلوءة واخيهِ اندراوس فوجد انها قد ابلَّت من مرضها وتماثلا تماثلاً تامًا فعاد من لدنهما نحو منتصف الليل وكان في عناءٍ معنٍ ونصبٍ منصب في اثر ما كان تحمله من الجد والكد ابان تاليف مقالته واذ دخل البيت سالهُ الخادم قائلاً :

— في ايّ الاوقات يود سيدي ان انبههُ في الغد ?

— ساعة البكور قبل طلوع الشمس

ولم يمضِ على هذه المكالمة نصف ساعة حتى كان جرج راقدًا في سريره مستغرقًا في الكرى

ولما تحقق سمعان ان الهجوع استولى على سيدهِ دخل غرفة الكتابة وتناول من الخزانة رزمة الاوراق فوجد بينها المقالة الثمينة التي بذل الطبيب في سبيل تاليفها كل ما عزَّ لديه والتي

من اجلها الدكتور اشرط نفسه وتجشَّم الاهوال والاخطارا

ولم يمضِ زهاء الساعة من الحين حتى نسخ سمعان تلك المقالة برمتها وجعل النسخة في محفظة صغيرة كانت له . ثم خرج من المنزل بهدوء تام قصد ان لا يحسَّ احد بخط وآئهِ ولما صار في الشارع نظر يمنةً ويسرةً ثم استوى على حجر ينظر فانقضت

بضع دقائق ولم يوافو احد فعندئذٍ صفر صفيرًا متتابعًا وكانت هذه الحركة بين الروسه وسمعان دلالة الاجتماع وعبارة عن الالتئام وهي كما يعلم القارئ الكريم من اصطلاح اللصوص وقطاع الطرق

وللحال بادر نحو سمعان رجل كان واقفًا منتظرًا في احد نواشط الطريق ولما صار على مقربة من قنديل الغاز القائم في الشارع العمومي انقشع الظلام عن وجه ذلك الشرير وعرف الرجل فكان الروسه شرّ الجبلة وسفالة الخليقة فقال لسمعان :

— هل انجزت ما أُمرت بانجازهِ ؟

— هاك يامولاي ...

ثم اعطاهُ صورة المقالة التي كان نسخها ُفقلّب الروسه تلك الاوراق وامرّ عليها النظر ثم قال لزميلهِ في الشر ورصيفهِ في السوء والنفاق

— لله درّك فقد احسنت ما عهد به اليك والان عليك ان تكمل ما بدأتَ به

— مثلك من يأمر ومثلي من ينصاع لاوامرك ويتمها بنهاية ما تصل اليه الدقة .

وعلى هذا تفارقا

ثم ان سمعان رجع الى منزل جرج اللياوي واول ما بدأ بعملهِ انه جعل فراش سريرهِ مجعدًا قصد ان يوهم الناظر اليه انهُ كان نائمًا ثم خلع ثيابه ولم يبق سوى القميص و (اللباس) ودخل غرفة الكتابة وهناك اشعل قنديل زيت البترول ثم قال بنفسهِ وهو يبسم تبسمًا يشفّ عن المكر والخداع والسرور بالشر والاذى : ان للبترول سعيرًا مهولاً ثم انه سكب من القنديل شيئًا من زيت البترول على مقالة جرج ولوث بهِ سائر اوراقه واوقد النار ..... وبقدر لمح البصر لاشى ما كان جرج قد عانى في سبيل جمعه ووضعه الايام الطوال ولم يمضِ ردح من الحين حتى اندلع لسان اللهيب في سائر الغرفة واتصل بالمكتبة وبجوف النوافذ وسائر الاثاث ثم تصاعد الدخان فانقلب القنديل وانسكب ما كان باقيًا فيه من زيت البترول فازداد الضرام وكاد ان يلتهم الغرفة وما فيها التهامًا

اما سمعان فكاد ان يختنق من تفاقم الدخان فعمد الى احدى النوافذ وفتحها ثم بادر لاطفاء اللهيب قائلاً لا ارى احراق البيت برمتهِ ضربة لازب ومن الحكمة الان ان ايقظ سيدي جرج لانبئهُ اني صحوت من الرقاد فوجدت لسان اللهيب مندلعًا في غرفة الكتابة ملتهمًا ما فيها دون ان ادرك علة الاحتراق

ولا جل اتمام الحيلة احرق اطاريف قميصهِ ولطخ يديهِ ورجليهِ بسواد البخارش فصد الايهام ان جسمه كاد يحترق ثم خرج من محل لهيب اضرمتهُ يد مكره ودخل غرفة جرج وهو يصيح باعلى صوته : النار ! النار .. احترقت الغرفة ... خرب البيت .... النار .... النار ... ياللويل وياللمصيبة النا ـــ ر ... ! ...

فهبَّ جرج من نومهِ مذعورًا و بقدر حسوة الطائر وخطفة البرق صار خارج غرفتهِ سائلاً ابن النار . ابن الحريق ؟

ـــ النار في غرفة الكتابة . انظر الى يديَّ ورجليَّ فانني اوشكتُ ان احترق اذ قد حاولت اطفاءها وكاد الدخان يخنقني لو لم ابادر لفتح النافذة ... ولو لا ذلك لكنت وجدتني صريعًا مائتًا ! ...

وللحال انصرفت افكار جرج لامر اوراقهِ المهمة التي كان تركها في خزانة المكتبة فقصد الدخول لكي ينتشلها على انه اضطر ان يتوقف عن المسير عند أُسكُفَّة (عتبة) الباب نظرًا لتعاظم الدخان وتكاثفه على ان الهواء الداخل من النافذة لطفهُ بعد هدأة من الليل فدخل جرج المسكين الغرفة فوجد مائدة الكتابة ساقطة على الارض لان النار كان قد لعبت بدعائمها ثم نظر الى اوراقهِ فوجدان النار احرقتها وغادرتها رمادًا وكانت السجوف قد احترقت وبعض الاثاث ايضًا فتمكن سمعان من اطفائها

اما جرج فكان يتفرس بذلك الرماد ويطيل الفكرة باوراقه الثمينة العزيزة التي اكلتها النار ثم اخذ ينظر يمنة ويسرة على غير هدى كانما قد اصابتهُ عتلة من السحر ثم ظهرت على وجههِ صفرة الاضطراب والغيظ والاسف وشرع في ان ينقب ويبحث بين تلك الاوراق المحترقة كانما هو يامل ان يجد مقالتهُ سالمةً من مس اللهيب ولما قنط من الفوز وانجلت لهُ الحقيقة الموجبة الاسف والحزن انتصب واقفًا وسأل الخادم بصوتٍ متهدج قائلاً :

ـــ كيف حدث هذا الاحتراق ؟

ـــ لا اعلم يامولاي ... بل انت أعلم مني ... لانني اطفأت القنديلين فيما اعلم وخفضت الذبالة (الفتيلة) ثم قصدت غرفتي لانام ... وما يدور في خلدي ان ذبالة القنديل لم تنطفئ وان شعلها اتصلت بالبترول فامتد اللهيب من القنديل الى الطاولة ومنها الى الاوراق واثاث الغرفة . واحمد الله ان الحريق لم يتلف الاَّ بعض السجوف ومحفظة الاوراق وما اظن انها تحوي اوراقًا مهمة وان كان فيها

سندات فعليك برفع الامر للحكومة السنية صيانةً لحقوقك

فكان كلامُ سمعان بلهجة التهكم والازدراء وكان كانهُ الصواعق تنحدر على رأس جرج الذي ذكر حينئذٍ كلام فريدة وما نبهتهُ إليه بشان تشاوءمها بالخادم وتطيرها منهُ فثار غضبه ونبض نابضهُ ثم دنى من سمعان وقبض على عنقه وقال لهُ بصوتٍ متهدج :

— انتَ ... انتَ ايها الشرير .. انتَ تصدت ايقاع الاذى بي ... انتَ كنت السبب ... اخبرني ... اطلعني على جلية الامر ! ...

اما سمعان فلم ينطق ببنت شفة بل تهضمَّ لجرج وتبدّى بهيئة الانكسار وانت تعلم انه اذلُّ من نعلٍ واصبر على الهوان من وتد واهون من الهانة . فكان ذلك باعثاً لاطفاء نارغضب الطبيب ونزع سخيمة قلبه بمعنى انه ندم لما انه سلم قياده لسلطان الحدة فانثنى عن سمعان الذي قال له :

— ارى مولاي يسيء اليَّ فاي اثم اقترفت واي ذنب ارتكبت . — بزعم سيدي اني تعمدت ان احرق المائدة وما عليها فاي فائدة لي من ذلك . ان كان من غرضي السرقة والاختلاس فاندلاع لسان اللهيب لاينيلني امنيتي ولا يوصلني الى هذه النتيجة ... فلم يجبهُ جرج بشيء بل بدت على ملامحه سيماء الندامة والخجل لان ظاهر كلامه يشبه الحقيقة فاتسع مجال المقال لسمعان وخاطب سيده بقوله :

— يسمح لي سيدي ان ابرهن له ان الواقع لم يقع عن تهاون مني ... لانني اطفأت المصباح قبل رقادي ويشهد الحق انني لا ادري كيف ان البترول قد التهب ... ولما رأيت النار مضطرمةً بادرت لاطفائها بمنتهى السرعة حتى انني كدت احترق وأثار ذلك ظاهرة بينة على يديَّ ورجليَّ وقميصي فلينظر مولاي اليها .

ثم انه قدم يديه نحو جرج واراهُ اطاريف ثوبه والقاريء الكريم يعلم ان النار لم تمسَّ سمعان ولم يأْذَ بها على ان تلك كانت منه مصانعةً شنيعة وحيلة ذميمة ...

اما جرج فلم ينتبه لكلمات الخادم وحركاته بل كان يشغله امرهُ مفكرًا بتدبير يعوضه ما فقد

ومعلوم ان جرج كان ذا همةٍ عالية واقدام نادر المثيل وله اضطلاع ونفاذ تقف عندها الافهام فلم ينصرف عن حاجته بالقنوط الاَّ برهة وجيزة من الزمن ثم انه انتصب واقفًا وبدت على محياه سيماء الشجاعة والاقدام وملامح الجلادة والقوة

والصبر على الامور الخطيرة فدخل غرفته وغسل رأسه ووجهه بماء بارد ولبس ثيابه وبعد ذلك دخل غرفة الكتابة وجلس على كرسيه تجاه المائدة واخذ يبصر بما يجب عليه فعله

ثم انه جمع كل قواهُ العاقلة وتصوراته الماضية وشرع يحرر المقالة ثانياً بهمة متجددة ونشاط لا يعرف الملل وذلك دون الالتجاء الى اللوائح والمفكرات القديمة لان جميعها اضحت طعاماً للنار على ما مرّ بك وكان جرجي قد عقد النية على ان يبذل نفسه ويجود بحياته بغية ادراك الوطر واسترجاع المجد والشرف باعادة تأليف تلك المقالة وفي كنز اكتشافه وثمرة اجتهاده المتوقف عليها فوزه وحظه من الدنيا

ولما رآهُ سمعان على تلك الحال ادرك مقصدهُ واراد ان يخادعه بدهائه وبحاذقة بحيله فدخل غرفة الكتابة وقال له :

— هل لمولاي حاجة فاقضيها له ؟

فاجابه جرجي بصوت يشف عن التلطف والرقة

— لا بل ارغب اليك في ان ترصد الباب فانا اليوم في عزلة عن مقابلة الزائرين ومحاضرتهم وان وفد احد يسأل عني عليك ان تجيب اني خارج البيت

— وكذا لو اتت السيدة الفتاة التي اقبلت عليك امس . . .

فامسك جرجي عن الجواب قليلاً وبعد ان فكر برهة قال لسمعان بلهجة تشير الى انه تغلب على عواطف النفس وساد على هواها

— اجل ان اقبلت السيدة فقل لها اني لست هنا . . . ولكن عليك ان تستقبلها بما يمكن من مظاهر الوقار والاحترام ولا تنسَ ان تقول لها اني مساء النهار ازور شقيقها وبهذه الاشارة غنىً عن الاسهاب وهي تقدر مقصدي وتفهم مغزاي

— كن ساكن الخاطر مطمين النفس انني متمم ما امرت بهِ بمنتهى الدقة

قال هذا ثم خرج من الغرفة واغلق الباب وابتعد وهو يتمتم ويقول كانما هو يخاطب سيدهُ : «اكتب اكتب . . . اشتغل . . . اعمل . . . جده ما تلف . . . هيهات . . . فقد فات الحين وامرك امرٌ لا يرتق فتقه ولا يوسى كلمه»

وكان الليل قد اجفل واقلع والفجر ابتسم وافتر والصبح ضحك وسطع وكان لون الافق وردياً يبهر النواظر ويدهش النفس ثم ان الغزالة برزت من حجابها وكشفت جلبابها فبددت جيوش الظلام بسهامها الذهبية واشعتها المضية

اما جرجي فكان ذاهلاً اذ ذاك عن جمال الطبيعة منكبًّا على عمله ولم يدرك ان النهار قد متع وتلع بدليل ان الشمعة التي كانت امامه ظلت موقدة ومع ان غرفته كانت قائمة على مقربة من السبيل العمومي لم ينتبه لحركة الناس والغاطهم

وبقي جرجي يشتغل والوقت يمرُّ ولا يذهب بصبره وثباته بل كانت قواهُ تتجدد ويخلق فيه حبُّ المجد والشرف همةً واقدامًا لا يؤثر فيهما العناء والملل . وقد كان رأد الضحى من اليوم الخامس والعشرين من شهر ايار ويذكر القارئ ان في مثل ذلك اليوم من العام المنقضي على هذه الحادثة كان جرجي قد اخذ على نفسه عهدًا انه ينتحر إن لم ينل المرام ولذلك كان يبذل ما في الوسع قصد انجاز مقالته قبل اقبال العصرة ولما ازفت الهاجرة قرع سمعان باب الغرفة فلم ينتبه الطبيب لاول مرة ثم كرر الخادم ما فعل فذعر جرجي كانما هو في منام وايقظهُ احد مباغتةً لانهُ كان قد مرَّ به زهاء ١٠ ساعات وهو يقدح زناد الفكر منقطع الى الكتابة لا ينفه ولا يفقه شيئًا غير موضوع مقالته ولما قرع سمعان الباب مرارًا انتبه جرجي تمام الانتباه ثم قال والعجلة حليفة الجنه

— ادخل

فدخل الخادم اما جرجي فقال له زاجرًا

— الم احظر الدخول الى هذه الغرفة او ما افهمتك اني لا ارغب في ان يؤخرني احد عن عملي

— ولكن ليعلم سيدي ان الشمس قد استوت في كبد السماء وقاربت الظهيرة

— وسيماء الغضب ظاهرة على محياه — او ما يهمني ذلك

— فتلون سمعان واجاب بتذلل ناشىء عن التصنع والمماكرة

— لا يهمك ذلك البتة . او ليس لسيدي حاجة أقضيها له على الراس ثم العين

— لا اريد شيئًا

— او احضر لسيدي مأكلاً ؟

— قلت لك اني لا اريد شيئًا

وكان سمعان حال دخوله حاملاً بيده رزمًا وتحارير اتى بها البريد باسم سيده فقال له

— او ما يشاء سيدي ان يطالع على هذه الجرائد والتحارير

— هات

واخذ تلك الاشياء من يده ووضعها على المائدة امامه دون اكتراث واسرع بصرف الخادم من غرفته فخرج سمعان من غرفة الكتابة وكان

كأني براقش كلَّ لون لونهُ يتخيَّلُ

ولم يمضِ المديد من الحين حتى انهك جرج الكد والنصب واضنكه الاعياء والتعب واستولى عليه الكلال فتركت بنانه القلم وانتصب واقفاً ثم فتح احدى النوافذ قصد ان يستنشق الهواء النقي ثم شرع يتمشى في الغرفة وهو ينفضُ تجاربه ويلقي على كلٍ منها نظرةً وبينما كان على تلك الحال عثر بين تلك التجاريب على نشرة مطبوعة وهي معنونة باسمهِ وبين اوراقها تحرير ما امرَّ النظر عليه حتى تغيرت الوانه وعلاوجهه الاصفرار واخذ منه القلق والاضطراب كلَّ مأخذ ولكي لا نذهب بصبر القارىء الكريم بشرح مآل ذلك التحرير وما كان فيه من الامور المؤثرة بفؤاد جرج رأينا ان نرسمه هنا بحروفه فيعلم القارىء مركز جرج الحرج وهذه صورته:

«اطال الله بقاء الزميل الكريم الدكتور ... وادام فضله»

«اما بعد فاني مرسل اليك مع هذا التحرير كراساً يحوي البيان الشافي على فوائد طبية وفقني الله للاكتشاف عليها بعد ان عانيت الكد والنصب في سبيل الوصول لمعرفتها ومارست الاختبار والتجارب المختلفة في تحقيقها وتثبيتها وهذا الاكتشاف انما هو نتيجة بحثي في «منظريات (ميكروب) السل وفي الذرائع الواقية والادوية الشافية منه ...»

«ولا غرو ان تحوز هذه المقالة رضى واستحسان مريدي فن الطب لان الاكتشاف جديد والبحث جليل والمرض عضال عقام قد ضاق الاطباء في سبيل المداواة منه ذرعاً فلا بدع اذا ما كان لاكتشافي هذا وقع خطير»

«ولذلك رأيت بدأة ذي بدء ان اقدمه لزملائي الاطباء الافاضل راجياً ابداء رأيهم فيه ولعلني اذا سمحت الفرصة ووافقت الظروف اجعل هذه المقالة مقدمةً او تمهيداً لتأليف واسع انشئه بهذا الشان»

وفي الختام ارجو الزميل الفاضل قبول عبارة شكري وعاطفة امتناني

من بيروت في ٢٥ ايار ٠غ٠ سنة ٠٠٠ الداعي

الدكتور سلبينا

وما اتم جرج مطالعة التحرير المذكور حتى سقط في يده واستولى عليه الدهش

فظلَّ كالمذهول به والمكسور في ذرعه وقد تعاقبت الالوان المختلفة في وجهه وانقلبت هيئته وتغير شكله بقوة المؤثرات وشدة الانفعالات ولو نظر اليه اخص معارفه في تلك الاونة لما عرف انه جرج اللياوي وقد وقع له هذا الواقع فحدث ذلك الانقلاب السريع ببرهة لا تتجاوز الدقيقتين اي ريثما قراء الرسالة التي سبق ذكرها ثم نظر الى ما حوله على غير انتباه ورفع يده المرتجفة الملتهبة سنار حمى شديدة الى جبينه فكان مندى بالعرق البارد ثم شخص ببصره ثانيًا الى التحرير وراجع قرأته مكررًا كل عبارة وظنَّ برهة انه في منام او ان به عقلة من السحر ثم صاح وكان الحزن كل ضعضعة وتلك الحال قد هدته واكسفت باله واضرمت قلبه : أفي منام انا .. ام تخيل لي الشيء ... او ما ارى ? ...

ثم انه ترك الرسالة على المائدة وشرع يبحث على الكراس المحكي عنه بين الجرائد فعثر عليه وكان مؤلفًا من ست صفحات ليس غير وهو بذات العنوان الذي كان وضعه جرج لمقالته اي :

« منظريات (ميكروب) السل وطريقة ملاشاتها »

ثم اخذ بمطالعة ذلك الكراس فكان حاويًا ذات البيان ونفس الادلة التي وقف عليها جرج بعد الدرس الطويل والاختبار وما اتم مطالعته حتى استولت عليه شدة الاضطراب وتمثل له ان الارض خسفت به وهبطت على راسه السماء باجرامها فتنهد الما وحزنًا وكان يصعد النفس من اعماق صدره اسفًا لخيبة آمال كان موشكًا ان يحققها وانصرافه باليأس عن حاجة كان قارب الفوز بها . سعى وراء المجد فكدَّ وجدَّ وصعد في اعضاد جبله الباذخ بخرط القتاد قاصدًا ان يتسنمه على وعورة سبله ولما قارب ذروته وساوته دفعته يد الحدثان الى الوراء فسقط الى اعماق واديه وكان سقوطه عظيمًا

ويعلم الناقد البصير ان ذلك الكراس لم يكن غير نسخة ثانية نقلت عن مقالته بمعنى انه حين فرغ من مطالعته ظنَّ ان الكراس يخصه وان احد المحبين طبعه على نفقته رغبة في افادة العموم على ان هذا الوهم قد زال وتبدت لديه تلك الحقيقة المحزنة بتمامها وكمالها اذ رأى الكراس مذيلاً باسم « الدكتور سلبينا » بدلاً من اسم « الدكتور جرج اللياوي »

ثم قال بنفسه يالله هل يتفق ان اثنين يسعيان وراء اكتشاف واحد في آن واحد ويتبعان مبدأً واحدًا ويجريان التجارب نفسها ان في هذا عجبًا !

وقد عظم الامر على جرجي ومضه ونكاهُ وكرثه واشجاه وآلم قلبهُ واضاق ذرعهُ واثر في صحة جسمه واصابه دوران وكان يرى ماحوله في حركة واهتزاز مستمرين وتمثل لهُ ان دخانًا يتصاعد امامه وشعر بانقباض في صدره فنهض للحال وفتح احدى نوافذ الغرفة قصد ان يتنفس الهواء النقي ثم شرع في ان يتمشى في الغرفة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا على غير هدى ولما ادرك انهُ باضطراب شديد نقر على جرس كان لديه استدعاء للخادم على ان سمعان لم يقبل اليهِ فخرج جرجي من المكتبة باحثًا عليه طالبًا لهُ. بيد انه لم يجده في غرفة من الغرف ولا في الدار ولا في الجنينة لكنه وجد على احدى الموائد كتابة بخط يد سمعان يقول فيها انه عدل عن الخدمة لما ان سيدهُ انزل به الاهانة والامتهان على حين لم يأتِ منكرًا يوجب التقريع والتعنيف

ولم يمضِ برهة على جرجي حتى نشرته حمى شديدة نشأت عن الكدر والاسف والقنوط والامتعاض حتى ظل لا يعي شيئًا على التقريب فانطرح على سريره مرددًا كلمات لم يفهم منها غير هذه : « الله اكبر .... مسا هذا الاتفاق ! ياللمصيبة ويا للبلاء ! .... »

وقد استمرت عليه نوبة الحمى زمنًا مديدًا حتى تخوّنت جسمه وصار يتكلم بغير معقول وكان في هذيانه يكرر اسم فريدة ويذكر الخامس والعشرين من ايار وهو موعد اللقاء .. . ثم كان يردد كلمات تشير الى اسفه لفقد العز المنتظر والمجد الذي سعى وراءهُ والهناء الذي كانت نفسه تتوق اليه وكان يردد احيانًا هذه الالفاظ « مَن هذا الدكتور سلبينا الذي سبقني لهذا الاكتشاف » وكان والعلة تعدهُ يذكر اسم والدهِ وشقيقه ثم يصيح باعلى صوته : فريدة ! فريدة ! ... فريدة ! ... ثم انه كان يذكر ايضًا اسم الدكتور سلبينا على انه كان يبدي اذ ذاك ملامح الامتعاض والحزن . وكان من وقتٍ الى اخر يردد الفاظ العهد الذي كان كتبهُ على نفسه الا وهو « اليوم في الخامس والعشرين من شهر ايار سئمت نفسي الحيوة ووضعت حدًا لايامي » كل ذلك كان يكررهُ في خلال هذيانه المسبب عن الداء وما فارقته الحمى حتى استولى عليه سبات شديد من جراء ما عانى من النصب والتعب والمثابرة على العمل ساهرًا على ان ذلك النوم لم يكسبه الراحة والقوة لما ان الهواجس كانت ترعج دماغه وكانت تتراءى له الاحلام المخيفة وتتمثل لدى مخيلته الصور المزعجة وتمر بقوته الذاكرة ضروب الحوادث الموثرة المكدرة . ثم انه كان يستفيق لحظة واذ كان يرى

جسمهُ عجيفاً هزيلاً كان يدمع ثم يهتف قائلاً : « اواهُ اني اموت ولا انظر الى فريدة نظرة الوداع ! »

٦

ولما كان المساء فتح باب غرفته ودخلت امرأة على وجهها نقاب على الزي التركي وكانت تلك المرأة فريدة اقبلت زائرة جرج قياماً بالعهد الذي يذكرهُ القارىء واذ وجدت سائر الابواب غير مغلقة تعجبت وقرعت باب القاعة فلم يقبل اليها احد ثم نادت فلم يكن لندائها مجيب فقلقت ثم دخلت الدار ونظرت يمنة ويسرة فلم ترَ احداً ثم تقدمت نحو مخدع جرج واذ بلغت بابهُ سمعت جرج يتكلم فادركت انه هناك وعندها نقرت على الباب باصبعها اشارة الى الاستئذان بالدخول فلم يلبِّ احد نداها ثم اصغت قليلاً فسمعت صوت جرج على ان كلامه كان غير مفهوم وهو يدل على الضعف وتشويش الذهن فاشفقت من ان يكون قد وقع له واقع فدخلت الغرفة ولم تتقدم خطوات قليلة حتى وقفت مندهلة مذعورة اذ وجدت جرج على فراشهِ ووجهه مكفهراً تلوح عليه سيماء الانزعاج والضنك وشد التأثر فبسطت يداها وهتفت : يا لله ما حدث وما جرى ! . . .

ثم دنت من السرير واصغت بغية ان تتدبر مقالهُ فلم تسمع منهُ الاَّ كلمات غير معقولة كان يأتي في خلالها على ذكر اسمها واسم اخيها مراد بك وتاريخ ٢٥ ايار فانست من ذلك ان جرج قنط من الفوز بالغاية التي كان يروم وان الحمى والاضطراب المستحوذين عليه انما هما نتيجة ذلك على ان تعجبها بلغ مبلغاً عظيماً لما انها لدى مقابلتها جرج بالامس رأت منه انه واثق بالفلاح وعلى يقين من النجاح بتحقيق الامال ثم سقط في يدها وكسر في ذرعها اذ وجدته عجيفاً هزيلا تاكل الحمى لحمه وهو يتقلب على فراش الاوجاع بعد اذ كان بالامس في معظم النشاط والقوة يسير في عروقه دم الشباب ونهزهُ امال الاقبال وسيماء البشر والانس ظاهرة عليه وماء الصحة والعافية يتدفق من وجنتيهِ واذ مرت هذه الافكار بخاطرها انست ان في الامر سرّاً لم تدرك كنهُ لكنها انست من كلماته غير المعقولة انه في منتهى اليأس وشدة الكدر من جراء خيبته وانه ان لم تتداركه رحمة الله فهو هالك لامحالة فتنفست الصعداء واصعدت التنهدات وقالت بنفسها اني لاحرص على حفظ حياته حرص الام على البنين والشقيقة على الشقيق وان اخفقتُ في المطلب واكديت في الحاجة اعمد الى الانتحار فاموت معه

ثم نادته : جرج ... جرج ! استفق !

على ان جرج لم يجبها وظلت عيناهُ مغمضتين وعاودته الحمى والهذيان فكررت القول: جرج .. حبيبي ما وقع لك .. لمَ اراك قانطاً خاضعاً لسطوة الهم والغم ... حبيبي عد الى روعك !

فانفتحت عينيه بيد انه لم يميز من كانت تكلمه فقالت له : حبيبي الم تدرك من انا ... أني فريدة ... فريدة خطيبتك ...

ولكن جرج ظل في الهجرانِ وكانت عيناهُ شاخصتين تحاكيان عينيّ من به مس وكانت حدقتاه متسعتين كانما هو ناظر الى اشباح مخيفة فاشفقت الفتاة من ان يكون قد المّ به جنة او عقلة من السحر وادركت للحال انهُ يجب استدعاء الطبيب للاعتناء بامر مداواته ولما لم تجد لديها احد من الناس شخصت الى قصرها وكان ذلك بقدر خطفة البرق وارتداد الطرف ولدى وصولها انبأت اخاها (مراد بك) بما كان من امر جرج ولم يمضِ المدبد من الحين حتى اقبلت واخوها والطبيب على منزل جرج البياوي واذ دخلوا غرفته وجدوهُ في صالبٍ من حماهُ فنهض من سريرهِ على غير هدى وسار توّا الى خزانته واخذ منها غدارة مسدسة وصوبها نحو رأسه كانما هو يود الانتحار فسارعت فريدة اليه وبمساعدة الطبيب تمكنت من نزع تلك الالة المريعة من يديه ثم القاه الطبيب على الفراش وشرع يفحص حالة الداء بمنتهى الدقة والانتباه فقرر آخرياً ان جرج مصاب بالتهاب في الدماغ ناشيء عن شدة الانفعالات وان تلك علة ناهكة يخشى من ان تذهب بحياة العليل وقال انه لامرٌ ضروري حسن القيام عليه في مرضه والتكفل بمداواته وحظر خصوصاً ان يبقى المريض ولو برهة منفرداً في غرفته مخافة ان ينتحر ابان ثورة الحمى ثم انهُ وصف ما يقتضي من العلاج واشار الى الذرائع الصحية التي يجب اتخاذها وانصرف

وكانت فريدة قصت على شقيقها مراد بك سائر ما عرفته من امر جرج وانبأته انه احد الورثة وانه قد فاز بالغاية العليا والمنتهى القصوى مما كان قد شرع فيه وانها لاتعلم بعيد ذلك ما اصارهُ الى حالة القنوط واليأس

وكان لمراد بك تمام الثقة بشقيقته فريدة ولم ينكر ولم يحظر عليها التكفل بمداواته وكان يطمأن الى جرج ويركن اليه ويثق بمبادئه القويمة وعفة نفسه حتى انه استجاب ملتمس فريدة بان نقل جرج الى قصره وعهد الى الشقيقتين بالقيام عليه في مرضه فصرفتا مزيد العناية في تمريضه وتكلفتا مداواته ولم يغفل مراد بك عن

ان يدعو شقيق جرجي اندراوس الذي كان اوائلهم قد ابلّ وتوفي من علته ·
ولم يمض ردح من الحين حتى وهنت الحمى وانخفضت . ومما كان قد اوجب مسرة
مراد بك توفيقه بهذه الذريعة الى معرفة سائر «ورثة التركة»

ولما استفاق جرجي من غيبوبة الحمى فتح عينيه فوجد فريدة على مقربة من سريره
ثم اندراوس ومراد بك والجميع يبسمون له وعلى محياهم ملامح البشر والانس

اما فريدة فكانت مهزولة ضامرة من شدة التعب والنصب اذ انها كانت هجرت
المنام منقطعة الى خدمة حبيبها متفانية في سبيل مداواته ولذلك كان قد انهكها
العناء والعناد (في القيام على المريض) فترة من الداء

اما فاطمة فكانت منفردة في احدى زوايا الغرفة وعلى وجهها نقابها العادي
لا يظهر من خلاله غير عينيها . فنظر جرجي الى جميعهم وهش وبش ذاكرا كلاً منهم
وعلى اثر ذلك مرت بخاطره ذكرى ما وقع له من امر اكتشافه الطبي فانقبض صدره
وبدت ملامح اليأس والقنوط على وجهه

اما مراد بك وفريدة فقد اكثرا من تسليته وتطييب خاطره حتى اجتازا غصة
ولساً كربة فتناسي الامر ما امكن واخذ في النقه ولم يطل الامد حتى ابلّ وتوفي
بعون الله تعالى

على انه ما كاد يبلّ من الداء حتى نزلت به نازلة عظيمة ومصاب لا يدفع
وذلك ان فريدة نقطة اماله .. فريدة موضوع رجاءه .. فريدة التي ركب في
سبيل الحصول عليها اعظم المخاطر .. فريدة التي تحبه .. والتي اقامت على
مرضه تشفي بمناعيل اعتنائها بعد معونة الله قد انهكها التعب واضناها السهر وذهب
مزيد حرصها عليه ببقية قوتها وصرعها الوهن على مهاد الاوجاع واصابتها حمى
تيفودية شديدة انذرت بالخطر المبين وبالويل الذي لا يدفع

وقد دأب جرجي في مداواتها واستنفذ وسعه في القيام عليها في مرضها وصرف
في الامر عنايته وحاول جهد استطاعته على انه لم يستطع دفع الاذى وكبح
جماح العلة

واذ كان يوماً واقفاً على مقربة من سريرها منفطر القلب مضطرب اللب
حائراً في امره اسفاً على ذبول زهرة عمره وليس في يده ان ينعشها بماء الحياة نظرت
اليه نظر المحب الولهان وقالت له وكان ثغرها باسماً واحشاؤها ملتهبة بضرام الداء
والاحزان:

جرج يا حبيبي جرج . كن ساكن الروع آمن البال ... لا تحزن ولا تكتئب . اذكر ما انبأتني به فاطمة ونقلته اليك منذ امد .... تامل .... قد صدقت شقيقتي حيث قالت اني ساصاب بمرض شديد .... ولكن لا يسمطر لبك لان فاطمة لم تقل اني ساموت على اثر الداء

فاجابها وكادت روحه تفارق جسده حزنا واسفا ولهفة وحنانا وتاثرا واشفاقا .. او تموتين ! ... لا اصدق ذلك مطلقا .... بل ذلك لا يكون أأمتِ فريدتي تموتين بعد اذ احتملت المصائب الجمة والمتاعب الكثيرة تفانيا في خدمة الانسانية ... تموتين وانت في ربيع الحياة بل انتِ زهرتها ... كلاّ ... ان الله يحب من كان رحوما شفوقا نزيها عفيفا فهو لا يبعد عنا رحمته وهو ينظر الينا بعين الشفقة والحنان وهو يمنُّ علينا قريبا بصحتكِ وعافيتك والله لا يخيب من يضرع اليه

اما فريدة فلم تجبه بل اصعدت تنهدات عميقة وامالت بوجهها عنه لان الدموع انهملت من عينيها وكانت تود الاّ تريه احزانها لانها كانت عالمةً ببئس المصير ولم تأتِ على ما مرَّ من الحديث الاّ قصد تخفيف الامه وتاخير احزانه الى ان يازف الترحال .

فانفطر فؤاد جرج لانه ادرك ما قصدت واحس بما احست به وكان عارفا من حيث انه طبيب ان لا رجاء ببقاء حياة فريدة على انه مع كل ذلك قد استدعى اشهر الاطباء ومهرة النطاسي الحذاق رجاء دفع الاذى الملم على انهم ضاقوا ذرعا واعلنوا آخريا والقول موجب للاسف « ان لا امل بالحيوة ! ..

وقد بقيت يومين على اثر ذلك تندفع عليها جيوش الموت وهي تدفعها بما لديها من دم الصبا وقوة الفتاء على ان العلة تمكنت منها ايما تمكين وذهبت بما بقي فيها من عناصر الحيوة فاخذت في الاحتضار تتاهب لوداع اهلها والتيها ربها ولا يستطيع القلم وصف ما حلَّ بتلك العائلة التعيسة يوم ثبت لديها ان زهرتها الفريدة قريبة من الذبول وشمسها المنيرة سريعة الافول فكان كل فردٍ من افرادها يجهش بالبكاء سرا وجهرا . ويرى حلو الوجود علقما مرا . اما هي فكانت في احتضارها كما كانت في معظم فتاءها وقوتها معتصمة بالصبر والثبات لا ياخذها الخوف والياس بل كانت بابتسامها المستمر وكلماتها اللطيفة تسلي هموم ذويها وتجلي كروب محبيها ومريديها آملةً ان تجيز غصتهم وتنسى كربتهم وما كان عملها هذا الاّ ليزيدهم حنانا اليها وحزنا عليها فكانوا ينظرون اليها والدمع ملء العيون نظرة وداع اخير ليس بعده

لقاء . في عالم الشقاء

وكانت فاطمة قائمة تجاه شقيقتها . وهي كالخيال لان جمرة الحزن كانت تتاكل لحمها وغصة الفراق تخوّن جسمها حتى غادرتها هزيلةً عجيفة وكان اخوها مراد بك واقفًا تجاه احدى نوافذ الغرفة تندفع الدموع من عينيه . اما جرج فكان فاقد الرشد يود البكاء بغية ان يجيز غصته بيد ان الدموع كانت تخونه وكان اندراوس ايضًا في تلك الغرفة يقاسم العائلة الاحزان والاهتام فاشارت فريدة الى الجميع بلطفٍ وابتسام ان يتركوها في الغرفة برهة مع فاطمة فاجابوا سؤلها ولما صارت الشقيقتان على انفرادٍ دنت فاطمة من سرير فريدة واحالت عن وجهها النقاب وجلست على مقربة منها وامسكت على ما في نفسها من الحزن والكآبة وتبسمت بوجه شقيقتها قصد ان تشدد عزائمها وتقوي قلبها وتوهمها ان لا خوف عليها من المنون فتدبرت فريدة مراد شقيقتها وهزت برأسها اشارةً الى انها عالمة بالمصير ثم قالت لها بلهجة تشف عن الحزن والاسف والاضطراب : ياشقيقتي الحبيبة لاتحاولي اقناعي بالمحال . . . انا اعلم اني اموت عما قليل . . . . ساموت ياشقيقتي الحبيبة وبالفؤاد غصص وحسرات . . اموت على حين ابتدأت ان ارى العيش رغيدًا والعمر عشيبا . . . اموت كسيرة القلب خاشعة الطرف لما ارى من شدة حزنكم وشجوكم عليَّ . . . . . اموت حزينة لما اني ارى شقيقي كاسف البال واراكِ انتِ يافاطمة تجهشين بالبكاء . . . . اموت منكسة البصر منقضة الرجاء من حيث ان ذاك (ارادت جرج) يستوجب الشفقة . . . . . ذاك الذي لم يحبب له الحيوة الاَّ امله ان نعيش معًا . . . ذاك الذي جعلت روحي فداه وسعادتي وقف اشارته . . . . بشانهِ رمت ان اكلمكِ . . . اجل بشأْن جرج اليف مودتي . . . . فانما نحن سليلا وفاء ورضيعا صفاء واخوا حب وحليفا لبّ . . . اودّ ان اخاطبك بشان جرج من احبة فوادي ولهذا رغبت في ان نجتمع على انفرادٍ واحب ان يبقى ما ساقوله لكِ ضمن صدرك الان على اني اعهد اليكِ ان تبلغي شقيقي مراد بعيد مماتي وصيتي الاخيرة وهو تعمل بمقتضاها لانها ارادة من تكون قد اضحت في عالم الاموات

وهنا احست فريدة ان التأثر قد اوهنها فامسكت عن الكلام برهة حرصًا على ما بقي من قواها المحبوبة ثم اغمضت عينيها قصد ان تجمع كل تصوراتها فهلعت فاطمة وظنت لاول وهلة ان شقيقتها قد قُبضت فانهملت عبراتها وكادت ان تصيح الويل على ان فريدة فتحت عينيها وقالت لشقيقتها متبسمة ابتسام المودعين : « لم يدنُ الحين ايتها الحبيبة

واظن ان لي من هذه الحيوة بضع دقائق احب ان تصغي لكلامي باثنائها . . حبيبتي اقتربي مني واجعلي اذنيكِ على مقربة من فمي كيما اتكلم بصوت منخفض وبهذه الواسطة لاتنندقولي بسرعة فاتَكن من تتمة كلامي . . . استودعك الله يافاطمة الحبيبة . . . عزي شقيقنا وقولي له انه لم يمت مني سوى جزء فانك انت باقية لديه ونحن فيما تعلمين اشبه بعضنا من الماء بالماء حتى انه كثيرًا ما كان يظن فريدة فاطمة وفاطمة فريدة فليتصور منذ الان كلينا في جسم واحد . . . في جسمك يا مهجتي . . . عزي جرج . . . (وهنا تهدّج صوتها بالبكاء) — قلت : ونحن ندمع لدى كتابة هذه السطور — . . . .) اعهد اليكِ برضاته فاسمعيه لهجة الحنو وكلمة الانعطاف رفقي عليه بما اعهدهُ فيكِ من الطهور واللطف وكوني بعد ان اموت احنى الناس ضلوعًا عليه — — ياشقيقتي الحبيبة عاهديني انك تقومين بما نتواثق به من العهود ساعة الفراق هذه

— اعاهدك ياحبيبتي وساوفي بعهد الله (فعند ذلك تماطرت دموع فاطمة) وقالت لها فريدة

حبيبتي . عندما ابرح من الدنيا وبعد ما تمرُّ على جرج ايام الاحزان الاولى اودُّ ان ترفعي النقاب عن وجهك كلما قابلته وعندما يعلم شقيقي ان هذه ارادتي لا يعارضك . فاطمة سترفعين هذا النقاب وتبدين في نظر جرج على ما انتِ اعني بصورة تشابه صورتي فيظن لاول وهلة ان فريدة قد انبعثت ومع الزمان سيحبكِ كما احبني وبعبارة اخرى ياشقيقتي العزيزة سيحبنا كلينا في شخصكِ . . . ولا ارى ذريعةً غير هذه لانقاذ حياته . . . ومؤكد لديَّ انه لا يصبر على الحيوة ان لم تفعلي كما اشرتُ — اقسمي لي انكِ ستحفظين وصيتي

فاجهشت فاطمة بالبكاء واجابتها بصوتٍ متهدج :

— سافعل قسماً بكِ

— حبيبتي لا تكثري من ذرف الدموع . . . انا لا اتعذب كما تتصورين بل موت كمن ينام نومًا ثقيلاً . . . . القي يدك في يدي ياعزيزتي

فتصافحت الشقيقتان ثم ان فريدة قالت لفاطمة : انظري كيف ان الله جعلنا متشابهتين خلقًا وخُلُقًا وبذلك اراد الله ان استمر حيةً بكِ . . . . وبذلك ايضًا ستتجه نحوك عواطف الحب الاخوي المستقر في فؤاد شقيقنا مراد . . . . ستحصلين على نصيبي من تلك المحبة منضمًا الى نصيبك فيضاعف حبه لكِ وكذلك سوف

يضطرم حبكِ في فؤاد جرج ... اذ يرى فيكِ ثغر فريدة التي تكون قد نزحت عن الدنيا سيرى فيكِ مبسمها ووجهها وعينيها وشعرها وقدها والتجنها وحركاتها — سيرى كل ذلك بشخصك ويخال له ان فريدة المنكودة الحظ تحيي بك وتبتسم بشخصكِ .... الوداع يافاطمة ... وداع لذاتي بكِ . . . الوداع الى عهد اللقاء وما عهد اللقاء بالزمن البعيد .... رجاي بكِ ان تستدعي اخي وجرج والجميع لاني اشعر الان انه لم يبقَ لي من الحيوة سوى الزمن القليل . فاسرعت فاطمه تدعوهم وباقل من لمح البصر التأم حول سرير المحضرة كل من جرج ومراد واندراوس وفاطمة ومن وراءهم ازوب وسائر الخدم وكان الجميع متهيبين لايفوهون ببنت شفة مطرقين ورؤوسهم منخفضة قصد اخفاء الدموع السخينة التي كانت تندفع من عيونهم

اما جرج فكان يحاكي شبحًا منتصبًا اذاء السرير شارد الفكر مضطرب الحواس فاقد الرشاد ثم دنى من السرير وقبض على يدها ورقبَ دفعات النبض فوجدها بدأة بدء نادرة بطيئة ضعيفة ثم انقطعت تلك الضربات ولم يعد بيدها حبض ولا نبض . فجعل يدهُ على القلب .... على قلب تلك الفتاة الكريمة الذي يضطرم بحبه ويذوب من اجله .... فتداءة بدء لم يشعر بحركة فيه على ان يد جرج الملقاة على نقطة عواطف فريدة قد اثرت بها تاثيرًا شديدًا فخفق قلبها اذ لمسته يدهُ من تحب وفتحت عينيها ونظرت النظرة الاخيرة — نظرة الوداع — الى خطيبها وحاولت ان تبتسم على انها لم تقوَ على ذلك اذ الساعة قد دنت .... واحس جرج بارتجافٍ في ركبتيه فسقط جاثيًا على السرير .... فقالت فريدة .. . الوداع حبيبي .... اني احبكَ ياجرج ... لاتبكِ .. . لاتنحِ عليَّ زمنًا طويلاً .... انا لا انزح عنكم ابدًا .... لكنني اعتزل مدةً .... جرج لاتنسَ اني ساعود اليكَ قريبًا

ثم انها رفعت يدها لتشير اليهم بالسلام الاخير على ان الموت لم يمكنها من نيل تلك الامنية الاخيرة فسقطت تلك اليد وذبلت الازهير وانقطع النسيم وأفل البدر نزح اللطف وفنيت العواطف

وماتت فريدة !

٧

وعلى اثر تلك الفاجعة انسلّ جرجي من غرفة فريدة دون ان ينتبه احد اليه لعظم ما اصاب الجميع من الوجل والحزن وسار مكفهرّ الوجه ثابت الجاش نحو الغرفة التي كانت قد أُعدت له في القصر (وهي ذات الغرفة التي اقامت فيها غادة البقاع حيناً من الدهر) وهناك استلّ خنجراً كان لديه وجلس على سريره وفصم عرى ثيابه . ثم شق قميصه وجس بيده على موضع القلب وانفذ الخنجر فيه فانقلب على السرير يتضرج بدمائه الذي كان يندفق اندفاقاً وهو يقول : فريدة . . . فريدة . . . انني سائر في اثرك . . . فريدة لتنتظرني نفسك الكريمة في عالم الارواح اه . . . ان الروسنه الدنيء قد فاز بغرضه الذميم واستولى على غايته الشريرة.

وكانت فاطمة وهي قرب جثة شقيقتها تذكر وصيتها بالنظر الى جرجي فارسلت النظر لتقف على ما صار اليه من الحال في اثر تلك الفاجعة فلم تره بين الجمع واشفقت من ان يكون قد ادركه القنوط واليأس فاشارت الى اندراوس ان سر للحال وانظر اين اخوك فاستطير اندراوس من كلامها وسار مسرعاً الى غرفة اخيه فدخلها دون استئذان . . . . واذ رأى ذلك المشهد المهول اجهش بالبكاء وصاح بالعويل فان جرجي كان ملقياً على سريره لا حراك فيه كانما هو ميت وكان الدم متجمع ضمن الجرح لا سبيل لانفجاره لما ان الخنجر كان لم يزل نافذاً في صدره وكانت يداه متشنجتين قابضتين على قماش السرير كانما هو يريد تمزيقه وكانت عيناه مطبقتين كانما هو لا يودّ ان ينظر الى صورة بشرية بعد غروب صورة (فريدة)

اما اندراوس فشرع ينادي يا للمصيبة ويا للويل مات اخي . . . قضي عليه . . . يا القوم اسعفونا . . . خذوا بيدنا . . . با ال الرحمة . . . فسمع صوته مراد وفاطمه والحضور واضطربوا من جراء ذلك الصوت وهرع الكل نحو الغرفة الاّ فاطمه التي ظلت قرب سرير الفقيدة اما مراد فاذ دخل غرفة جرجي وجد اندرلوس مغمياً عليه بجانب شقيقه وادرك للحال ان جرجي انتحر في اثر وفاة فريدة كرهاً منه ان يعيش بعدها ساعة

فاضطرب مراد بك من جراء هذه الحوادث التي نزلت به على حين لم يكن يتوقع حدوثها وانقبض صدره وفقد لذة العيش على انه تجلد وتصبر بقوة ما انزل الله على قلبه من الحكمة والرزانة والتجلد وشرع يبحث فيما لو كان جرجي لم يزل باقياً في قيد الحياة ولدى وضع يده على فم الجريح ادرك ان فيه بعض رمق وذلك لما ان الضربة التي طعن بها جرجي

نفسه لم تصب القلب والّا لكانت ادركته الوفاة على الاثر . وللحال استدعى ازوب الخادم وامره ان ياتي بطبيب بما امكن من السرعة وما كان قدر لمح البصر حتى اقبل الخادم مستصحبًا نفس الطبيب الذي وقف على مرض جرج عندما كان مصابًا بالحمى واذ شاهده على تلك الحال اسف ثم قال ذلك ما كنت اخشاه فهو لم ينفجر الّا من جراء نوبة من الحمى اصابته في اثر الفاجعة التي نزلت به وللحال تقدم نحو الجريح ونزع الخنجر من الصدر بمنتهى الدراية فانهمل الدم من الكلم بكثرة ثم قال: لو تاخرت دقيقةً واحدةً لكان قضي على هذا الانسان وبعد اذ فحص الجرح قال للحضور الناظرين اليه بمزيد الاهتمام احمد الله انني لم ازل اعلق الامل بشفائه فان الضربة لم تصب عضوًا مهمًا . ثم انه ضمد الجرح ووصف ما يلزم من العلاج وازال جزع اندراوس ومراد وخفف اضطرابهما واملهما بشفاء جرج باذن الله تعالى، ثم قال لهما اني اوكد لكما ان جرج سيبل من مرضه ان لم تصبه نكسة والنكسة شر من الداء . ثم انصرف عنهما بعد اذ وعدهما انه سيقبل عليهما عند المساء قصد عيادة العليل

ثم دخل مراد بك غرفة الفقيدة حيث كانت فاطمة على مقربة من الجثة فسالته عن جرج بمزيد الاهتمام اما مراد بك فنقل اليها كلام الطبيب معربًا لها ان الامل بشفاء جرج عظيم فعندها انحنت فاطمة وادنت شفتيها من وجنة شقيقتها التي لا روح فيها . ثم قالت لها باكية: اتسمعين يا فريدة ان جرج لا يموت والامل بشفائه عظيم

وعندها خال لفاطمة ان الجثة الباردة ادركت مآل كلامها وان وجهها المكفهر قد تكلل بسيماء الفرح والسرور

. . . .

٨

وبعد ايام قليلة قد تحقق ظن الطبيب واتضح ان العليل قد نجا من الخطر المبين على ان ضعفه كان عظيمًا وكانت تاخذه نوب من الهجران كان يستفيق في خلالها بضع دقائق لا يتكلم بل ينظر على غير هدى الى ما حوله وقد احسن مراد بك واندراوس القيام عليه في مرضه وكانا يرقبان انه متتبع صورة كانت تتمثل ابدًا امام عينيه

ويومًا ما بعد غروب الشمس استفاق جرجُ من الهجران فوجد ذاته في الغرفة وحده ونظرًا لقلة النور وضعفه الشديد لم تكن عيناه تبصران الاشياء بجلاء ولم يكن عقله بتصور المرئيات على ما هي وبينما كان على تلك الحال رأى ان بابًا سريًا لغرفته

محجوبًا بسجف قد انفتح ودخل شبح بشكل امرأة تقدمت نحوه دون ان يسمع لقدميها حسيس اذ كانت تمر على طنافس الغرفة اما هو فلم يكن يميزها جليًا نظرًا للاسباب التي ذكرنا فتقدمت نحو السرير وعند ذلك تنهد متألمًا مما كان يظنه رؤيا ولم يمكنه الضعف من استجلاء الحقيقة . اما هي فمدت يدها نحو صدره الى محل الجرح الذي كاد ان يبرأ فشعر بان الامه كانت تخف وتزول على ان فؤاده خفق بغتةً وعاوده الهجران فاطبق عينيه . ثم انه استفاق بعيد برهة من الحين فلم يرَ احدًا وظن انه كان في حلم تمثلت له فيه فريدة اذ خال له انه رآها عائدة اليه بقدها وحركتها وطيبها وعرفها ولم يكن قادرًا على ان يجمع تصوراته جليًا

وبعد ذلك بايام نهض ليلة من غيبوبته واذ كان يفكر بامره رفع نظره بغتةً ثم صاح صوتًا عظيمًا لانه شاهد ذلك الخيال واقفًا امامه ناظرًا اليه وكان نور المصباح منعكسًا على تلك الصورة مظهرًا وجهًا يمازج بياضه الاصفرار ثم ادرك جرج ان ذلك الخيال كان امرأة متسربلة بشعرٍ طويل اسود لامع وكانت عيناها ساطعتين تكحلها اهدابٌ طويلةٌ سوداء وكانت تبتسم حزينة ناظرة اليه بعين التشوق والحنان اما هو فكان ينظر اليها مندهشًا منذهلاً واذ كانت تصوراته متشتتة جعل يديه على جبهته قصد ان يجمع قواه العاقلة ثم نظر اليها ثانيةً وتنهد وقال بصوتٍ منخفض فريدة ! فريدة !—أ أنتِ هي ! . . . انت بالحقيقة فريدة ! . . . ثم انه مدّ نحو الفتاة يدًا مرتجفة ولكن ذلك المشهد اثرّ به كثيرًا لما كان عليه من الضعف الشديد فاستوى على السرير واستولى عليه الهجران

وبعد ساعاتٍ فتح عينيه ولم يرَ حوله غير اندراوس مكتئبًا ومراد بك مضطربًا لما رآياه من مزيد وهنه وضعفه اما هو فاحدق بنظره ونظر حوله لعله يرى تلك الفتاة التي تراءت له لكنه لم يجد غير مراد واندراوس يبذلان نحوه كل عنايةٍ . وكان يقول بنفسه لم أرَ منذ ساعة لا اندراوس ولا مرادًا بل نظرت فريدة ! العلني كنت في حلمٍ ! ويا له من حلم شهيٍّ حبذا لو ارى مثل هذا الحلم كل يومٍ من حياتي

ومنذ ذلك اليوم كانت تتناقص النوب وقرر الطبيب ان جرج اخذ في النقه وان شفاءه يكون قريبًا ان شاء الله تعالى وانه صار في غنى عن عيادة الطبيب له ما لم تحدث امور لم تكن في الحسبان

ولما كان صباح اليوم التالي استفاق جرج من الرقاد وكان الصباح بهجًا سطعت فيه الشمس من وراء القمم اللبنانية باشعة ذهبية طاردة جنح الدجى وكان النسيم يمرُّ حاملاً عرف الرياض الزاهرة وطغمات من الطيور تغرد في حديقة القصر فنهض جرج

وجلس على السرير وكانت الحمى قد تركته تماماً فاشار الى الخدم ازوب ان يفتح احدى نوافذ الغرفة ففعل ثم انصرف لقضاء بعض المهام فاخذ جرجي ان ينظر الى الحديقة دون ان يتمتع بمناظرها لكنه كان يفكر بامره حزيناً ثم سمع حسيس اقدام في الغرفة فالتفت ثم شهق بصوت يدلُّ على تعاقب الحزن والفرح بغتةً ثم صاح وقال. فريدة ! فريدة !

ثم جعل يديه على عينيه كانما هو لم يجسر ان يرى او انه يود ان يتاكد انه في يقظة ثم رفع يده ونظر ثانياً وقال باندهاش : فريدة ! فريدة !

وكانت على مقربة منه فتاة متشحة باثواب تركية تحاكي اثواب فريدة بيد ان النقاب (اليشما) لم يكن منسدلاً وكان الناظر الى وجهها يحسبها فريدة بالذات اذ انها لم تكن تختلف عنها بشيء الاَّ ان ابتسامها لم يكن يشف عن سرور داخلي وبالرغم من بشاشتها وهشاشتها كانت سيماء الحزن ظاهرة على محياها تشير الى سهم اصاب الذي كان نافذاً في فؤادها وقد دنت تلك الفتاة من العليل وكلمته بصوت منخفض قائلة :

— جرج !

— فلما سمع جرج ذلك الصوت وتلك اللهجة ولدى مشاهدته ذلك الوجه خال له ان من كانت امامه انما هي فريدة خطيبته وانه في حلم عذب فبقي مدة شاخصاً اليها فرحاً جذلاً ثم قال لها :

— فريدة حبيبتي .. فريدة !

— جرج ! جرج !

فذهل جرج عند استماع هذه الالفاظ ثم قال بنفسه اني انظرها واسمع صوتها ... فهي فريدة بالذات .. تنظر اليَّ وتخاطبني ... يا للعجب ... ان كانت هذه فريدة فمن التي ماتت امامي وبين ذراعي .. اما انا الذي سمعت اخر ضربات قلبها ... او ما كان قلبها الذي سكن تحت يدي ... اما ان يديها مردتا وهما بين يديَّ .. اجل .. اجل ويا لها من ذكرى توجب الاسف والانقباض ... انا ... بذاتي ... رأيت عينيها الساحرتين الساطعتين تنطفيان وتغمضان ... نعم نعم انا رأيت تلك اليد اللطيفة تشير الينا بالوداع الاخير ثم انها سقطت لاحراك لها — اما كانت تلك التي رأيت يد فريدة وعينيَّ فريده ... اه ... نعم .. على ان البين ابى الاَّ ان يثير عليَّ حرباً وينفذ في احشائي سهام الاكدار فحجبها بالموت عن نظري وخطفها من بين يديَّ خطفاً

وعلى اثر هذه الافكار اخذته قشعريرة وارتجاف في كل اعصابه لان رأسه الواهن لم يكن ليقوى على احتمال هذا الاندهاش تتعاقبه تلك الافكار والتصورات المحزنة

فارادت فاطمة ان تبتعد عنه مخافة ان يؤثر وجودها تأثيرًا مضرًا بصحته

فمنعها جرج هاتفًا نحوها متوسلاً فريدة! فريدة! لِمَ تذهبين ... اصدر مني ما يكدركِ ... اجلسي ههنا على مقربة مني .. انا اعلم انكِ غير حية على انكِ خيال هبط من السماء لتعزيتي وتشديد همتي واراني سعيدًا لما انك اقبلتِ عليَّ اقبال المحبين المخلصين ... ليس في العالم من يحبك كما انا احبك ... احبك يافريدة احبكِ كثيرًا حتى اني سعيت وراء ان اموت في اثرك ...

ثم انه قبض على يدها ... وقال: ياللعجب انتِ خيال ولستِ جسمًا حيًا ومع ذلك فهذا ملمسك ... هذه يدك ذاتها التي جعلتها مرارًا بين يديَّ ... وهذا خاتمك العزيز لديكِ ... الذي كان يزين اصبعك دائمًا .. ما انتِ اذًا خيالاً كما توهمتُ .. بل انتِ حية ترزقين اجيبي ايتها الحبيبة ... ما ارى ... امعاًثر دماغي من الحمى فارى غير الحقيقة .. اجل ان الحمى قد ذهبت بقواي المدركة وهي تمثل فريدة امام عيني في كل حين ... ياهذه ... يافريدة ... ان لم تكوني فريدة فلِمَ انتِ تصغين لكلامي وتتظاهرين انكِ هي وتطربين للكلام الذي لا اقوله الاَّ لها

اما فاطمة فارادت ثانيًا ان تبتعد عنه مخافة ان يورث له وجودها ضرًا اما هو فاوقفها عن المسير بقوله .. لا لا ... رجوتك الاَّ تذهبي ... ولئن كنت خيالاً فابقي امامي ... وليطل منامي ... واكتمي لله امرك ولا تطلعيني على سرك

— وما قولك فيما لو انبأتك باسمي ؟

— كلاَّ لا اريد ذلك

— انما انا فريدة !

فاجاب وقد اخذته هزة الطرب والاندهاش

— فريدة !

ثم اغمض عينيه وقال: ما اغرب هذا المنام وما اشهى هذه الرؤيا .. بل انا في يقظة فكيف يتفق والحالة هذه ان ارى فريدة .. ان فريدة قد قبضت .. والميت لا يبعث حيًا قبل القيامة

اجل ماتت فريدة وانا على موتها شاهد . ياللتحسر ويا للاسف اني نظرتها على فراش المنون .. نظرت عينيها تغمضان ووجهها يكفهر وانفاسها تتم .. نعم لقد ماتت فريدة

— جرج ثق بقولي اني لم ازل حية

— او ما تقولين

— الم تذكر يا جرج اني عاهدتك على ان اعود اليك او ما نهيتك عن البكاء وانبأتك ان غيابي لا تطول مدته واني على ما ترى منجزة موعدي ووعد الحر دين

— يالله ان هذا كلام فريدة ! ...

— اجل وانا فريدة قد فارقتك والان عدت اليك

فامسك جرج عن الكلام وطار لبه من جراء ما اصابه من التأثر وكانت عيناه تشخصان الى تلك الفتاة باندهاش متفرساً بها من راسها حتى قدميها قصد ان يرى فيها شيئاً يدله ان الفتاة غير فريدة لانه من جهة لم يكن قادراً على التصديق ان الاموات يبعثون ومن جهة اخرى ان هيئتها وملامحها وقدها وصوتها ولهجتها والفاظها وملابسها كلها كانت تمثل له ذات فريدة فعندئذٍ صاح قائلاً لها :

— اجل ... اجل انتِ عزيزتي فريدة ... قد عرفتكِ الان ... انتِ فريدة جئتني قصد تخفيف كربتي وتعزيتي في مصابي ... اقتربي مني ... سواء كنت جسماً حياً او روحاً متجلية فانا احبكِ يا مهجتي

ثم انه ترك ايدي فاطمة واستلقى على ظهره غائباً عن الرشاد

اما فاطمة فخرجت من غرفته مشفقةً من ان يقع له واقع سيء العاقبة من جراء شدة الانفعال . ولم يمضِ ردح من الحين حتى استفاق جرج من غيبوبته ولم يذكر من تلك الحادثة سوى صورة فريدة فظن ان ما رآه رؤيا خيالية وقال بنفسه : يا للاسف ان ما رأيته كان حلماً ! ... ثم ان جرج قضى ليلته واليوم التابع بتمام الراحة وزايلته نوب الحمى تماماً واخذ يتدرج الى الصحة والعافية

٩

واذ رأى مراد بك ان جرج قد استبل من علته سأله عن بعض شؤون جرت قبل حدوث الحريق في المكتبة ثم اطلعه بحضرة اندراوس شقيقه على ما كان من امر التركة المختص بها قسم عظيم منها شرعاً

اما جرج فلم يعبأ بما انبأه به مراد بك عن التركة المحكي عنها لما انه زهد في الدنيا وحطامها بعد فقد فريدة التي كان يحسبها موجب السرور وينبوع الهناء في هذا العالم

ثم قال له مراد بك : انني اهتم منذ الان بان اجعلك مالكًا هذه التركة فذلك من حقوقك واعلم انها تبلغ نحوًا من مئة مليون يصيبك واندراوس منها قراب خمسين مليونًا اما القسم الاخر فهو من نصيب غادة البقاع زوجة الامير فريد

على اني ارغب اليك في ان تمهلني مدة ريثما اتمكن من اجراء مقاصد اتخذت في سبيل انجازها ما يلزم من التدابير

— افعل ما تشاء ياسيدي فانا واخي قد سلمنا قيادنا اليك وما اتكالنا بعد الله الاّ عليك . اوما تصدق كلامي يا اندراوس

— كيف لا ومراد بك اصبح صديقًا لنا حميًا

— بل اعزّ من صديق فهو لدينا بعزة الشقيق والحزن قد شدد بيننا عرى الولاء والاخاء واصبحنا في تلك الفاجعة سواء

وعند ذلك نهض الثلاثة وتعانقوا وكان الدمع منهملاً من عيونهم . ثم استأنف مراد بك حديثه فقال :

— اني ارغب اليكما في ان تمهلاني مدة من الحين لعلني اتمكن من ان آتي بما يعود بالفائدة والخير عليكما وعلى غادة البقاع ولاباس اذا ما بقيت هذه التركة مدة اخرى تحت استيلاءي فانما تعلمان شدة اهتمام اولئك الاغنياء الاشرار في الحصول على هذه التركة بذرائع الظلم والغدر والمكر لا تردعهم مخافة الله عن ارتكاب المعاصي ولا توقفهم السنن البشرية عن اتيان المنكرات ولذلك فقد اقدموا على اقتراف اكبر المآثم وافظع الذنوب سعيًا وراء غايتهم الشنيعة : اجل ان الروسه الشقي قد افسد اخلاق الامير فريد فساءت طباعه وخالطه في ارتكاب الذنوب وقد تعددت تلك الجرائم وتكررت تلك المآثم حتى احدثت الخصام وولدت الشقاق فيما بين الاشقياء انفسهم فحلت عرى مودتهم ولا غرو بذلك فان الاتفاق على الشر لا يثبت

واود ان تعلما ان المخاوف والمخاطر كانت تكتنفكما من كل صوب وان اباكما قد قضي شهيد مطامع الروسه الوحش الضاري الذي عمد الى قتل كل وريث بغية ان يظفر وفريد بالتركة كلها فانت يااندراوس قد طعنك الروسه بسهم ادبي كاد ان يذهب بك لو لم تنقذك من الموت عناية الله وحكمة اخيك واخلاص لؤلؤة بمعنى ان خلاصك من الموت كان اعجوبة من بعض الوجوه . وانت ياعزيزي جرجي الم تتذكر تلك الامور الغريبة التي صادفتك منذ عودتك الينا

— اكثر من الايضاح فلم اتدبر معنى كلامك — فما المراد منه

— اريد ان تعلم انك انت ايضاً كنت غرضاً لمطامع ذلك الوحش . . . كغادة البقاع المسكينة وابيها واخيك اندراوس ووالدك المرحوم جميعكم سواء في نظر شرهو واستكلابه واني ازيدك ياجرج علماً ان خصمك الروسه نذل لئيم وهو آفة الانسان وشر الحيوان عدو مخيف لا يقدم فقط على قتل الناس مباشرةً بفعل السلاح بل انه يقتل قتلاً بذرائع خفية اربد بما يحدثه من الهموم والغموم والاكدار كما صنع بك وباخيك اندراوس

فاجابه جرج:

— بي او ما صنع بي ؟

— نعم ان الروسه تمكن من ان يطلع على اسراركما ويستجلي مكنونات صدريكما بما فطر عليه من الدهاء والخداع وان استنصيتما مني عن الذرائع التي بها توصل الى ذلك فاجيبكما انني اجهلها على اني اعلم انه حين ادرك ما فطر عليه اندراوس من دماثة الاخلاق وعزة النفس ولطف الاحساس وتاكد لديه ان الانفعالات النفسانية تقتله لا محالة ولما كان واقفاً على ما بينه وبين لؤلؤة من العلائق الودادية والصلات الطاهرة اجرى ما علمتما من ضروب المكر وصنوف النكاية حتى اصاب اندراوس ذلك المرض العضال الذي كاد ان يفتك بحياته لو لم تتداركه رحمة الرحمن

— فاجاب اندراوس

— اجل لقد نطقت بالحق وفهت بالصواب ،

— اما انت ايها الحبيب جرج فاليك كيف اراد ذلك الشرير ان يفتك بك، فهو قد علم شدة حبك وعظم انعطافك لفقيدتنا فريدة ووقف على ما وقع بيني وبينك في تلك الليلة الشؤمى التي اذكرها وسوف اذكرها العمر بمزيد الانقباض ومنتهى الاسف وعلم انك اقسمت بالمغلظة والمؤكدة انك تعمد الى قتل ذاتك ان لم تعد من سفرك بالغاً من المجد مقاماً سامياً فائزاً بالغاية القصوى من العلوم والمعارف ولما كنت قد عدت للبلاد حائزاً منتهى المرام شرع ذلك اللئيم في ان يرقبك ويستقصي احوالك حتى تمكن من الوقوف على جلية امرك وما بلغت اليه من المعارف والفنون لا سيما اكتشافك الجديد اريد معالجة داء السل العضال . ومن ذلك الحين زين له الشيطان ان يفتك بك ولو لم يكن يخشى العواقب لكان قتلك دون اشكال على ان مقتل والدك المرحوم كاد ان يوقعه في اشد المخاطر فعمد الى اتخاذ ذريعة اخرى تكون عاقبتها اما ان تنتحر بيدك او ان يصيبك مسٌ. وادراكاً لهذه الغاية قد ادخل في خدمتك احد زملائه

الاشرار وهو الذي تسميه سمعان

فقال جرج وقد اخذته هزة الاضطراب

ـ قبحًا لهُ من شرير اثيم ونذل لئيم

ـ اطفىء نار غضبك ياجرج وارجع الى نفسك يا اندراوس سوف ياتي يوم الانتقام وما يوم الله باليوم البعيد وانا اوكد لكما ان القصاص يكون عظيمًا

فقال لهُ جرج:

كيف اتصلت بك جميع هذه الامور ومن حيث انها اتصلت بك أنَّى ابقيت على ذلك الرجل وكيف انه لم يزل حتى الان آمنًا في سربه متمتعًا بالحرية لم يسلم لذوي السلطة يقضون عليه بما يستحق من العقاب

ـ انني وقفت على ما وقفت بوسائل لا يسعني بيانها اما سؤالك عن السبب الذي من اجله لم يزل ذلك الانسان في قيد الحيوة ولِمَ لم يسلم للسلطة فذلك لانه قد اختفى عن العيان بعد فرار القاتل من السجن وتظاهره بالمكيدة التي نصبت لاندراوس اجل لقد اختبأ الروسه على ان مكائده لم تزل تنتصب بدليل ما وقع بك من دسائسه اما السبب الاعظم في كونه لم يزل آمنًا في سربه فهو اننا كنا هذه الاونة المنقضية منهمكين في القيام على المرضى والجرحى وانت تعلم ان اندراوس كان على نوع ما في حالة الاحتضار اما انت ياعزيزي جرج فقد كانت الحمى تشربك وكنت في تلك الحالة قاصدًا ان تنتحر . ثمَّ همت الدموع من عينيه وقال ـ كذلك كنا نهتم بالقيام على مرض فقيدتنا الفريدة التي ذهبت ضحية حبها لك ! وعلى اثر تالك المصيبة كان اهتمامنا منصرفًا اليك ايها العزيز هذا ما اوجب انتظارنا وكان علة صبرنا وزد عليه أن الانسانية تقضي علينا ان ننتظر ايضًا نهاية ايام رجل اضحت انفاسه معدودة وذلك ليس مراعاةً لحرمتهِ بل صونًا لشرف من تنتمي اليوم اليه والرجل الذي اليهِ اشير انما هو الامير فريد فانه أبَّان برازه والروسه قد اصابته طعنة في صدره ظن لاول وهلة انها سليمة العاقبة على انها اثرت تأثيرًا سيئًا على رئته والان قد قطع الامل بشفائهِ وقرر الاطباء انه يموت بعد ايام لا محالة . . . اجل انه يموت شديد الندامة على ما اقترفه واشترك فيه من الجرائم والاثام وقد سألناه وقد اقر لنا بذنوبهِ الكثيرة وسالنا ان نقتص منه ومن زميله الروسه على ان كرم النفس ابى ان نحارب جسمًا يكون عما قليل سجين القبر واليف الحشرات خصوصًا انه يعز علينا ان نجعل غادة البقاع غرضًا لالسنة اولي الاراجيف وعرضة للقال والقيل اما الروسه فلا ينجو ابدًا من يد العدل ومن نقمة الانتقام

مهما طمع بالنجاة وزين له الغرور من قبيل نيل المنى ..... ثم ذكر مراد بك فظائع الروسه ووقف محتدماً غيظاً وقال وكانت عيناهُ ترسلان شهباً اشبه باسهم نارية : لو كانت الجبال تدرك ما اتاهُ هذا الانسان من المنكرات لهبطت عليه لا محالة ...

فقال له جرج :

— رجاءي بك يامولاي ان تطفيء نار غضبك وتتم حديثك

اعلم ايها العزيز ان الروسه هو شرُّ الجبلة يرتكب الجرائم بل يحدث المصائب بمنتهي التحفظ ومزيد الدراية بمعنى انه ينال غايته المقصودة منه دون ان يلطخ ذاته باوزار جرائمه . فهو قد التصق بالامير فريد وكان ينجو مما كان يعزى اليه بقوة ما كان للامير من النفوذ وعلو المكانة

فضلاً عن كونه لم يكن يقترف الذنوب مباشرة بذاته بل على الغالب بذريعة غيره ولذلك لم يكن من السهل اثبات الجرم عليه . وقد كان من المحتمل ان توجه عليه الشبهة يوم ألقي القبض على زينو ومعه القتيل بيد ان الروسه تمكن من تنجية الاول وانتشال الثاني واخفائه دون ان يعلم بذلك احد وبهذا التدبير لم يجنح الشقي ولم تتجه التهمة عليه .... سالتني عما الجانا الى ان نرجيء الشكاية على هذا الانسان ولكن اين المجمع والادلة التي لديا تثبت ذنوبه . ـ انشكوه من اجل انتشال غادة البقاع وازفافها كرهاً الى الامير فريد . ان الروسه لم يتظاهر البتة باتيانه هذه المنكرات ولو اقدمنا على ذلك بداءة بدء على حين كان الامير فريد ضدنا لخشي ان يقوى الامير علينا بماله من سمو المقام ونفوذ الكلمة فضلاً عن انه كان بامكانه ان يدعي جنون زوجته فيحجر على غادة البقاع بحجة ان بها مسّاً . اوَنشكوه من اجل اختفاء بولس البقاعي فما للروسه بالامر يدٌ ظاهرة وان عزينا اليه محاولته اغتيال اندراوس فيرد شكايتنا بقوله انه حرٌ بزوجته وان ما اتاه كان من قبيل الدفاع عن عرضه . وان شكوناه انه حاول اهلاكك ياعزيزي جرج وان نتيجة تصرفه بحقك كان من شانها ان انهكتك الاسقام وانزلت بنا واسفاه مصيبة مزقت الضلوع وحسرة لا تزول من الفؤاد طول العمر فمن اين لنا ان نثبت ذلك فضلاً عن كون اثباته لا يعتبر في نظر القانون وكذا قل بشأن مقتل والدك المرحوم ومقتل المسكين نسيب الذي قضي نحبه اذ كان بسوق العربة ـ كل هذه الجرائم قد حدثت باشارة الروسه وتدبيره ولكن ليس لدينا ما يثبتها . لذلك تراني ارقب الحوادث منتظراً ان تساعدني الظروف لآتي عليه

يدًا ثقيلة ويليق بكما يا عزيزيَّ ان تركنا الى الصبر وتطمئننا الى ما نتخذه من التدابير وثقا ان الله عادل ينظر الى اعمال البشر بعناية سامية واذا ما كان يسمح بوقوع بعض الحوادث التي نراها مكدرة فاعلما ان له بذلك حكمة نقف عندها الافهام وتتقاصر عنها المدارك البشرية . واذا ما وجدنا انه يصرف النظر حينًا من الدهر عن غواية الاشرار فما ذلك الّا لكي ينزل عليهم فيما بعد صواعق الغضب والانتقام

وازيدكما اني وفقت الان للوقوف على ادلة اتمكن معها ان انيل الروسه شرّ العقاب بقوة الحكومة السنية على اني ارى من الحزم والحلم ان انتظر مدة اخرى . فالامير فريد اصبح من حزبنا وهو شاهد عليه بكل هذه الجرائم والآثام على اني ابيت العجلة مراعاة لذلك الامير السيء البخت رغبة مني في ان يقضي ايامه القليلة او يتم انفاسه المعدودة دون ان يتجشم مصائب واكدارًا تزيد عيشه مرارة ولئن كان قد طلب اليَّ ان يسلم ذاته معترفًا بذنوبه ومقرًّا بما ارتكب والروسه من المعاصي على ان الانسانية تصدني عن متابعته وهو بالحالة التي ذكرت بل انه عاهدني على انه يكتب قرارًا مسهبًا يبين فيه ما يعلمه من فظائع الروسه وذلك يكون بمثابة شهادة رسمية يسجل امضاءه فيها ولا نستعملها الّا بعد وفاته ومن المقرر ان حياة الامير اصبحت قصيرة فان الاطباء قد اعلنوا قرب اجله ولدى ذلك نرفع الامر للحكومة السنية ونقدم ما لدينا من الادلة وما سوف نكتشف عليه من المحررات التي تؤيد دعوانا على الروسه فينال جزاءه بمقتضى العدالة

وكان جرج واندراوس يتدبران كلام مراد بك بمنتهى الانتباه وبعد فترة استتبع مراد بك كلامه فقال :

لقد ذكرت لك ياجرج ان الروسه اوفد عليك آن وصولك رجلاً يطلب القيام بخدمتك وهذا الرجل انما هو من خدمه وعماله قد قام بما عهد به سيده اليه فرقب امورك كلها ولما ادرك انك تعد للخامس والعشرين من ايار عملاً يتعلق به امر حياتك وثبت لديه انك ان لم تفز بمرامك مزمع على الانتحار شرع يترقب سائر ما كنت تبديه وتجريه ولما مكنته الحال بادر لسرقة محرراتك ومؤلفاتك ولكي يزيل من بالك ما يوجب القاء الشبهة عليه اضرم النار في مكتبتك على حين كنت راقدًا فاحترقت اوراقك الثمينة . بيد ان هذه المحررات ولئن كان قد ظن انها احترقت على انها لم تزل موجودة ـــــ اما انت فقد عدت عقيب ذلك للعمل بمزيد الهمة ومنتهى النشاط قصد ان تجدد تاليف ما اكلته النار . . . . على

ان الوقت كان قد فات وقضي الامر . . اذ ان الدكتور سليبنا احد زملائك بالطب وهو ولا ريب من عملة الروسة اذاع أكتشافك وإنتحله لنفسهِ . . . . . . اما انتِ فلم نقوَ على احتمال هذا الفشل وظننت ان سليبنا سبقك لذلك الاكتشاف وإن كدك وجدك ذهبا ادراج الرياح ومن عظم بأسك وشدة قنوطك اصابتك حمى تشربتك وتاكلت لحمك . اما خادمك سمعان فانهُ قد فرّ من لدنك تاركًا خدمتك . . . وما ذلك الاّ لانهُ كان قد اتمّ ما عهد به اليهُ وانجز الاعمال التي فوضت اليه فلم يبقَ له عندك حاجة يقضيها . . . . . ولكنّ الدهر لم يحقق لالروسه املاً اذان الله لم يقضِ بهلاكك فاصابتك تلك الحمى وكانت خيرًا لك لانها حالت دون اتمام بغيتك فلم تتمكن من الانتحار

اوضح لك الان مقدرة ذلك اللئيم على الفتك بالبشر او ادركت الذرائع التي تقذها لادراك امنيتهِ دون ان يكون غرضًا لتوجيه الشبهة عليه او تحققت كيف انك كدت ان تذهب فريسة مطامعه

وكان جرج صاغيًا بمزيد الانتباه ولما ذكر مراد بك اسم سمعان تنهد ومرّ بخاطره قول فريدة لهُ عن سمعان اي انه « نحس من النحوس . واشأم من البسوس . . . . وان على وجههِ سيماء الشر » وذكر خصوصًا ان فريدة عندما رأت سمعان المرة الاولى اشارت بيدها كانما هي تدفع من امامها صورة مكدرة

اجل لقد صدقت فريدة فان المصيبة قد نزلت وانشبت فيها اظفارها

ثمّ اختتم مراد بك كلامه بقولهِ:

انما تعلمان الان ان ما يدعوني لتأجيل تسليمكما الثروة امران اولهما رغبتي في عدم جلب الحزن على قلب الامير فريد وهو في حالة تنذر بالخطر القريب والثاني كوني انتظر الحصول على ادلة قاطعة تمكني من البطش بالروسه بقوة الحكومة . وهذا الشرير قد اذاع انه زايل هذه البلاد على اني تحققت انه لم يزل في ثغرنا فان رجالي ما فتئوا يترصدونه في سائر الطرقات وفرض السفر واني احسبهُ منذ الان تحت حوزتي وفي قبضة يدي ولا ريب عندي انه سينال جزاء ما جنت يداه . الله اكبر !

﴿ ١٠ ﴾

لم ينسَ القارىء الكريم ان جرج كان في حالة النقه ولذلك قد شعر بتعب في

اثر هذه الجلسة وقد تأثرت مخيلته مما سمعه فيها من البيان الذي في بستان الحوادث المتقدم ذكرها فتركه مراد بك وشقيقه ادراوس رغبة منهما في ان يأنس جرج الراحة بالانفراد وقد ظل ليله كله مضطرباً بذكرى الاحاديث التي جرت بينه وبين مراد بك .

ولما كان الصباح اقبلت عليه تلك الفتاة التي كان يظن من قبل انها شبح تجلى له في الرؤيا . اما في ذلك اليوم فكان قد تماثل وسرى دم القوة والنشاط في عروقه فلما وفدت عليه ادرك للحال ان تلك الفتاة لا يمكن ان تكون خطيبته فريدة بالذات لما ان تلك المأسوف عليها كانت قد اتمت انفاسها المعدودة وهي بين يديه فكان من المستحيل ان تكون قد بعثت حية على انه ذكر ما كانت توردهُ عليه فريدة اثناء حديثها من تمام المشابهة بينها وبين شقيقتها فاطمة كما لو انهما كانتا ذاتاً واحدة خلقاً وخلقاً فادرك اذ ذاك ان تلك الفتاة لم تكن فريدة بل شقيقتها وقال لها للحال

— انت فاطمة

اما هي فابتسمت قائلة

— بل انا فريدة التي تحبك وتحبها

وكان في تلك الجملة وتلك الموازنة والمكافأة شيء من اللطف الساحر يعجز الوصف عن بيانه

اما جرج فاطرق عينيه جامعاً شتات تصوراته ثم كرر قائلاً

بل انتِ فاطمة على انك لا تنقصين جمالاً ولطفاً عن فريدة . . . . واني اشكر لكِ اعطاءك لي واقبالك عليّ قصد تعزيتي بمرأى وجهكِ الوضاح فانك قد وصلت بذلك ما انقطع من نظام حياتي واعدتني الى الرشاد . . . . الشكر لكِ يا فاطمة فانك باحسانك هذا اليّ قد اجبت داعي الشفقة والحنان وذلك من اسمى عواطف الانسان — ولكن يا اسفاهُ ليتني فقدت الحيوة او حرمت الذكرى

اما فاطمة فقد ذكرت ان من اهم فروضها القيام بما تقدمت به اليها شقيقتها الفريدة قبيل مماتها لذلك رأت ان تستمر برهةً تواربه في الامر فقالت له

— وما رأيك فيما لو انبئت لك اني فريدة بالذات

— انت فاطمة بلا اشكال . . . انتِ صورة فريدة . . . صورتها الحية . . . . متى اشبه بها من الماء بالماء انتما مثلان بل روحان في جسم واحد او جسمان يحويان

روحاً واحداً . تبارك من براكما على احسن صورة واجمل خلق .. ولكن ...

— ولكنك ترغب في ان اتيك بدليل .

— اجل وما برهانك على كونك فريدة . او يمكن ان تكوني فريدة طالما انت فاطمه

فتبسمت فاطمة بلطف وقالت :

— اليس ان صورتي وشكلي ولهجتي ولحظي ولفظي ومبسمي وكلها لي يشبه فريدة ...

— ذلك ما لا ريب فيه

— افتح عينيك واشخص فيّ متفرساً .. . اما انت ناظر الى فريدة ثم اغمضهما وكن صاغياً الى لهجتي بمزيد الانتباه .. . أما انت سامع لهجة فريدة و رنة صوتها .

فقلق جرج واخذته الحيرة والتردد وشرع يتكلم همساً مردداً هذه الكلمات «احقيق ان هذه فريده ... لالا هذه فاطمة — لا لا بل فريده ... يالله افريدة هذه ام فاطمة ؟ »

ولولم يكن ذكر اسم فريدة يثير في فؤاد شقيقتها عواطف الاحزان لكانت قهقهت في ضحكها من جراء تردد جرج وحيرته على انها امسكت برهة عن الكلام ثم قالت له

— اليس ان عواطف فؤادك تنطبق على ما يرشدك اليه صوابك .... اليس ان عواطفك تميل اليّ . اليس ان جوارحك ترغب في ان اكون تلك التي احببتها ولم تزل تردد اسمها بين شفتيك ؟

فاجاب جرج وكان صوتهُ يتهدج بالبكاء :

— اه يافريده ! ... اه يافاطمة ! ...

انه يصعب احياناً على الواصف ان يصور العواطف والمعاني باساليب الكلام والمباني كما انهُ يصعب علينا الان وصف ما كان يختلج في صدر جرج من العواطف لدى ذكر هذين الاسمين فعندما كان يلفظ اسم « فريده » كانت عواطف حبه تتجه بوقت واحد نحو الفتاة التي قضى نحبها بين ذراعيه ونحو تلك التي كانت تخاطبهُ في تلك الساعة ولدى ذكره اسم « فاطمة » كان يشعر بالاضطراب ذاته كما لو انهُ اسمٌ الاثنتين وجمعت بينهُ وبين كلتيهما على السواء كهربائية الودّ والولاء

ولا مناص من ان نبث القاريء في هذا المقام سرًّا لم يزل حتى الان مكنوناً وهو ان فريدة وفاطمة لم تكونا فقط متشابهتين خلقاً وخلقاً بل ان عواطفهما كانت

متماثلة مشتركة بمعنى ان ما كان يروق الواحدة كان يحسن ايضاً في نظر الاخرى وما كانت تنفر منه فريده كانت تكرهه فاطمة . ولما نظرت فريدة جرج المرة الاولى علقته واذ كانت تودّ شقيقتها باخلاص لا تمازجه الانانية والحسد كاشفتها بامرها وسالتها ان تنظر الى حبيبها ففعلت وحدث لها ماحدث لفريدة وهكذا قد مالت كلتا الشقيقتين اليه وذابتا اذا ما غاب حيناً اليه وفي بعض الاحيان كانت تبدو فاطمة امام جرج تبادله كلمات الولاء تخالها فريدة وكانت كلٌّ من الشقيقتين تكاشف الاخرى بما كان يجري بينها وبين جرج من الاحاديث والحوادث

ولهذا السبب بينما كان جرج لم يزل متردداً في امره شرعت فاطمة في ان تقص عليه وقائع الحب وتبثه اسرار الود التي جرت بينهُ وبين فريدة منذ اول يوم التقى بها حتى نهاية حوتها من مثل المطارحات الوداذية ومبادلات العواطف الحبيبة واقسام الامانة والبقاء على العهد ثم انها قد ذكرتهُ كيف انها (هي فريدة) قد رأتهُ ورأها المرة الاولى وكان ذلك ساعة الشفق وانها في تلك العشية نفسها قد اصيبت بمرض اكسف بال اخيها مراد بك فاستدعى للحال طبيباً وان ذلك الطبيب كان هو جرج بذاته وانه بهذه الوسيلة تمكن من ان ينظر وجه فريدة الذي لم يكن احد نظر اليه من قبل سوى شقيقها مراد وانهُ منذ تلك الدقيقة اضطرب فواد كل منهما وتواثقا بعهود الحب والولاء

وفي اثناء الكلام كانت فاطمة تعزي اليها تلك الامور التي جرت لفريدة وما برحت تقصُّ عليه بصوت منخفض تلك الحوادث التي كان جرج يظن ان معرفتها منحصرة بينهُ وبين الفقيدة الى ان قالت له : انا فريدة من غيري يستطيع ان يعلم هذه الامور التي جرت بيننا . من يعلم غيرنا اني كنت في اكثر الليالي انتهز بعض الفرص واوافيك الى حديقة النصر التي كنت تدخلها من الباب الصغير

ومن غيرنا يعلم بتلك الساعات السعيدة التي قضيناها معاً نتجاذب اطراف الحديث ونبث مكنونات الصدور ونجهر بما يخالج الضمير . — او تذكر تلك الاوقات الصافية والليالي المقمرة التي كنا نصرفها سائرين بين ازاهر الحديقة طلباً للنزهة وكل منا ينظر الى الآخر نظر السرور والغبطة وكيف ان سروري كان يتخلله الخوف وانك كنت تسكن روعي بابتسامك اللطيف — وتلك الليالي الاخرى التي اذ لم نستطع بها للمقابلة سبيلاً كنا نتبادل الرسائل . . . . ياعزيزي جرج ان رسائلك كانت تفعم فوادي سروراً . . . . اجل كنت اتلوها بمزيد الرغبة منفردة وحدي في غرفتي بعيدة

عن كل ناظر وكنت اكرهها بدون ملل — او لم يمر بخاطرك ذكرى تلك الازاهر التي كنا نتراسلها ونتهاديها رموزًا تشير الى العواطف الودية . وهل تذكر الامطار التي فاجأتنا ليلة اذ كنا في الحديقة فنجأت الى احدى غرف القصر وكاد ازوب الخادم ان يكتشف عليك ... يا لعظم الخوف الذي حلّ بي اذ ذاك فقد كتمت امرك وحاولت جهدي ان ادفع كل مظنة بوجودك لان ازوب او ظفر بك لقتلك لا محالة ظنًا منه انك لص راغب في سلب القصر وقتل سكانه

فعندئذٍ قال جرج بنفسهِ :

يا للعجب ان كلما فاهت به هذه الفتاة واقعي لا ريب فيه ولا يعلم به غير فريدة — أهذه فريدتي .... او هي فاطمة .... او اني عاشقت كلتيهما على غير علم مني دون ان اميز الواحدة عن الاخرى على حين كانت تقابلاني مناوبة لتأكدهما ان قلبي يميل اليهما على السواء

وبعد فترة اسفاً نفت فاطمة الكلام وقالت له

او تذكر ايضًا يا جرج تلك الليلة التي بها كاد اخي يرانا في الحديقة ويقف على جلية الامر اذ قد منعه الارق ذلك الليل من الرقاد وشرع على اثر ذلك يتمشى في الحديقة فدنا منا وكان على وشك ان يمر بنا فانتبهنا بغتةً ثم اختفينا وراء الوردة الكبيرة فلم يتمكن من ان يرانا ..... يا لعظم ما حلّ بي من الاضطراب تلك الساعة فمن جرائهِ قد مرضت في اليوم الثاني واذ قد تحققت عدم تمكني من مقابلتك الليلة التالية كتبت اليك بالنهار رسالة ووضعتها في الحديقة .... قرب الشجرة .. حيث كنا نجتمع ... ومنذ ذلك الحين ابتدات الحوادث والمصائب بان تحدث عاينا وجعلتنا النوائب غرضًا لها

وهنا امسكت فاطمة عن الكلام وتنهدت تكرارًا ثم قالت :

والآن يا جرج من تظنني فريدة او فاطمة !

فاجابها وكادت تخنقهُ الحسرات اذ كانت فاطمة تسرد عليه تلك الحوادث

— تمِّمي الحديث .... تكلمي ....

— اجل منذ تلك الليلة نكبتنا النكب ودهمتنا الامور لان تلك الرسالة قد انتهت الى اخي ولا اعلم كيف تمَّ ذلك ..... ولا ريب عندي ان الصدفة احدثت الامر فكان باعثًا لريبة اخي بنا فشرع ان يترقبنا ويترصدنا حتى انه وجدك مرة في الحديقة وانت اعلم بما جرى بينكما وكيف ان الزراق قد مزق ضلوعنا في اثر تلك المقابلة

فبعدت بيننا الدار ونزلت بنا الاكدار

وهنا تخذت فاطمة لهجة رمزية واتمت الحديث قائلة

— وانت تذكر ياجرج اني قلت لك في تلك السنة اثناء مقابلة جرت بيني وبينك في منزلكم «انهُ لم يمرّ بي يوم دون ان اتكلم وفاطمه .... بشانك ..... وان فاطمة .... عالمة باسرار قلبي ومكنونات صدري .. وانها تحيا بي كما اني احيا بها ويغتذي قلبي بحبها .... واننا مشتركتان بالعواطف نتقاسم ونتبادل الافراح والاحزان والامال والاكدار .... وان ما تكرههُ فريدة كرهته فاطمة وما تحبه فريدة احبتهُ فاطمة ايضاً .... وان ليس لكل منا عواطف خاصة بها بل ان عواطفنا تنصرف دائماً نحو وجهة واحدة »... هل ... فهمت ... الان ... ياجرج؟

— نعم افهم ... نعم فهمت ... واني لك من الشاكرين

وقد اراد جرج بذلك انهُ ادرك انها فاطمة وانها تحبهُ كما احبتهُ فريدة لما بين الشقيقتين من تمام المشابهة خلقاً وخلقاً وبناءً على ما مرَّ بك وانهُ تدبر كون فاطمة لشدة حبها لشقيقتها قد رغبت في ان تتنعم فريدة وحدها بزفافها الى جرج — وانهُ فهم ان بعد وفاة فريدة قد ارتضت فاطمة بان يستمر جرج على حب الفقيدة بحب الباقية ... وانها اقدمت على الامر دون ان يمازج عواطفها الطاهرة شيء من الحسد او الامتعاض والكدر بل قياماً بعهودها وعملاً بوصية شقيقتها الفقيدة

ويعلم القارىء ان فريدة قد ماتت بسلام آملة انها ستحيا حياةً جديدة بشخص فاطمة ... اجل ولقد حفظت فاطمة العهد دون ان تبدي ما يخالف ميلها الطبيعي لانها فضلاً عن وصية شقيقتها قد اجابت داعي حبها لجرج وهو حبٌ تولد في فؤادها منذ امدٍ مديد

ولم تزل فاطمة تقص على جرج ما جرى من الحوادث الماضية حتى انه تحقق ما كان بين الشقيقتين من مبادلة الافكار والاراء والعواطف

وقد تكررت المقابلات والمذاكرت والمطارحات بينهما مدة ايام كثيرة حتى ان فاطمة اصبحت في نظر جرج كفريدة واعتاد مراها في كل صباح ولم يكن يصبر على فراقها واخذ في اثر المقابلة الاولى يتدرج نحو الصحة والعافية وكان فؤاده يزيد انعطافاً لفاطمة ولم يكن يرى بهذا الحب الجديد مقاومة للحب القديم او تناسياً لعهود تلك التي فقدت بل كان حبهُ لفاطمة عبارة عن تتمة طبيعية لحبهِ الاول ولا ريب ان ذلك كان داعياً لسرعة شفائه من الداء

وصباح احد الايام قد جرى بين فاطمة وجرج مقابلة ذات شان على قصر مدتها ولما كان جرج راغباً في ان يجعل قراراً لاماله قال لها:

— فاطمة انا احبكِ واحب لك فريدتنا الحبيبة فهل انك ترين بحبي على هذه الصورة حسيئة لشانك او غضاضة من مقامك. فهزت برأسها وبدت سيماء الحزن والكآبة على وجهها ثم اجابته بقولها:

كلاّ. او كيف خطر لك اني ارى بحبك على هذه الصورة غضاضة من شاني الم اقل لك انني فريدة وفاطمة

— وعليه يا فاطمة هل تقبلين حبي على علاّته

— او لم اسألك الحب على هذه الصورة

— اجل. على انك بذلك قد اذعنت لارادة فقيدتنا ولعلك تاتين امراً تنفرين منه لعدم موافقته لعواطفك واني وايم الحق بعيد عما يسبب لك الامتعاض فرجاءي ان تجيبيني عن مطلق حرية ولذلك اني اسالك ايضاً... كما سالت يوماً تلك الفقيدة المأسوف عليها... فاطمة... اتحبيني وتودين ان تكوني لي زوجة..... التمس ان تتعطفي بالجواب.... سامحيني اني لم احسن الخطاب فالاجدر بي ان اسالك قائلاً. فاطمة. عزيزتي فاطمة أتظنين انكِ تتمكنين من ان تجيبيني بعد مضي بضعة ايام؟

اما فاطمة فامسكت عن الجواب وعلت الحمرة وجنتيها

اكان ذلك منها خجلاً واستحياء ام انها ذكرت فريدتها الفقيدة ام هي عزة النفس ابت ان تقبل عواطف الحب صادرة من فواد لم يزل معلقاً بحب غيرها ؟ ذلك سرٌّ غامض لا يدريه الا من كانت عواطفه تحاكي عواطف فاطمة شرفاً واخلاصاً..

اما جرج فاعاد عليها السوال بمنتهى اللطف وغاية الرقة وسالها ان تتفضل الخطاب بالجواب الشافي واذ رآها مترددة تتعاقب على وجهها سيماء الاضطراب والخجل قال لها

— اراكِ في حيرةٍ وارتباك فهل انيت عن غير قصدٍ امراً يكدرك ؟

— كلاّ يا صاح... بل كنت اذكر تلك التي يخال لي انها تسمعنا دون ان نتمكن من مشاهدتها...

ثم دمعت... وبعد ذلك قالت:

— إنك لم تكدرني قط بكلامك واود ان اجيبك جلياً وصريحاً....

كلاَّ ياجرج ليس في وسعي ان احبك فيما بعد . . .

اما هو فلدى استماعه هذا الجواب علا وجهه الاصفرار وخفق فؤاده الجريح وبدت في عينيه العبرات وكادت تخنقه الحسرات . اما هي فنظرت اليه للحال متبسمة ابتساماً كان بمثابة بلسم يشفي كلوم فؤاده وقالت له :

قلت لك ياجرج انني لا استطيع ان احبك فيما بعد . . . . فقال لها بذاهب الصبر :

— وما السبب ؟

— السبب في ذلك انني احبك من زمن مديد و بلغت محبتك في فؤادي درجة لا استطيع معها ان احبك فيما بعد . . . اكثر مما احببتك . افهمت الان . ثم جعلت اصبعها على فمها اشارة الى انها لا تود ان يقاطع حديثها فاستأنفت القول :

— اجل اني احبك ياجرج من زمن مديد . . . منذ احببت فريدة . . . منذ رايتك المرة الاولى . اما انت فلم تكن قادراً ان تنظر الى تاثري الظاهر لما ان القناع كان يحجب وجهي عنك . وقد حدث لي اني قابلتك مراراً وكنت تخالني فريدة وتخاطبني باسم فريدة دون ان تنظر الى ماء الحب المندفع من عيني . . . اجل ان حبك تملك في فؤادي منذ امد مديد ياجرج ولذلك فانا لا استطيع ان احبك في مستقبل الايام اكثر مما احبك الان ومنذ ردح من الحين

وقد كنت في باديء الامر حزينة حيث لم يكن لي رجاء على ان فؤادي كان خالياً من عواطف الحسد على حين كانت سعادة شقيقتي داعية اشقائي اما هي فكانت تلطف آلامي وتطلعني على ما كان يجري بينكما من الحوادث حتى اني صرت اخيراً اهتم بامرك دون حسد كما لو ان المحبوبة منك كانت فاطمة وليس فريدة . . ومع كل ذلك فكثيراً ما كنت اتجنب مقابلتك مخافة ان يفارقني عزمي فلا اقوى على تسكين حركات فؤادي

وبعد اذ اطلعته على مكنونات فؤادها احتشمت الكلام بقولها : انت قد احببت فريدة ولما كنت مشابهة لها مشابهة تامة بمعنى انك لم تستطع ان تميز الواحدة عن الاخرى فيكون قد اتجه قسم من حبك اليَّ بدون اشكال وعليه فاني كنت اقاسم فريدة فرحها ومسرتها

وقد مرت ايام على تلك المقابلة تجددت في خلالها المكاشفات الودية وتم الرضى والقبول بينهما فاطلعا مراد بك على عزمها وقد رضي مع السرور بمنح فاطمة الى جرج

اما جرج فلم يكن يعتبر ان حبهُ لفاطمة ينقص شيئًا من امانتهِ لفريدة لانهُ اعتقد الاستمرار على حبها بشخص فاطمة

وكذا فاطمة فانها لم ترَ بحبها جرج والاقتران بهِ شيئًا من الغضاضة من شأن شقيقتها الفقيدة وهي وان كانت تلبي بذلك داعي فؤادها الا انها مع ذلك كانت تقوم بتنفيذ ما اوصتها بهِ شقيقتها اذ كانت على فراش المنون وهكذا بقي الولاء بين الشقيقتين في الحياة وبعد الممات

﴿ انتهى الفصل الثالث ﴾

(في ولاء الشقيقين والشقيقتين)

(ويليهِ الفصل الرابع في قصاص الاشرار)

﴿ الفصل الرابع ﴾

(في قصاص الاشرار)

﴿ ١ ﴾

ما برح الامير فريد في اثر واقع البراز الذي جرى بينهُ وبين الروسه يتقلب على مهاد الاوجاع فان الحمى قد تخونت جسمهُ وتآكلت لحمهُ حتى غادرتهُ نحيفًا هزيلاً لا يعي شيئًا فسهم لونهُ وبانت عليهِ نهكة المرض والطبيب بعوده مستنفدًا عنايتهُ في سبيل انقاذهِ من خطر الداء بيد ان مساعيه كانت تذهب ادراج الرياح

اما الروسه فانه ولئن كان اثر ذلك البراز قد اختفى عن العيان على انهُ كان يستقصي سرًا عن حالة الامير فريد ويترصد الاخبار عنه ويتنسمها ولما علم انه لم يزل للامير من الحياة نصيب مع ان داءهُ عياءٌ يعقبهُ المنون لا محالة رأى ان يحاول اتمام ما شرع به من نصب المكائد قصد الفتك بالعائلة الاباوية . ويذكر القارىء اللبيب ان الروسة ادرك قسمًا من المرام باستهوائهِ الخادم سمعان وحمله على اجراء مقاصده على انه لم يفز بجل المنى ونهاية المرام اذ ان اندراوس وجرجس ما برحا حيين يرزقان وهو لذلك عزم ان يطالب الامير فريد بما خصه من الارث مجتزئًا عن الكل بالبعض على انه اكدى ايضًا في هذه الحاجة ورد بالخيبة لان الامير فريد نكس بعد اذ كان اخذ في البلول والنكسة شر من الداء اذ ان العلة تمكنت منه اشد تمكين واصبح الى المنون ادنى من قوسي قاب . فعلم الروسه ان كوكب سعدهِ قد افل وطالع توفيقهِ قد اجفل . وان الدهر انحرف عن محالفتهِ ومماشاتهِ . وعمل الى نكايتهِ ومعاكستهِ فدار في خلدهِ ان الانسب له مزايلة البلاد مخافة القصاص فصار يرقب سنوح الفرصة الملائمة واعد ما لديه من المال والسحت

اما مراد بك فلم تكن انظارهُ منصرفة عن تأثر الروسة وارصد له نفرًا من خدمه الامناء في جملتهم لهمان وشجعان وحبيب يرقبون حركاته وسكناته على ان النوازل التي المت بعائلتهِ قد حالت برهةً دون اتمام البغية

وكانت غادة البقاع اذ رأت الامير فريدًا على تلك الحالة من الوهن يتقلب على مهاد الاوجاع اخذتها الشفقة عليه فاحسنت القيام عليهِ في مرضهِ اجابة لداعي الرحمة حاسبة انها احدى راهبات المحبة اللواتي وقفنَ النفس لخدمة المرضى لوجه الله الكريم وقيامًا بالوصية

ابريد ان الغادة لم تمرض الامير من حيث هو بعلها بل اجابة لصوت الانسانية الآمرة بتخفيف الام المصابين وهي لذلك قد استدعت طبيباً كهلاً من مهرة اطباء المدينة فكان يواظب على معالجته ويلطف اوجاعه مع علمه ان موته قريب لا بد منه ولئن بدت عليه برهةً ملامح الصحة ومخايل البلول

وحدث يوماً ان الامير فريد قد استفاق من الغيبوبة وزايله البحران وتلطفت الحمى فوجد نفسه ضيق الصدر عسير التنفس ضئيلاً عجيفًا انهكه الداء وتآكل لحمه ثم نظر الى ما حوله فوجد على مقربة من سريره امرأة يزيدها الاخلاص جمالاً والرزانة هيبة ووقاراً ولما تفرس فيهـا مليًا عرف انها غادة البقاع زوجته فقال لها : طوباكِ من امرأة فاضلة شعارها الكمال ورايتها الفضيلة . الشكر لكِ على ما ابديته نحوي الشكر لكِ لان الشفقة ما برحت تسير في ضلوعكِ وتدفعكِ الى الاحسان الى رجلٍ شرير مثلي . عسى ان تكوني ياغادة البقاع قد تناسيتِ آثامي وجريت الذيل على ما اتيتهُ من الامور المنكرة

اما غادة البقاع التي كانت متمرسة بجانب السرير وتبذل نحوهُ العناية والاهتمام فقد حفظت الصمت ولم تفه ببنت شفة . حينئذٍ اتبع فريد الكلام وقال اني اموت يا غادة البقاع وانا الذي سعى على حتفي بظلفي . . . واري انكِ لا تجدي في الحيوة رغدًا ولا في الكون سعدًا الاّ بعد ان ينصرم نظام ايامي واصبح ضجيع التراب فعليك ان تصبري برهة وتنتظري اياماً معدودة فما يوم موتي باليوم البعيد

فلم تجب الغادة على هذا الكلام ايضًا بل كانت تنظر اليهِ نظرةً تشف عن الامتعاض من اعماله السابقة والتوجع على حالتهِ الحاضرة . ومما كان يمرّ على خاطرها ان هذا الانسان مع ما اقترفه من المعاصي والذنوب ما برح يضم فؤادًا يحبها ويميل اليها كل الميل . . . . . وانهُ قد انقذ حياة والدها من الهلاك . . . . وهي مع كرهها له ونظرها بعين الباصرة الى ما الحق بها من الشرّ كانت تتمنى ان يتمتع بالصحة وتعاوده عناصر الحياة ولئن كانت حياتهُ مما يجلب لها الشقاء ويجرعها غصص الاحزان . ولذلك فانها وان كانت لا تستطيع الى شفائهِ سبيلاً لما ان الاطبـاء اعلنوا ان الداء عياء يذهب دون ريب بحياة الامير كانت تستنفد الوسع لتلطيف اوجاعه منقطعة للقيام عليه في مرضه

ويشهد الحق انها منذ رأته مقبلاً الى القصر مضرجًا بالدماء في اثر البراز ظهر انها قد تناست معايبهُ وسيئاته وارخت حجابًا كثيفًا على ما كسر به ذرعها من دواعي الحزن والامتعاض حتى انها لم تنظر فيهِ الرجل الاثيم الذي كان علة مصائبها بل كانت تنظر بعين

مجردة من الغرض اوجاعه نفدأب في تلطيفها وازالتها بما تصل اليه يدها من الذرائع المؤ كاقا هي ارادت بذلك مكافأته على ما اتاه من صنع الجميل بانقاذه والدها من مخالب الروسة ذهابًا الى ان ما جزاء الاحسان الا الاحسان . — على انها لم تكن تبدي نحو فريد ملائم الحب مشيرة بذلك الى انها مدفوعة الى خدمته بداعي الوفاء وليس بداعي الولاء اما الامير فاذ رأى ما كان من اخلاصها له وعنايتها به وهم انها قد محت سواد ذنوبه وان نار حبه لما قد سرت الى فؤادها فاضرمته وظن ان الامة المبرحة قد قرعت باب قلبها فاثر به ومما كان يدعم ظنه اعتقاده ان الحب انما ينشاء عن الحب وان الغرام نار موججة تتطاير منها شرارة تتصل بما حولها فتضرمه فيصير شعلة مثلها

ولما فارقت الحمى الامير فريدًا اخذ يرقب ملامح غادة البقاع التي كانت تعودهُ يوميًا قائمة على مقربة وكان يتفرس في ذلك الوجه اللطيف الذي ارتسمت عليه ايات الجمال تزينه الفضيلة على انه كلما نظر الى ذلك الوجه بعين الحب كان يخال له انه يضمحل من امامه وكانما هو الرؤيا تظهر ثم تزول

وبقي الامير يتقدم في معارج العافية برهةً من الحين حتى انه صار قادرًا على ان ينهض من سريره بعض الاحيان ويسير خطوات داخل غرفته على انه كان يشعر ان عواطف الحب كانت تتمكن من فؤاده باتجاهه نحو العافية فقال يومًا لغادة البقاع :

— اني اعجز وايم الله عن القيام بشكرك لما بذلته نحوي من امارات الوداد وجميل الاعتناء

— انني لم افعل ما فعلت الا اجابة لداعي الوفاء ولما كنت قد انقذت والدي من الهلاك ترتب عليّ ان احسن القيام عليك بمرضك . اما الان وقد اخذت تسير في سبيل الشفاء فانني اتركك رغبة مني في ان اقيم مع والدي في المقصورة التي اعددناها له قصد الا يعلم بها الروسة ، ان نفسي تسكن الى الاقامة معه لما انه مضطر للتحجب عن العيان ولئن كان امرءٌ ما ربح طيّ الخفاء على انه سيبقى في حالة الاسر هذه الى ان يقيض الله لنا الفرج

— هل لك يا غادة البقاع ان تستجيبي ملتمسي وتستمري على ما عودتنيه من الاحسان باقامتك في غرفتي

— وما الحاجة لذلك فانك قد صرت من الصحة الى حال لا تستوجب خدمتي واعتنائي

— رجوتك يا غادة البقاع ان تزيلي ترددي وتذهبي عن خاطري الريبة والشك

لقد جال في فكري ان فؤادكِ يعطف اليّ بما رايته على وجهكِ من ملامح الشفقة والحنان

فاجابته غادة البقاع وكان وجهها يسفر عن الانقباض :

— لقد اخطأت ظنًا ايها الامير وما ذهب اليه تصورك ان هو الاّ عن وهم بحت

— اذًا ما دفعك لخدمتي بغيرة فريدة واهتمام منقطع النظير . حرستني ياغادة البقاع اذ كنت طريح مهاد الاوجاع حراسة الام على البنين وسهرت الليالي الطوال قيامًا عليّ لاتبالين بالعناء ولا تحفلين بالنصب أكان الباعث لذلك علة غير علة الحب

— اجل ذلك ممكن

— ياغادة البقاع انني طالما كنت استفيق من غيبوبة الحمى ثم استنام فارى عينيكِ ناظرتين اليّ نظرًا يختلف بما فيه من اثر الوجد واللهف عن نظركِ اليّ الان . . . . وكان جبينك اذ ذاك ناطقًا بايات الشفقة وامارات الحنان . . . . اجل وقد سمعتكِ يومًا تتنهدين وتبثين نفثة المصدور . فهل استبدلت الان عواطفك الكريمة . . . او لاتعديني على الاقل ان ترحميني يومًا ولو ان ذلك اليوم بعيد العهد اليس لي ان اطمع في الرجاء واومل يومًا في نيل السماح . ياغادة البقاع اني تائب الى الله ونادم على ما فرط مني نحوك من ضروب الاثام وانواع المنكرات . افلا تجودين بكلمة العفو وترسلين اليّ نظر الحب

— انك تطلب ما ليس اجراؤهُ بالامكان . او استطيع ان احب من كان مثلك او لست انت الذي اتى الجرائم واقترف المنكرات وشارك الاشرار بارتكاب الاثام او ليس ان يديك قد تضرجتا بدماء الابرار . . . . او انسى من انتَ . فلئن كنت قد سهرت لخدمتك واحسنت القيام عليك في مرضك فما ذلك الاّ وفاء لجميلك ومقابلة لصنيعك بانقاذك والدي وبهذه الذريعة قد وفيناك ما كان لك علينا من الدين ليس الاّ

— ياغادة البقاع لاتبعدي ذكري عن فؤادك اصغي لملتمسي ولتكن توبتي مقبولة لديكِ . اما انت بشر كالنساء اما تشعرين بفرط حبي لكِ او ليس للشفقة الى فؤادكِ من سبيل

— او شفقتُ انتَ عليّ وعلى ذويّ حين سلمك الزمان الغادر قيادهُ . اولم انبهك بادئ الامر انني احب انسانًا ولا سبيل لي ان اجعلك وليّ فؤادي . اصغوت لي اذ ذاك . كلا بل انك دست عواطفي الشريفة بقدميك . ودنست مباديّ المقدسة بجورك

وظلمك ومزقت ضلوعي باغضائك عن دموعي وعلمتني ان ابغضك وما البغض من شأني.
وقسرتني ان اغضب عليك غضباً لا يمكن ان يغيره الزمان

—يالانتقامك ما اعظمه ويالغضبك ما اشد وطأته . اما كان الاجدر بك ان تعرضي عن القيام عليَّ في مرضي وتدعيني اموت في اثر ما اصابني . فلم انقذتني من الموت هل رغبت في حفظ بقائي لحفظ شقائي . وسعيت في طول حياتي لزيادة حسراتي . كأنك انست ان حياتي قد قصرت فلم تمكني من الانتقام حتى رغبت اطالتها كيما تتمكني من تصويب سهامك اليَّ . الهذا المبلغ بلغ منك حب الانتقام ؟

قال ذلك واحنى رأسه على صدره وغاص في بحار التصورات وكان القلق يولّم نفسه واليأس يتآكل ما بقي من لحيو . اما غادة البقاع فكانت انسلت من غرفته دون ان يشعر بذلك . اما هو فاستأنف الكلام واهاً انها ما برحت لديه فقال : اجل ان الموت خير من الحيوة على هذه الحالة المرة

اجل ان في الموت سلوّاً وما في الحيوة سوى استمرار العذاب والعناء اذ ليس في الكون من مصيبة اعظم من هذه وهي ان يرى المرء قرينته وشريكته في الحياة تعرض عنه وتميل الى سواه . . . واني ارى امامي حليلة بارعة الجمال فريدة اللطف والانس تنظر وتبتسم وتتكلم وتتحرك وتتاثر وبالجملة انها متمتعة بالعواطف والحواس على ان ليس لي من جميع ذلك اقل نصيب بل ان سواي وليُّ فؤادها وغيري غرض اميالها وموضوع آمالها ورجائها . ايمكن احتمال مثل هذا المصاب . فما دامت الحالة هكذا اليس الاحرى ان اموت وانجو من هذه الحيوة . اجل ان بموتي نهاية شقائي وشقائها

اجل ان في موتي لخيراً اذ ان به نهاية شقائي وشقائها ولعل قلبها القاسي يرق لحالي بعيد وفاتي فتنظر اليَّ نظر الشفقة والحنان والقى منها بمماتي ما لم افز به مدة الحياة وهكذا تنتعش عظامي الرميمة ولو لم تنظر عيوني . . . . يا للاسف ويا اللهف ارى اني ما دمت على هذه الحال لا البث ان اتجرع كؤوس الردى فاني ولئن كنت قد نجوت من الموت اثر البراز فاشعر ان قواي قد فنيت وشخصي قد آل ولا يمضي ردح من الحين حتى اطبق جفني واتم انفاسي المعدودة . اجل ان ايامي قد قصرت ونظام حياتي اوشك ان ينقطع . . . . . .

ثم اخذ في ان يخاطب نفسه قائلاً :

فريد . فريد ما بالك قانط من رحمة الله . . . ولكن . . . آه . . . . يا للندم . . . اني لقد اتبعت الاثم ولم ارعو عن الجهالة والمنكرات التي عشت بها اكثر ايام العمر . . .

الويل لك ياالروسة . . . والويل للذين كانوا منبع شقائي واصل غوايتي . . . ان الله قد انعم عليّ اذ جعلني ابن والدين صالحين تقيين احسنا تربيتي ودرباني على الفضيلة والمباديء الصحيحة واوصياني قبيل وفاتهما ان احفظ وصايا الله واتبع شرائعهُ وقد كان في امكاني ان اقوم بكلما رسماهُ لي لان الاموال الكثيرة التي تركاها لي والمباديء الصحيحة التي القياها عليّ وما متعني الله بهِ من سلامة العقل وصحة الجسم كل ذلك كان يدعوني الى ان انكفيء عن المطامع واسلك مسلك العدل . على اني اشتريت الضلالة بالهدى واثرت الرزيلة على الفضيلة وزغت عن محجة الصواب وسلمت قيادي لشيطان الغرور فاسرفت مالي في سبيل الشرور وبت مع الروسه اتوغل في قفار المآثم واتيه في دياجي المساويء وانحط الى لجج المنكرات حتى اصبحت في غفل عن كل صلاح . . . . . فريد . . فريد ابن عزة نفسك . . . ابن ما كنت تسعى وراءهُ من الشرف والمجد . . . ابن سلامة ضميرك الطاهر وجمال نفسك الكريمة . . . هل لم تحن ساعة رجوعي الى الرشاد . . . انني كدت ان اموت غريق بحر الشر فاقد الرجاء من كل خير . . فالشكر لغادة البقاع التي انقذتني من الموت بما بذلته نحوي من العناية اثناء مرضي وهكذا قد عاودتني الحياة وما سروري بالحيوة من حيث انها حيوة فان نفسي قد سئمت الدنيا على اني سررت لحصولي على وقت اكفر بهِ عن ذنوبي الكثيرة وسيئاتي الجمة . . . الهي هل من مفرق لي انا الشقي الشرير . . اني اذا ذكرت ماضيّ فاراهُ ملطخًا باوزار المعاصي . . . واذا نظرت الى غرفتي فلا ارى فيها شيئًا من اثار التقى فابن الصور المقدسة التي تذكر المرء باصفياء الله الذين يجب الاقتداء بهم والالتجاء اليهم حين الشدة . ابن ملاكي الحارس ابتهل اليهِ ان ياخذ بيدي في حالة الشقاء هذه . بل ابن حالتي الحاضرة من حالتي الماضية انا الذي كنت لا ارقد زمن الصبا دون ان اقبل سيدي المصلوب واضع بين يديهِ عقلي وقلبي وسائر حواسي . . . فاليك سيدي . . اليك ياخالقي ارفع الان نفسي ملتمسًا ان تنظر اليها بعين رحمتك لا بعين عدلك . . . قد عشت شقيًا في هذه الحيوة على اني التمس ان ترسل الى قلبي ضياء رحمتك فاتمتع بسعادة الحيوة الاخرى . . . رحماك . يالهي رحماك

❋ ٣ ❋

اما غادة البقاع فكانت قد دخلت غرفتها واستوت على المقعد حزينة مكتئبة من جراء تلك الحوادث المكدرة التي كان يمرّ ذكرها في خاطرها وكانت على تلك الحالة متشحة بثوب بسيط من الصوف ذي اللون الازرق السماوي وكانت غائصة في البحرانٍ

وعيناها شاخصتين الى السماء ونور الجمال ينبعث من وجهها اللطيف خلافاً لما كانت عليه في غرفة فريد اذ كانت ممتقعة اللون تعلو وجهها سيماء الكدر والشدة والاشمئزاز . وبينما كانت على تلك الحال خفق فؤادها فرحاً عن غير علة معلومة لديها وعلى الاثر اقبل الخادم على غرفتها فاخبرها ان عزيزاً يلتمس مقابلتها . وكان عزيز اتى قصر غادة البقاع قصد ان يتنسم الاخبار ويستطلع الاحوال فنهضت غادة البقاع للحال واقبلت تلاقيه على باب الغرفة ولما التقت العين بالعين هشت و بشت ثم بسطت اليه يمينها فصافحته وادخلته الغرفة على الاثر قائلة : ما اطيب قدومك عليَّ وما اعظم فرحي بلقياك فاني كنت كئيبة حزينة اسيفة اما الان فقد انجلت همومي واخذتني هزة السرور كيف لا وانت مفرج كربتي ومزيل غصتي

— انني اتيتك اتفقد احوالك ايتها السيدة الكريمة والصديقة العزيزة

ثم عقب مبادلة هذه الكلمات صمت وسكون نظر في خلاله كل من المحبين الى محبه نظرة مختلسة يعلم الله وحده ما كان من شدة وقعها في نفس كل منهما . او كيف لنا ان نبين ما اعتراهما من خفوق الفؤاد واضطراب النفس وغصة الصدر عندما وجدا متقاربين متباعدين يشعران بنار الحب تتقد في احشائهما ويندلع لهيبها الى ما بين ضلوعهما دون ان يتمكنا من المجاهرة بما هو مستكن طي الحشاء . يدفعهما الغرام الى المكاشفة والمغالنة ويردعهما الدين والاداب والمبادىء الشريفة الصحيحة عن مطاوعة هوى النفس . اجل ان غادة البقاع على كونها حبيبة عزيز ما برحت زوجة شرعية للامير فريد وهو يعارض بينها وبين حبيبها وقد ابت شهامة المحبين وعفافهما ان يخترقا حرمة الحقوق المنزلة والواجبات المألوفة ولما انحصرا بين زاجر الصواب ومهيج الهوى انفجرت عيون عيونهما بالبكاء فانهملت دموعهما مدراراً

ثم استانف عزيز الكلام فقال :

— يا الرحمة ويا للشفقة . — لقد فني جلدي ولم يبقَ لي من قوة على الصبر فكيف استطيع اليه سبيلاً . . اه اني التمس الفرار من مقابلتك لدى حصولي على لقياك وذلك لان مرآك يربي في فؤادي جمرات الحسرات فتستعر استعاراً . . . . . على اني عندما ابارحك احنُّ شوقاً الى رؤيتك ولا اجد من نفسي صبراً على فراقك فاعود وقلبي منكسر . . . ياغادة البقاع انني اليوم شديد الهيام بك كما كنت يوم خطبتك اجل خامرني ريب في حبك لي حيناً من الدهر وعزيت اليك عدم الوفاء حاسباً نفسي من اشقى الخلق على ان الان قد برح الخفاء وانكشف الغطاء وبان الصبح لذي عينين فذهب عن خاطري

ما كان قد مر بهِ من الوساوس وعلمت حقيقة العلم انكِ وحدكِ ملكة الفؤاد التي لم يبقَ لي على بعدها جلد ولا اصطبار

اما غادة البقاع فكانت صاغية لكلام فريد ومطارحاته اللطيفه ومكاشفته الحبية التي اثرت بفؤادها تأثيرًا شديدًا اصعد الدم الى وجهها النقي فتخضب بالاحمرار وكان ماء الحسن يتدفق متموجًا من وجنتيها الشبيهتين بالورد يحف بهِ الياسمين ثم انعطفت الى عزيز واجابته متبسمة وقائلة بلهجة بلين لرقتها الجماد

— صبرًا عزيزي عزيز فان خير الرجال من صبر . وثق اني ما برحت احبك حبًا نقيًا ذاكرة عهدنا القديم وما زلتُ احنو عليك حنو المرضعات على الفطيم فتوكل على الله ان الله رحوم كريم

— والى مَ اصبر يامنية الفؤاد . ترى متى تسالمنا الايام وتساعدنا الاعوام فاراكِ على ما احب واشتهي ويكون كل منا للاخر قسمة ونصيبًا سرًا وعلنًا بحيث لاتحيط بنا عواطف النوائب ..... ولا يستطيع الحزن الى فؤادكِ سبيلاً .... فيحرك شفتيك تبسم السرور ويسري في عروقك دم الجذل والحبور ...... وما اسعد يومًا بهِ امكن من ان انسيك ايام الكدر والكآبة هذه بما انويه لكِ من اسباب الاهتمام والاعتناء بكِ فاراكِ كما كنتِ في بيت والدك مستظلة تحت اجنحة الفرح والطرب ترى متى يكون ذلك ؟ ... اه اني اخال ذلك اليوم بعيدًا ...

— عزيز عزيز لا تذكرني بما كنت عليه من ابله العيش ورغيد الحال في تلك الايام التي احسبها شطر السعادة من حبوتي والتي طالما تمنيت عودها واني لا ارتاب في ان حياتي المقبلة اذا ما قدر لي ان اقضيها معك تكون لدي شهية طيبة ترتاح اليها نفسي وتنصرف اليها اماني كل يوم بل كل دقيقة تمر لما اني على ثقة من انها تذهب بما اقاسيه الان من العناء والكدر . واني ايها العزيز ارى سعادتنا قريبة الموعد فان ايام الامير فريد اصبحت معدودة وصار اقرب الى المنون من قوسي قاب حسبما اثبت لي الطبيب .... ومعاذ الله ان اكون قد تمنيت له الاذى او اشتهيت موته ولكنها العلة قد تمكنت منه ونشرت عليهِ اجنحتها ولا تلبث اذ ان تذهب بحيوتهِ . اجل ان الامير قد بدا هذه الايام بمظاهر البلول وخيل للناظر ان ملامح الشفاء الظاهرة على محياهُ تبشر بصحته على ان ذلك وهم بحث لا يعول عليهِ اذ ان الاطباء قد اجمعوا على انه لايمضي المديد من الزمن حتى تعاودهُ ثورة العلة فتقتله قتلاً .. واراني وحقك اسفة على مصير هذا الانسان على ما في موتهِ من القصاص له والتعزية لي والراحة لكلينا معًا ... ولذلك فاني ارجو له من الله

عفواً كريماً ورحمة واسعة في الحيوة الاخرى! . . . وهكذا اني سامسي بعد ايام مخلة القيود العهدية فيما اني ما برحت حتى الان حرة بالنظر الى القيود الطبيعية

*****

لقد اصاب من قال ان للجماد عيوناً تنظر في حالك الظلام واذاناً تسمع بثه المحبون من اسرار الفؤاد في خبايا الزوايا فقد خيل لكل من عزيز وغادة البقاع ان محادثتها سرية لم يعلم بها غير الله على ان رجلاً كان واقفاً في الحجرة الملاصقة غرفة غادة البقاع يصغي بمنتهى الانتباه والاهتمام الى حديثها من خلال باب يتصل بين الغرفتين وذلك الرجل انما هو الامير فريد قرين غادة البقاع واليك سبب وقوفه في ذلك المكان

بعد خروج غادة البقاع من غرفة زوجها بقي ذلك الامير شاخصاً بعينيهِ ينظر الى ماضي اموره ويشدد العزم على التوبة اليهِ تعالى ويفكر بما يجب ان يتخذهُ من الذرائع تكفيراً عما اخطأ بهِ الى الله والبشر . وبينا كان على تلك الحال طرق اذنهُ دوي عربة فتقدم الى النافذة يسير الهوينا من جراء الضعف والهزال ثم نظر الى الشارع فرأى ان تلك العربة قد وقفت تجاه باب القصر وانحدر منها شاب يقصد دخوله فتفرس فيهِ وللحال توارد الدم الى رأسهِ وظهر بعض احمرار على وجههِ العجيف المكفهر وكان ذلك علة انفعال الحسد الذي ثارت عواطفهُ في صدر الامير اذ ان ذلك الزائر لم يكن الاَّ عزيزاً مزاحمهُ القديم قد اقبل على قصرهِ بغية مقابلة غادة البقاع . ولا يخفى ان الامير فريداً كان يعتقد عن صواب ان عزيزاً انما هو الحاجز الوحيد بينهُ وبين امرأتهِ اذ انهُ كلما كان يحاول « ولوج فؤاد الغادة » كان يرى « المفتاح بيد عزيز »

فشرع الامير فريد يتساءل قائلاً : « علامَ هذا الانسان مقبل الينا . . . لاريب انهُ تريد مقابلتها . . . ولكن لاي امر . . . وما عسى ان يدور بينهما من الحديث . . . » ثم لم يتمالك مع ما كان عليهِ من الوهن والضعف ان يسعى وراء استطلاع الامر وكشف الغطاء بل زحف زحفاً حتى بلغ الغرفة الملاصقة لغرفة امرأته وبينا كان قاصداً ان يجتازها قصد الدخول من الباب السري سمع صوت عزيز فانتصب واقفاً ثم استكن واصغى فسمع المحادثة من اولها حتى اخرها دون ان تفوته كلمة واحدة الى حد انهُ كان يسمع الانين والتأوه المتبادل بين الحبيبين ساعة انقطاعهما عن المكالمة . . . . فانقبضت نفس الامير وضاق صدره وكاد ان يستطير لبهُ . على انهُ تجلد وصبر رغبةً منهُ في الوقوف على تتمة الحديث ولذلك قد كظم الغيظ واخمد ثورة الغضب مطمئناً الى الصبر مسترسلاً الى السكون على ما كان يعاني من عظيم الالم . بيد انهُ لم يكن ليرمي غادة البقاع بسهم الملام اذ انها كما يعلم القارىء

اللهيب كانت قد سبقت وكاشفته بالحقيقة قبل زواجها به فلم يكن والحالة هذه لينتظر منها الوفاء والامانة وهي لم تذعن للاقتران به الا جبرًا وقهرًا . وهل حافظ هو نفسه على قواعد الشرف اولم يكن قد لطخ كرامته بالدناءة والقبائح . — على ان غادة البقاع لم تهتك حرمة الزواج المقدس بمقابلتها عزيز ولكنها صدقت بقولها له انها ما برحت حرة " . .

وظل الامير فريد يسمع تلك المكالمة وهو كمن يتقلب على شوك القتاد او يتقلى على جمر الغضا على انه كان يغضب مرة ويكظم الغيظ اخرى الى ان سمع الجملة الاخيرة المشيرة الى قرب اجله اي الجملة التي انتهت بهذه الالفاظ (انني ساصير بعد بضعة ايام مطلقة الحرية) فعندئذٍ تنهد الامير فريد من اعماق صدره واخذته الرعدة في جميع اعضائه واضطرب فؤاده واصبح كالمتزول به اذ انه تحقق قرب اجله فاستطير لبه وعاد الى غرفته على غير هدى وانطرح على سريره وهو يردد كلمات غادة البقاع « ساصير مطلقة حرة » ثم اطبق جفنيه وغاص في بحار التأمل والتصور حتى خيل له انه يرى عزيزًا وغادة البقاع ليس في الغرفة القريبة منه كما كان قد شاهدهما منذ برهة بل تراءى له في عالم الخيال انه يراهما بعد الموت في بلهنية العيش ورغد الحيوة كما وصف عزيز وان الصفاء يجمع بينهما دون مكدر في حين انه هو قد امسى نزيل القبر ينظر غادة البقاع فائزة بما طالما تمنته من ان تكون حليلة عزيز ورفيقة حياته . . . وقد تراءى له ايضًا ان المحبة كانت تزداد وتنمو بينهما مع نماء الايام وانهما كانا يرفلان بحلل الرغد في رياض السعد يستنشقان عرف الحب الطاهر بين الازاهر الباسمة بعد اذ كانا قد قاسيا من وحشة الفراق وكيد الزمان ما طالت مدته واشتدت شدته كانما هما يستعيضان ما فاتهما من رخاء العيش وخفض الحياة . . . .

لعل ان هذه الصور كانت تمر في مخيلة فريد كما لو كانت واقعة فعليًا اذ انه كان يراها بعين البصيرة يرتشفان كؤوس الصفاء والهناء حتى لم يبق في نفسيهما اثر للايام السوداء التي كانت في خلالها غادة البقاع اسيرة . . . . بل اسيرة . . . . فصاح الامير فريد وهو على مهاد الاوجاع : « يا للاسف ويا للهف لقد ذهب ذكري من افكارها وان ذكراني فكانهما يذكران خيالاً هائلاً او شبحًا مريعًا مرّ بهما في الحلم . . .

وكان الامير يحاول دفع هذه التصورات عن مخيلته لكنها كانت تعود اليه على الرغم منه فينقبض صدرًا ويذوب حزنًا واكتئابًا . ليس هذا فقط بل انه كان يمر بخاطره ذكر الجرائم التي كان اقترفها اي تلك الحوادث الشريرة التي كان محورًا لها وخائضًا فيها فاعيد الى فكره ذكر ذلك الميثاق الذي عقده مع الروسه تحالفًا على الاثم

ولا يخفى ان الامير فريد كان اذ ذاك في غرفة قصره التي علق على جدرانها رسوم ابائه واجداده . فكأن تلك الرسوم كانت تنظر اليه نظر الحزن والانقباض موبخة لهاه على ما اتاه من المنكرات لاسيا اذ كان يذكر الايام التي بها خطف غادة البقاع واخفى والدها ثم اضطرب فؤادهُ اذ ذكر انه كان سبباً لقتل نسيب وميخائيل اللباوي وعلة لموت فريدة وان جرج واندراوس اللباوي كادا يموتان شهيدين في اثر دسائس الروسه التي كان خليطاً فيها . وكانت اشباح من ذكرنا تمر امامه باشكال مخيفة وصور مرعبة حتى خيل له انها كلها تستصرخ العدل وتنادي الانتقام ! .... الانتقام ! ....

﴿ ٣ ﴾

ثم ان الامير فريد قد هب مذعوراً من وراء هذه التصورات وشعر بضعف في جسمه وانحطاط في قواه واذ كان قد علم بقصر حياته واستثبت انه لم يبقَ له من مطمع في هذا العالم عمد الى التوبة وقصد ان يكفر عن ذنبه ويسأل الله الراحة في الحياة العتيدة فارسل يطلب غادة البقاع ثم استوى على المقعد وظل ينتظر قدومها وهو في اضطراب شديد . وكانت الشمس في ذلك الوقت قد غربت عن الارض وبقي شيء من اشعتها منعكساً على غرفة الامير مما كان يزيد لونه امتقاعاً وهيئته وحشةً

وكان عزيز قد زايل غادة البقاع بعد اذ اطلعها على ان رجال مراد بك ما برحت تبحث عن الروسه دون ان تقف له على اثر وانه يرجى القاء القبض عليه لما انه لم يكن قد زايل البلاد بعد الى غير ذلك من الامور التي لم ينتظر الامير فريد استماعها بعد اذ كان قد سمع ذلك الخبر المخيف الذي اسرته غادة البقاع الى عزيز الا وهو ان ايام الامير اصبحت معدودةً

ولما دخلت غادة البقاع غرفة الامير فريد وجدته جالساً على المقعد ورأسه منحنياً مستنداً الى يده اليمنى وقد زاد اصفرار وجهه وامتقاع لونه وكثرت حركات قلبه وكان يجهش بالبكاء ودموعه تتساقط على خده مدراراً ثم مضت دقائق على دخولها ولم ينتبه الى حضورها لما كان عليه من الاضطراب . ولما ابصرها قال لها بلهجة تشف عن الحزن واليأس وانكسار القلب : « اشكركِ ياغادة البقاع شكراً جديداً لانك حاولت انقاذ جسدي فلم تستطيعي الى ذلك سبيلاً على انك بتلك النصائح وسعيك المستمر قد انقذتِ نفسي وبذلك لك عليَّ فضل تذكره عظامي تحت التراب .... ولم اقل اني اذكره طول الحياة لان حياتي امست قصيرة لا تكفي جميعها للقيام بشكرك .... فارجوك السماح في هذه البقية الفنية

من عمري التي فيها عمدت الى ان اكفر عما اقترفت من الاثام

سمعتُ كل شي ياغادة البقاع وعرفت ما قاله الاطباء بشأني ... كما اني مشعر ان حياتي قد قصرت ولذلك رأيت ان اسعى فيما بقي لي من العمر في ان اكفر عما اتيته من المنكرات مبتدئًا بان اسالك السماح اذ انك اول من الحقت بهم الضر والاذى فهل لكِ ان تغفري لي فاذهب مطمئنًا الى الدار الاخرى

وقد استشفت غادة البقاع من هذا الكلام انه سمع ما دار بينها وبين عزيز من المذاكرة وتأثرت من اثار ندامته الصادقة فقالت له :

اسال الله ان يتوب عليك ويغفر لك

— اني اعلم باني لم اصوب سهام الشر نحوك فقط فان كثيرين غيرك قد نالهم السوء من جراء اعمالي المنكرة فعليَّ ان اسالهم السماح ايضًا عما اساءت به اليهم ولما كنت اخشى ان تفوتني الفرصة او يفارقني ما بقي لي من القوة امرت الخادم ان يعد العربة للحال فاذهب لمقابلة عزيز التماس المغفرة من لدنه فهل لكِ ان تعلميني اين اجده الان

وكانت غاده البقاع على ثقة من صدق توبة الامير فاخبرتهُ ان عزيزًا يقيم في المنزل الذي اقامت هي فيه ايام كانت صحبة والدها

اما عزيز فبعد مزايلتهِ غادة البقاع قفل راجعًا الى منزلهِ يزاول اعماله كالعادة وما لبث ان اقبل عليهِ صديقاه الحميمان شجعان ولمعان يتقدمهما مراد بك وحبيب فشرع الجميع يتذاكرون بامر الروسة الذي اختفى اثره عن العيان رغماً عما ابدوهُ من البحث والتنقيب عنهُ . الا ان احدهم حبيبًا اخبرانهُ في خلال ما كان يجريهِ من التحري عليهِ بجوار منزلهِ في حي الرميلة ابصر رجلا يشبه الروسة قامةً وحركةً مع بعض اختلاف في الملامح والزي فتعقبه واذا بالرجل قد دخل حديقة المنزل ثم تبعه على الاثر رجل بدين شخيص ضخم الجرادة فتحقق انهما الروسة وذئاب على انهما لم يخرجا بعد ذلك من تلك الحديقة كل مدة انتظاره لهما . فجزم الجميع انهما بقيا في منزل الروسة

وبينما كانوا يتشاورون واذا بدوي عربة وقفت لدى الباب ثم سمعوا همهمة اقدام تسير الهوينا ففكر عزيز بنفسهِ بذلك المقبل اليهم ليلاً واشتق من ان يكون ناقلاً نباء مكدرًا . وكانت تلك الاقدام تدنو ببطء من ذلك المنزل الذي سكنه بولس البقاعي وكريمته غادة البقاع اذ ان عزيزًا لم يزايله رغبة منه في تذكر ايام الصفاء التي انقضت فيه...

وكان ذلك الزائر المقبل يعرف ايضًا ذلك المنزل فاجهش بالبكاء اذ نظر الى اثاره

وكان المصباح المضوء على المنضدة في غرفة عزيز محاطًا بهالة من الورق يعكس

النور الى اسفل فلم يتمكن الجلوس من معرفة ذلك الزائر الذي كان يتقدم نحو الباب على انه حينما صار الى وسط الغرفة انجلى لهم امرهُ بانعكاس النور على محياهُ فاخذتهم هزة الانذهال والدهشة وتبادلوا اشارات التعجب والاستغراب ثم نهضوا نهضةً واحدة كانما نزلت بهم نازلة اذ ان ذلك القادم لم يكن الاَّ الامير فريد . . . على انه كان ممتقع الوجه منهوك القوى نحيل الجسم متقد العينين ولكن بنار الحمى وليس بنور الحيوة . . . . و بقي فريد برهةً واقفًا في الغرفة مستندًا الى الطاولة لشدة ما به من الوهن والضعف وظلَّ كالمذهول به ينظر الى ما حوله دون ان يفوه بكلمة واحدة اذ ان الدهشة قد استولت عليه واخذ الاضطراب منه كل مأخذ في اثر ما رآى في ذلك المنزل من الاثار التي ذكرته بماضيه اي بما اقترفه من الجرائم التي صارت به الى تلك الحال فانزلت به الكآبة والحزن والحقت به العار والشنار . — ففي تلك الغرفة قد عرف فريد غادة البقاع وهناك اظهر نفسه لها واخفى عن لقبه وهناك تصانع متظاهرًا بالحب في حين انه لم يكن يحب حقيقةً كل ذلك دون ان يتدبر العاقبة وغير عالم ان ذلك الحب نفسه سيصبح اداة قصاصه . وفي تلك الغرفة نفسها قد عرف غير مبالٍ ان غادة البقاع لا تريد غير عزيز اهلاً اذ في تلك الغرفة نفسها قد ردته الغادة خائبًا في حين انه كان يؤمل بالفوز والنجاح . اجل ومن نافذة تلك الغرفة قد رمت الغادة باقة الازاهر التي كان اهداها اياها يوم عيدها وهو اليوم الاخير الذي فيه خطفت بالمكر والخديعة من بيت ابيها . . . . ومن تلك النافذة كان فريد يرقب وقوع الفتاة في المكيدة . . . ومن تلك الغرفة قد شاهد بولس البقاعي اسير اليأس والكدر من جراء بعاد ابنته وجملة القول ان تلك الغرفة كانت مهدًا اناسا بعث فيه حوادث المشهد الاول من هذه الرواية التي قام فريد باهم ادوارها واوشك الان ان يذهب ضحية المطامع والشهوات . . . فمن كان يعلم ان الحوادث ستصير بفريد الى الى هذه الحال بل من كان يعلم انه مزمع ان يقاسي مثل هذه الالام ويلقى اشد المصائب من اجل الفتاة التي رغب في ان يجعلها زوجة له دون ان يحسب انها ستصبح علة لقصاصه ومن كان يفكر اذ ذاك ان فريدًا الذي نزل ميدان الحب بصورة غير مشروعة سيلاقي الذل والهوان والشدة بل الموت في كاس الحب عينه . . . بل ان كل من اعتقد بوجود عناية تدبر الكون قد ادرك مذ كان فريد في اوج الفوز انه سيهبط الى هذه الدرجة

وبعد اذ جالت جميع هذه التصورات في خاطر الامير تنهد من اعماق صدره ووهم برهة ان ليس من ينظر اليه في تلك الساعة فشخص بصره الى العلاء وكاد يجهش بالبكاء اما عزيز فقد مرت بخاطره ايضًا جميع الحوادث الماضية على انه اخذ يفكر في الاسباب التي

دعت الامير فريد الى زيارته في ذلك المنزل وفي تلك الساعة ثم قال بنفسه «العله باتيني لينتك بي في حين غفلة» وما كان يبعثه على هذا الظن معرفته ان فريداً قد تعود اقتراف الاثام من وراء مخالفته المروسه حتى اصبح ارتكاب النظائع اهون الاعمال لديه

وكان مراد بك ورجاله في حيرة وتعجب من جراء تلك الزيارة وجملة القول ان الظنون كانت تتسابق في خواطر الجميع بوقت واحد باقل من لمح البصر

❋ ❋ ❋

على ان تلك التاملات لم يطل امرها اذ تقدم عزيز نحو فريد وقال له : لقد غرك الطمع اذ ظننت انك تجدني وحدي هنا فعلمت الان ان ظنك قد خاب

فادرك فريد مغزى كلام عزيز وتبسم تبسم الاسف ثم قال له ٠سيان لديَّ وجود اصحابك وغيابهم فاني ما اتيتك لمقاصد البغضاء والعدوان بل لعكس ذلك . فثق ياخواجه عزيز انني لو رغبت في الانتقام منك لكنت فعلت من امدٍ مديد حين اتيح لي ذلك فارجع عن وهمك اذ اني لا اقصد اغتيالك . الا تذكر البراز الذي جرى بيننا ؟ او لم تكن حيوتك اذ ذاك رهينة امري ووقف اشارتي ؟ . . . . . على اني لم اعمد مطلقًا الى الفتك بك

فعلت حمرة الخجل وجنتي عزيز فان الامير قد صدق قولاً ولو شاء في ذلك العهد ان يقتل عزيزاً لكان فعل دون مانع ولا معارض ، على ان اعمال فريد كلها كان يتجاوزها عاملان قويان وهما الدناءة والشهامة اذ كان يقدم على الشر حينًا ثم يقلع عن اثامه مدفوعًا بما ربي عليه من مبادىء الصلاح . — وقد ذكر عزيز كل ذلك وخجل خصوصاً اذ مرت بخاطره تلك المقابلة التي شهدها بين الامير وغادة البقاع وباثنائها كان فريد هائماً بزوجته دون ان يقوى على نيل مراده حتى عمد الى الابتعاد عن الروسة ونفضه الى حد انه حاول قتله

ولقد رأى عزيز انه اخطأ ظناً وتأثر فؤاده لمشاهدته الامير مائلاً امامه منحنيًا تحت اثقال الاحزان والالآم

اما فريد فشعر اذ ذاك بوهن شديد واشفق من ان تنتهي انفاسه في تلك الدقيقة فاستوى على كرسي كان امامه واستلى حديثة وكان صوته يهتز لشدة التعب والضك فقال : لا بأس اذا ما اندهلت يا خواجه عزيز من زيارتي لك في هذا الليل ... فقاطعه عزيز وقال : اسألك المعذرة يا حضرة الامير لاني في بادىء الامر ذهبت الى ان زيارتك من نوع

ما بيننا من سابق الصلات

فهزّ الامير راسه ثم استتلي عزيز كلامه فقال: قل ما تريد

— اتأذن لي ان القي عليك بعض الاسئلة ؟

— سل عما بدا لك . ولكن هل تريد ان يسمع اصحابي ذلك ؟

— اجل بل اسألهم ان يصغوا اليَّ منتهى الانتباه

فاقترب مراد بك ورجاله من الامير فريد الذي قال : علمت انك ياجناب البك تحاول ورجالك القاء القبض على الروسة فهل ذلك اكيد

فاجابه مراد بك

— اجل اننا نسعى وراء الروسه ورجاله

— او لم تفوزوا بنيل الارب ؟

— لم نتمكن من ذلك حتى الان فان بعض الموانع والاعمال حالت دون اتمام بغيتنا اما الان وقد ذهبت تلك الموانع فانا نطلب الروسة دون ان نجده ولا بد لنا من القاء القبض عليه لما اننا على يقين من انه لم يزايل البلاد

وقد رأى مراد بك ان يقوم مقام عزيز بالجواب رغبة منه في استطلاع نوايا فريد الذي اجاب

— انني اسلمه اليكم في الحال لما اني عالمٌ ابن ملجأه لمعرفتي السابقة بخفايا منزله وكان الروسه في بادىء مخالفته للامير فريد قد اخبره عن السرب (السرداب) الخفي الذي يبتديء من منزله ويتصل بالبحر

اما عزيز فنظر الى مراد بك نظر التحذر والاحتراس مشفقاً من ان يكون كلام مريد مبنياً على خديعة جديدة وشرع كل منهما يبادل الاخر نظرة معنوية تساعد على بادلة الافكار اكثر من المكالمة فادرك فريد ما مر بخاطرهما وتبسم اسفاً ثم قال :

— لكما ان تتصورا بي السوء والدهاء . . . . ولكن خور ضانة ابديها لكما لتكونا على ثقة من نزاهتي وصدقي واخلاصي هي اطلاعكما على اني اصبحت الدّ عدو للروسه الذي اتخذني مركباً وطعاني بحيله وضللني باستهوائه فجعلني ان اقترف الشرور التي اكره وقد تمكنت العداوة في صدري حتى اني طلبت مبارزته قصد قتله والاقتصاص منه على اني لم انجح سعياً . اما الان فقد ندمت على ما فات وتبت اليه تعالى ورجائي ان يغفرلي في اثر صدق توبتي واعلمك ياخواجه عزيز اني قد عرفت ما حكم به الاطباء عليّ من انهُ لم يبقَ لي من الحياة نصيب وان منيتي قد اصبحت اقرب من قاب قوسين ولذلك

فقد عزمت قبل موتي على ان أكفر عن السيئات الماضية .... وان ارفع الحواجز التي تحول دون العدالة والحق ! .... وتراني بادىء بدء اسلم ذاتي اليكم مستعداً ان انبعكم الى مقر الضابطة حيث اقر واعترف بجميع الجرائم الجنائية التي جرت ولا ريب ان بكلامي شاهداً ناطقاً ودليلاً قاطعاً لاثبات التهم المصدرة نحو الروسه هذا واني على ما ترون قد اصبحت شديد الوهن فاقد القوى شحيب اللون ومع ذلك قد تبت اليكم شهادة للحق دون ان يكون في خاطري قصد شيء ...

فتاثر الجميع لكلامه ولحاله وقد ثبت لديهم صدق ندامته فقال له عزيز ان لنا تمام الثقة بك .... واعلم ان اثمك كان عظيماً .... على ان ندامتك اعظم والاعظم يقوى على العظيم ونحن نعلم ايضاً انك تقاسي من الالام ضروباً فنرثي لحالك ونركن الى صدق قولك

فاجاب الامير فريد اشكر لكم حسن ظنكم بي .... وذلك ما يأول الى تعزيتي وتخفيف كربتي وعليّ ان اسعى معكم لالقاء القبض على ذلك الشرير وان يكن ذلك ما به عقابي وعقابه اذ اني في تلك الجرائم شريكه وخليطه واسالكم بكل لجاجة بعد ان اسلم نفسي للحكومة ان تسيروا بنفر من الضابطة الى منزل الروسه في حي الرميلة حيث تجدونه دون اشكال اذ لا بد ان يكون مختبئاً في السرب المبني تحت القصر واعلموا ان ذلك السرب يتصل بالبحر وربما يتخذه الروسه سبيلاً للفرار فاحذروا ان تدعوه يهرب من امام الحكومة لاني قد علمت انه يتاهب للسفر اما مدخل السرب فهو في الممر الملاصق غرفة مائدة الطعـام فتجدون على احد جدرانه رسم باب فتعمدون الى فتحه اوالى خلعه ثم تدخلونه مقتفين اثر الروسه واحذروا ان يبطش بكم في ظلمات السرب المدلهمة وباشروا السعي منذ الان دون ان تفتروا لحظة عين وها اني منطلق لاسلم نفسي للضابطة ..... على اني قبيل ذلك اسالكم صفحاً عن ذنوبي التي اكفر عنها الان بما احتمله من انواع العذاب المختلفة .... وارجو ان يكون الله قد غفر لي ما اقترفه من المعاصي والمنكرات فاني تائب اليه نادم على ما فرط والله تواب رحوم . وكان صوت فريد ضئيلاً منقطعاً مرتجفاً لشدة ما به من الانحلال والسقم ثم اختتم الكلام بقوله اني راضٍ بكل هذا العذاب في هذه الحياة رجاء ان اعامل بالرحمة في العالم العتيد

فزاد السامعون تاثراً من هذا الكلام ثم انتصب مراد بك وقال له :

لا نقبل بعذابك ولا نرضى ان تسلم نفسك للضابطة .... وكفاك ما لقيته من

شديد الالم والحزن ... انما نسالك ان تسلمنا تقريرًا رسميًا نشهد فيه بما تعلم من حوادث الروسه ... ونحن لا نستعمل ذلك التقرير الا بعد حين ... ذلك وعدنا لك نعاهدك على القيام به انا وعزيز وسائر الذين قاسوا المصاب من وراء تلك الجرائم

فأبدى عزيز اشارة الاستحسان وعلى ذلك قال الامير فريد يشهد الحق انكم قوم كرام عرفوا بسلامة النية وحسن الطوية .... وانتم بهذه المآثرة وهذه المكارم قد حولتموني فترة من الزمان استعد بها لان اموت بسلام .... واني مشعر بوهن وسقم ومدرك ان الداء الذي يتآكلني سيذهب بحياتي عن قريب فلا تنتظرون طويلاً لاستعمال ذلك التقرير وعليه فاني خاضعٌ لما رسمتم واليه اشرتم .... ومنتهى املي ان تجودوا عليّ بكلمة السماح .... لا بل اريد ان اجازى على ما ارتكبت فسلموني للحكومة حيث لا ادفع عن نفسي التهم والشبهات

فاجاب مراد بك وعزيز ابى الله ان نكون من القساة الظلمة البغاة فاننا نسامحك على ما اقترفت على ان سيف النقمة سيجرد على راس الروسه اما انت فكن بسلام وامن ان الله يغفر للمسيء ويحنو الى التائبين وما نحن الاّ جبلة الله نستمسك بما اليه يشير

فاجاب الامير وكان يجهش بالبكاء اشكركما ما شاء الشكر واذكر نعمتكما ما استطعت الذكر ولما كان النصيب الباقي لي من الحياة قصيرًا سانشىء لكم التقرير الذي تطلبون والان استودعكم الله

وهكذا قد انصرف الامير من تلك الحضرة عائدًا الى قصره وما وصله حتى استلقى على سريره لان تلك المقابلة قد اثرت به جدًا الى حد ان عاودته نوبة الحمى شديدة

وقد سبق لنا القول ان مراد بك كان سال جرج واندراوس ان ينتظرا انفاذ القصاص على الروسه ليثما يقضى على الامير فريد اذ ان العلة قد انذرت بقرب اجله

******

﴿ ٥ ﴾

وبعد زوال نوبة الحمى احس فريد بتعزية داخلية لم يكن يشعر بها منذ سنين وذلك لما ان ثورة ضميره قد سكنت عن تقريعه في اثر ما ابداه من شواهد التوبة الصادقة وكان قد استدعى الكاهن اليه وتمم ما تفرضه عليه العقائد الدينية

وفي صباح يوم دعى اليه غادة البقاع فدخلت غرفته ووجدته ملقى على سريره مكفهر الوجه منكسر الجفون هزيلاً نحيفاً متزايد ضربات القلب لشدة الضعف والوهن ذابل العينين كانما هو يودع الدنيا ومن فيها وما . على انه في تلك الحالة كان باسم الوجه تلوح عليه سيماء السكون والهدوء وسلامة الضمير فقال لها : يا غادة البقاع قد عرفني الطبيب منذ برهة ان العلة قد استحكمت مني وانه لم يبقَ لي من مطمع في هذه الحياة التي سأبارحها بعد انقضاء يومين او ثلاثة ايام فارغب قبل وفاتي في أن ياخذ العدل مجراه فاموت بسلام . . . وذلك بتسكين اصوات اولئك الا برياء الذين قد هدرت دماؤهم غدراً وظلماً . اما انا فاني اكفر عن ذنوبي بندامتي وبما اقاسي من شديد الالام وقد بلغت عفواً من رحمة الله وكرم البشر على ان زميلي بالاثم وخليطي بالشر لا بد ان يلقيا شديد العقاب

فاجابته غادة البقاع وقد ظهرت ملامح الشفقة والحنان على محياها :

— اسال لك الرحمة والغفران من لدن الرحيم الرحمن

— نعم ذلك حسبي . . .

وقبل اتمام الحديث دخل الخادم واخبر الامير ان مراد بك ورجلين اخرين يسالون الدخول الى غرفته فاجاب بالايجاب واشار الى غادة البقاع ان تنصرف

وكان مراد بك في اثر تلك المقابلة المحكي عنها قد ذهب الى المدعي العمومي والمستنطق وأطلعهما على حقيقة الخبر واخذ منهما عهداً ان يرفقا بفريد نظراً لدنو اجله وان يلقيا الحجر على البروسة بعد اخذ تقريرات فريد ولما كان فريد اصبح بما هو عليه من الضعف غير قادر على النهوض جاء مراد بك ومعه المدعي العمومي والمستنطق قصد استجوابه في منزله وكانت فترة ملائمة لان الحمى كانت قد خفت وطاتها على الامير . وبينما كانوا داخلين قال المستنطق لمراد بك :

— اجل ان القانون يخولنا عدم القاء القبض على فريد لما هو عليه من شدة الداء اما البروسه فلا بد من الحجر عليه مخافة ان يهرب وانا سنجيب طلبك باخفاء الامر

الى ان يكون الامير فريد قد فارق الحياة وعندئذٍ تجري محاكمة الروسه ولكن لا بد لنا من اتخاذ الادلة والشواهد اللازمة لالقاء الحجر عليه

— على اني اسالك ياحضرة المستنطق ان تعامل الاميرنا فطرت عليه من اللطف رفقاً بانسان سيصبح عن قريب نزيل القبر . . ولما كان مرض الامير في الصدر فلا بد لنا من اخذ شهادة الطبيب عن سلامة عقله لتصبح شهادته وتقريراته صحيحة مقبولة غير معرضة للنقد

فاجابه المدعي العمومي

— كن مطمئناً فان اعمالنا تكون منطبقة على القانون تمام الانطباق فلا يكون للمجرم من القصاص مناص

— لاشك بما لديكما من النزاهة والعدالة ترفقهما المرحمة والحنان

ثم دخلوا غرفة الامير

❋ ٦ ❋

حالما رأى الامير فريد المدعي العمومي والمستنطق ومراد بك داخل غرفته استوى على سريره ثم اخذت العبرات تتساقط من عينيه . فيا للعجب ان ذلك الانسان الشرس الاخلاق القاسي القلب الغليظ الكبد الخادع الماكر الماذق قد اصبح وديعاً وضيعاً لين العطفة كريم الهزة اسيفاً حزيناً يبكي كالطفل وما بكاؤه بكاء تحمل العذاب والعار ولكنه بكاء الندامة على ما فرط منه من الزلات ثم انه بعد اذ كفكف الدمع قال :

لقد اتيتم أيها السادة في فرصة ملائمة فبادروا لانجاز المقصد مسرعين مخافة ان تخترمني المنون قبل ان اصرح بالتقرير واقيمكم شهوداً على ما اقترفته من الجرائم والآثام وارجوكم ان تنزلوا منزلة الصدق كلام انسان نظيري يتأهب للاقاة ربه . ثم اخذ المستنطق بتحرير لائحة الضبط حسبما كان فريد يتلوها عليه واليك مثالها :

« انا فريد الملقب بامير الغاب اقر واعترف انني منذ سنتين عرفت الروسة التاجر المشهور امره بعاطاة الخدم العمومية في هذا القصر وانه قد جاءني يوم كان الدلال ينادي ببيع عقاري وملكي فتعهد لي باعادة ثروتي المفقودة ان ماشيته على مبتغاه وخصصته بنصف الثروة العتيدة ان تصيبني بحق ارث امرأتي وبناء على ما زين لي حاولت استمالة غادة القناع ولم اوفق الى ذلك فاتخذت مع الروسه ورجالة طرق الاعتساف لنيل الارب . — ثم ذكر فريد ما كان من امر اختطاف غادة القناع المرة الاولى والمرة الثانية واكراهها على التزوج به ثم استرسل الى ذكر مقتل نسرمب ومبارزة عزيز ثم اتصل خبر

حبايل اللياوي تفصيلاً وما حدث في اثر ذلك من الاعمال التي عرفها القارىء ثم صرح بشدة استيائه من الروسة وكيف انه حاول انقاذ اندراوس اللياوي . وجملة القول انه لم يدع امرًا الاَّ وذكره .لا سرًا الاَّ وصرح به»

وما انتهى من تقريره الاَّ واستلقى على ظهره من شدة الوهن وقوة التاثر فقال : بادروا للقيام الان بما يفرضهُ عليكم الواجب واني اسلم ذاتي اليكم ولئن كنت على هذه الحال وحذار ان يتملص الروسه من بين ايديكم فانه منبع الفساد واصل الشر

فقال المدعي العمومي ستاخذ العدالة مجراها ونحن الان ساعون وراء الروسة بغية القبض عليه واجراء محاكمته حسب القانون. اما انت فنعفيك الان من المعاملات القانونية لما انت عليه من الم الداء على انهُ لا بد لنا من كفيل يضمن لنا حضورك للمحاكمة حالما تأذن حالتك الصحية بجعلك تحت طائلة القانون

فتقدم مراد بك وقال : انا اضمن ذلك . انا الكفيل

فاجاب فريد شكرًا لك ايها الكريم على اني لا اخال العمر يطول ريثما تقوم بالكفالة واني اشكرلك لوفاء وعدلك لي اذلم تاتني برجال الدرك الا بعد تحققك دنو اجلي . ام الان قد وجدت السكون والراحة وشعرت بسرورٍ باطني قد فقدته مذ سلكت مسالك الاثم ... الويل لك يا الروسه بل الويل لي لانتهاجي مثالك . رحماك ياربي رحماك فانت التواب الرحيم

ثم خرج الحاضرون من الغرفة آسفين من جراء الحال التي صار اليها الامير قائلين عسى ان يكون ذلك عبرة لغيره من ارباب الجرائم والفظائع الذين لا يخافون الله ولا يستحون من الناس

*****

٧

عصر ذلك النهار كانت الضابطة تخفر منزل الروسة في « الربيلة » وكان معهم مراد بك وعزيز وقد قرعوا رتاج (بوابة) المنزل فلم يفتح لهم فخلعوه ثم يمموا المنزل وساروا توًا الى السرب « السرداب » الذي اخبرهم الامير فريد عنه

وكان الروسة اذتحقق دنو اجل الامير فريد اخذ في التأهب لمزايلة البلاد ولما كان تنبه ايضًا ان رجال مراد بك ترقب حركاته وسكناته عزم على السفر في ذلك اليوم حاملاً ما يمكن نقله من السحت والمال مستصحبًا معه خلطاءه الطبيب سلبيا وذئاب

وسمعان لانهم اشفقوا مثله من ان ينقلبوا شر منقلب . وكانوا قد اجمعوا رأياً على السفر ليلاً مستطرقين الى البحر بواسطة ذلك السرب اذ انهم اعدوا قارباً في طرفه الجنوبي ينقلهم الى احد الثغور القريبة ومن هناك يشخصون الى امركا . على ان الظروف قد جاءت معاكسة لما كانوا يقصدون ولما ادركوا ان الجنود كانت تخفر المنزل اختبأوا في السرب واخذ كل منهم غدارة سداسية للدفاع واستكنوا امل ان لا تبصرهم عين فيزابلون السرب مسافرين في حين غفلة الجنود عنهم

وقد سبق القول ان نجم الروسة قد افل وان الظالمين لا يفلحون ولذا قد باغته رجال الدرك في اليوم المضروب للفرار

وكان مراد بك قد حذر رجال الضابطة والشحنة الموكلين بالقاء القبض على الروسة ان يتخذوا جميع التحفظات اللازمة علماً منه ان الشقي لا يمكن ان يكون وحده في السرب

ولما احس الروسة ان باب السرب قد فتح حاول بادىء بدء ان يتوغل في داخله وقد تبعه كل من الطبيب سلبينا وذئاب وسمعان وكان الظلام حالكاً . اما مراد بك وعزيز فكانا يتقدمان رجال الدرك في ذلك السرب بمنتهى الشجاعة والاقدام ولم يشا مراد بك ايقاد المشاعل مخافة ان يرام الروسة فيصوب الرصاص اليهم . وقد اصاب مراد بك بذلك ظناً لان الروسة حالما احس بدخول القوم الى السرب رأى ان يباغتهم باطلاق الرصاص . ولما كانت الرعدة قد اخذت منه كل ماخذ غفل عن ان له رفاقاً يتبعون اثره فاخذ غدارته السداسية وشرع يطلقها على الاشباح التي كان يراها سائرة وراءه وبينما كان يحشو الغدارة ثانية ليجدد اطلاق الرصاص صحا من نشوة اضطرابه واذا بايدٍ قوية قد قبضت على زنده ومنعته من اتمام العمل وكانت تلك الايدي ايدي مراد بك وعزيز اما الاشباح التي اصابها الرصاص فكانت اشباح سلبينا وذئاب وسمعان الذين تجندلوا على الارض يتضرجون بدمائهم . وذلك الحين اشعل الجنود المصابيح واوثقوا الروسة بالحال ثم احدقوا النظر بداخل ذلك السرب فكان هناك منظر هائل تقشعر منه الابدان اذ شاهدوا سلبينا مصاباً برصاصة براسه وقد قضى لساعته اما ذئاب وسمعان فكان الدم يتدفق من جراحهم وكانا على اخر رمق لان الرصاص قد اصاب صدر كل منهما . ولما ابصر سمعان الروسة مكتوفاً بين ايدي الجنود احدق به نظره ثم نظر الى سلبينا الذي كان مجندلاً قتيلاً بجانبه فقال للروسة مولاه بلهجة تشف عن الغضب والامتعاض : هذا جزاء من يخدم الاشرار .. الويل لك من رجل ماكر

ظالم اثيم لئيم فانك انت ايها الشرير الذي اطلق علينا الرصاص اذ رأيت الخطر محدقاً بك . يا لاعمالك ما اقبحها ويا لارشادتك ما افسدها . . . اني ارى سليما الطبيب مجانبي وهو شريكي وخليطي بالاثم واني قد اختلست اوراق جرجي اللباوي الطبيب فانتحلها لنفسي وكان ذلك بدسائسك ايها الشرير فالويل لك ثم الويل . . . ثم اخذ صوته بالانخفاض وانفاسه بالخمود . . . ثم لفظ هذه الكلمات : « اني اموت كشر يكي بالاثم بيدك ايها القاتل . . الانتقام . . . الانتقام ... »

ولم يتم هذا الكلمات حتى فاضت روحه فان الضربة كانت قاتلة ولم يكن بالامكان معالجته . اما ذئاب فقد حاول مراد بك مداواته ولكنه كان ايضاً مصاباً بضربة قاتلة بيد انه لم يمت الا بعد مضي ساعة من الزمان وباثناء تلك الساعة قد كشف الغطاء عن جنايات اخرى كان الروسه قد ارتكبها وذلك انهم بينما كانوا عائدين في ذلك السرب ابصر عزيز في احد جوانب الممر باباً فخلعه ثم احدق النظر فرأى مشهداً ترتعد منه الفرائص اذ هناك كانت جثث القتلى التي فتك بها الروسه واخفاها في تلك الغرفة الخفية داخل السرب ومن جملتها جثة خمرة وقد انبعثت في تلك الغرفة روائح خبيثة كريهة فاخرجت تلك الجثث وكان اكثرها قد صار الى الفناء . وبعد خروجهم من السرب ساروا جميعاً الى القاعة في منزل الروسة وهي الساعة التي يجتمع فيها مع اصحابه وخلطائه للمؤامرة والتي منها كانت تصدر مراسيم الشر والاثم . وكان مراد بك قد عني بمداواة ذئاب لكن عن غير جدوى لان الدم كان يتدفق من جرحه غزيراً ولما ايقن مراد بك ان الجريح قارب الموت استطلعه امر تلك الجثث فلم يجبه بشيء لشدة ما هو من الالم على انه تجلد ونظر الى الروسة بعين الغضب وقال : الويل لك فانك انت الذي سعى بهلاكي اذ ان هذه الرصاصة التي اطلقتها علينا تذهب بحياتي . الويل لي فاني قد انتهجت سبلك واتبعت اثامك فكان جزائي الموت ... ثم نظر الى مراد بك واذ عرفه قال له : اما انت ايها السيد الكريم فلا بد انك تذكرني ايام كنت اتظاهر بخدمتك وما كنت وقتئذ الا مدفوعاً من قبل هذا الوحش (الروسة) وهذه يدي قد وسمت بشهادة ذلي وآية شري ثم بسط يمينه فكانت كلمة « لص » مرسومة عليها

... ما كان من امر ذئاب ثم بادر يسأله عن تلك الجثث واذ تفرس بها ... وكاسف ... ترسل شرار الغيظ والغضب نظر الى الروسة وقال هؤلاء ايضاً ذ... فريسة غدرك و... فاعلموا يا قوم انني عرفت هذه الجثث مع ان اكثرها صائر الى الفناء فهذه جثة خمرة ومحبوبة ... وقاتل عقائيل اللباوي وحسوش قاتل ... وكلهم كانوا من خدمة

هذا الشرير ولا ريب عندي ولا مراء انه قاتلهم او كان سبب هلاكهم مخافة افشاء وإعلان امره وقد قال لي كذباً انهم زايلوا البلاد خشية العقاب

وفي تلك الدقيقة وصل الطبيب فصاح ذئاب قائلاً انكم تسعون بمداواتي عبثاً مشعر انّ المنون قد قربت على اني اسأ لكم ان تجازوا هذا الشرير الاثيم بما يحقق العذاب ... قال هذا ثم فاضت روحه وهو ينادي : الانتقام ! ... الانتقام ! ...

*****

٨

اما الروسة فكان موثوق الايدي لا يفوه ببنت شفة فبادر المستنطق لاستجوابه مما كان على انه استمر صامتاً فاودع السجن في تلك الليلة

اما تلك الجثث فبعد اجراء الفحص الطبي عليها بقدر ما يصل اليه الجهد حرر الطبيب لائحة تشير الى كيفية موتها ثم ارسلت كلها الى الكرنتينا قصد ان تدفن في الغد بعد اجراء جميع الرسوم القانونية

اما الروسة فظلّ يفكر ليلة بخديعة يتخلص بها من تلك الحال التي صار اليها فضاقت عليه سبل الحيل وانصرم حبل اماله وظلّ كالمذهول ... وكان يقول بنفسه :

انك انت يافريد وزوجتك غادة القاع قد اوقعتماني بهذا اليأس والبعتماني بشالخ الخزي والعار واقتدتماني الى مثل هذه الميتة الهائلة .. واوامني لا ارى لي سبيلاً للنجاة وعليه اريد أن اهلكك بهلاكي اما الغادة فلا أستطيع الى الضر بها سبيلا وذلك مما يزيد لهبي وأسفي . — انني قد حفظتُ الصمت لدى المستنطق ولكن ما الفائدة من الانكار بعد التقريرات التي جاء بها سمعان وذئاب اللذان قد سقاني الى دار العذاب ... اجل عليّ أن ابوح بسري واعلن امري مقرّا بكلما كان ... ولما كنتَ انتَ يافريد شريكاً لي بالاثم فلا ريب انك تقاسمني العذاب واني لارغب في ان انغص عيشك ولئن كان عيشك اصبح قصير المدة وان كنت لا تموت موتاً طبيعياً فثق انك تموت نظيري موت الذل والعار ... الويل لي كيف اذوق كأس المنون من يد غيري ... ذلك لا يستطاع ابداً ... الويل لك يافريد وقبحاً لك ياغادة القاع ! ...

ولما كان الغد دُعي الروسة الى غرفة الاستنطاق فسأله المستنطق ان يقر بجناياته قائلاً له : ان اثامك ظاهرة واضحة غنية عن البيان فلا تحتاج الى دليل وبرهان . على انك ان بحتَ بها من تلقاء نفسك فربما تنال بذلك رحمةً من لدن الحكام . اما الروسة

قد رق قلبها ورثت لحالة . وما نهض الامير من السرير حتى مال الى السقوط لشدة الضعف والوهن اذ ان قواه قد غادرته فقال : انني لا اقوى على النهوض بجانبك على اني سنتظرًا القضاء مصرحًا باني اثيم سيستوجب الجزاء

فقال الروسة متبسمًا : ما عليكم الان الا ان تصرحوا بما تعدونه لي ولجناب الامير من القضاء بالمجازاة

فاجاب مراد بك . ان الامير مطلق ولم اوجه اليه الملام فانه قد قاسى الامًا مرة انت علتها ومصدرها وقد حاول اخر عهده معارضتك والاقتصاص منك ولكن بعد فوات الحين . اما انت ايها الاثيم فانك كنت وكر الفساد ومنبع الشر وعليه فستجازي حسبما جنت يداك

فقال الروسة : اجل ان القضاة سيحكمون ولا ريب باعدامي على اني اود ان اعلم ايضًا القصاص المعد لرفيقي واية ميتة سوف يموت

— ان الموت لا ياتي الامير بالآلام اعظم من التي قاساها

— وما المراد بذلك

— اريد ان الامير يبقى حرًا على ما قدمت فانه قد انقذ والد غادة البقاع الذي رهبت انت في قتله وقد رغب في انقاذ اندراوس وعليه فلا نراه مذنبًا الا الى غادة البقاع فلها ان تطلب مجازاته او تصفح عنه

— اذا كنتم تذهبون هذا المذهب فاعلموا ان الامور لا تنطبق على ما توهمتم فان الامير سيكون رفيقي بالمحاكمة كما كان رفيقي بالاثم وذلك بما لديّ من الادلة التي تلقي عليه التهمة وقد انذرته بذلك يومًا . . ولا بد من ان الرأي العام يلهج بهذه الحادثة لدى الاستنطاق والمحاكمة لان دعوى مهمة كهذه نادرة الحدوث في بيروت لما فيها من تعدد الجنايات كالاكراه على الزواج واستئصال الورثة قصد الاستئثار بالتركة ثم القتل وسوابقه الى غير ذلك من الجرائم وانتم ادرى بالعار الذي يلحق بالامير والاميرة من وراء ذلك . . .

فقاطع فريد حديث الروسة بقوله : كفى يا الروسة — فاحسن ما يجب عليها عمله ان تندم على ما فات ونأسف على ما فرط ونكفر عن الاثم

— اما المداناة فليست من شاني واما الاسف فواجب عليّ لاختياري اياك زميلاً وانت من الجبن والطيش والحماقة بمكان

واذ ذاك نهض المستنطق وخاطب الروسة قائلاً

محه وهو في عنوان سعده وعنوان شبابه . ومع ذلك انه لم يكن آسفاً على
المجد وذبول نضارة الشباب وانصرام حبل الحيوة بما فيها بل كان متاسفاً
الدقيقة على فقده عرف الحب الطاهر ومداواة غادة البقاع تلك الرشيقة ال
فنادى الخادم ثانية واشار اليه ان يدعو تلك الغادة اذ انه قد احس فوراً بدنو

وكانت غادة البقاع اذ ذاك في غرفتها فاقبلت اليه مسرعة وكانت لابسة
بسيطه خالية من زخارف الازياء « الموضات » الجديدة التي تنقص من
المرأة باخفاء تناسب الاعضاء وتحويل هيأة البنية الطبيعية وكان وجه غادة
يتلألأ بهاء ويتألق جمالاً فنظر اليها الامير وتنهد قائلاً :

— غادة البقاع اني احبك كثيراً ! . . . اما هي فاذ رأته ملقى على
مكفهر الوجه تشير ملامحه الى دنو الاجل ارتعدت ونظرت اليه تشفقاً وحناناً

فاتم الامير كلامه قائلاً : لا تمنعوني من ان اصرح بحبي لك ياغادة البـ
لم يبق لي لمكالمتك غير برهة قصيرة جداً ارجو فيها ان انال السلامة اني انو

فاستانفت الغادة النظر اليه واخذتها هزة الحنو والاكتئاب فان
اتخذت هيئة جديدة لم تعهدها فيه اذ قد بطلت حركة عينيه الحيوية وجمد
واخذت شفتاه بالارتجاف والاختلاج فقالت له :

— هل أنك مشعر بألم

— كلا اني لا اشعر بشيء جديد

ثم قال لها بصوت مخنف

اذ . . .

كثيراً ... وقد كمل قصاص الانتقام ... بل زاد عن الحد المطلوب ...
علة الامي اني اموت كمداً لانقطاع حبل املي بحبك .. ولذلك فاني ازايل
الحيوة غير آسف عليها اذ بموتي ينتهي عذابي الناشئ عن اعراضك عني
وغضبك عليّ . . ثم اني اموت سعيداً لان موتي انما هو سبيل وحيد ينقذك ...
يجعلك سعيدة ... اموت سعيداً لان بموتي تحقق امانيك فتنالين ما ترغبين
. ... اني امضي وقلبي لايخشى ان يصيبك اذى من ذلك الانسان الشرير الذي
ان مصدر الرزايا ومعرس البلايا وقد كنت مشفقاً من انكِ بعد موتي تصبحين
ضاً لانياب ذلك الذئب الخاطف الذي لا تدخل الندامة فؤاده ... ولكن الان
اصبح عدوكِ غير قادر على الشر وبعد برهة تصبحين في امن من وجوده ووجودي
.. فلا يحول امر بينك وبين سعادتكِ ... وستسطعين باعادة النقاع ان
رمي بعهدكِ الاول نحو عز ...

ثم امسك عن الكلام لان حشرجة الموت قد احدثته فحملته تحت اجنحة الصدق
ضع يديه على صدره وزفر زفيراً عنه من جراء الهول والخوف

فقالت غادة النقاع واحمة . لندع الطبيب ... اني سائرة لادعوه

— ليس من حاجة الى ذلك اذ لم يبق من امل ... بل عجلي باستدعاء الكاهن
به يدفع القضاء المحتوم او يعينه

اثر ذلك اصاب الامير بحران استمر نحو عشر دقائق ثم استفاق فوجد بجانبه
... غادة النقاع وبعض الخدم فانصرف الجميع والى الامير والكاهن .

ثم عقب دلك صمت ... وسكون .. ثم ابدى فريد حركة ضئيلة ... ثم
عينيه شاخصاً الى غادة النقاع وقال لها اني اموت باعادة النقاع ... اموت
البال لما اني نلت السماح من لدنك ... طوماك ابنتها الامرأة الفاضلة ...
كر لك . قري عيناً ولا تخشي احداً فان الروسة اصبح مقيداً عن الاذى ...
شي سعيدة .. وازوريني بالدعاء .. الوداع .. ياغادة النقاع ... الوداع ! ...
ثم امال فريد راسه نحو غادة النقاع ... واودعها النظرة الاخيرة ثم اغمض
ت عينيه وفاض نفسه ... واعدمه الحركة الحيوية .. وذهب و للاقاة
على ابواب الابدية

وفي الغد وجد الروسة مشنوقاً في السجن على ما مر لك

ولما اتصل خبر موت الروسة وفريد بمراد لك ذهب الى المدعي العمومي والمستنطق
أ لهما ان يجعلا اوراق الدعوى في جملة الاوراق التي لا تراجع ودلك لانه لم
ق احد من المتهمين في قيد الحيوة اذ انهم نالوا من العدل الالهي جزاء ما جنت
يديهم من الشر فلم يبق من ثم للحكومة من دخل في الامر . وانما سعى مراد
ك في ذلك حرصاً منه على منزلة غادة النقاع المنسوبة اسماً الى الامير فريد
عب ان تبقى حوادث هذه الرواية طي الكتمان . وقد وافق المدعي العمومي
على طلبه وامر بدفن الروسة مع القتلى الذين وجدوا في السرب
. في ذلك النهار نفسه قد ورعت المناعي في المدينة

خاتمة

في جزاء الاخيار

انقضت سنة الحداد لفقادة البتاع على الامير فريد فاخذت تعد مقتضيات [illegible]
مرس وتتعد للاقتران بخطيبها عزيز
اما [illegible] [illegible] الى اصحابها متبعًا في توزيعها وصية المتوفي [illegible]
رار ذلك بالصورة الشرعية وجاد بهبات وافرة لشمعان ولفنان وحبيب فوق ما كا[illegible]
عدهما به وقد احسن ايضًا الى عائلة السي البخت سبب بما يقوم بحاجا[illegible]
اما جورج فلا

